
ميكافللي

مكيافيللي

فيلسوف السلطة

تأليف: روس كينج

ترجمة: فايقة جرجس
مراجعة: مجدي عبد الواحد عنبة



مكيافيللي
فيلسوف السلطة
روس كينج

Machiavelli
Philosopher of Power
Ross King

الطبعة الأولى ٢٠٠٨
ISBN 978 977 6263 21 5

كلمات عربية للترجمة والنشر
٤٢ شارع ابن قتيبة، حي الزهور، مدينة نصر، القاهرة ١١٤٧١
جمهورية مصر العربية
تليفون: ‎+٢٠٢ ٢٢٧٢٧٤٣١ **فاكس:** ‎+٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١
البريد الإليكتروني: kalematarabia@kalematarabia.com
الموقع الإليكتروني: http://www.kalematarabia.com

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
البريد الإليكتروني: tarjem@mbrfoundation.ae
الموقع الإليكتروني: www.mbrfoundation.ae

كينج، روس
مكيافيللي / روس كينج . - القاهرة : كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠٠٨
٢٨٨ص، ١٣,٠×١٨,٠سم
تدمك: ٥ ٢١ ٦٢٦٣ ٩٧٧ ٩٧٨
١- مكيافيللي، نيقولو، ١٤٦٩–١٥٢٧
٢- السياسيون الإيطاليون
أ- العنوان
٩٢٣,٢٤٥

إهداء

إلى كريستوفر سنكلير-ستيفنسون


إيطاليا
في أواخر القرن الخامس عشر
٠
٥٠
١٠٠
(ميل)
الشمال
إمارة
ترينتو
ميلانو
دويقة
ميلانو
بارما
مانتوا
البندقية
فيرارا
دويقتا مودينا و فيرارا
بولونيا
إيمولا
فورلي
جنوة
جمهورية
لوكا
بيزا
فلورنسا
جمهورية فلورنسا
فولتيرا
أريتسو
أوربينو
بيومبينو
سيينا
جمهورية
سيينا
بيروجيا
الدول
البابوية
روما
نابولي
مملكة نابولي
البحــــــــر التيراني
الأدرياتيكي

الفصل الأول

توغل نوع غريب من الحشرات في أرجاء المروج الواقعة على ضفاف نهر أرنو Arno بفلورنسا في صيف عام ١٤٩٨م. وكان لهذه الأسراب من اليرقات ذهبية اللون وجه إنسان — إذ كان يمكن تمييز أعينها وأنوفها — ويعلو رءوسها هالة ذهبية وصليب صغير. وسرعان ما عُرفت هذه الحشرات باسم «يرقات الأخ جيرولامو».

والأخ جيرولامو هو جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola، الراهب الدومينيكاني الجذاب ذو العينين الخضراوين الذي ينتمي إلى مدينة فيرارا Ferrara. وقد هيمن هذا الراهب على الحياة الروحية والسياسية بفلورنسا على مدار الأعوام الستة السابقة، بعظاته التي كانت تبث الخوف في النفوس من البحيرة المتقدة بالنار والكبريت. غير أن المدينة أفلتت كليةً من قبضة يديه الساحرة بحلول عام ١٤٩٨م، إذ عاقبه البابا ألكسندر السادس بالحرمان الكنسي في صيف عام ١٤٩٧م، وبعد مضى أقل من عام، أُعدم في صباح الثالث والعشرين من مايو/آيار عام ١٤٩٨ في الميدان الرئيسي بالمدينة كعقاب له، كما ورد على لسان أحد المؤرخين بسبب: «إثارة الفتنة في فلورنسا، والترويج لمذهب مخالف لتعاليم المذهب الكاثوليكي.»[1] وقد أُعدم شنقًا على المخلعة، ثم أُحرق جسده في النار التي التهمته إلتهامًا، وبعدها أُلقي الرماد في نهر أرنو

من أعلى جسر بونتي فيكيو، حيث انجرف مع مجرى النهر إلى البقعة التي ظهرت عندها اليرقات بعد ذلك ببضعة أسابيع دون وجود تعليل لظهورها.

ولم يكن سافونارولا هو الضحية الوحيدة في فلورنسا، في شهر مايو/أيار ١٤٩٨، فقد أُعدم كاهنان دومينيكيان إلى جانبه، ولقي آخرون من مؤيديه — الذين أَطلق عليهم المناوئون اسم «البكّائين» Piagnoni — مصائر مريعة بالمثل. وقد لقي أكثر حلفاء سافونارولا تمتعًا بالنفوذ السياسي — فرانشيسكو فالوري Francesco Valori — مصرعه بمنجل، ولقيت زوجته حتفها بعد أن تلقت سهمًا من قوس. وقد فُرضت الغرامات على العشرات من البكّائين، وحُرم بعضهم من التمتع بالحقوق السياسية، ونُفي العديد من رهبان دير سان مارك الذي كان يرأسه سافونارولا. وحتى جرس دير سان مارك — الذي كان يُطلق عليه لقب «البكّاء» La Piagnona لم ينج من العقاب هو الآخر، إذ أُنتزع من برجه وضُرب بالسياط أمام المارة قبل أن يُلقى أيضًا خارج فلورنسا.

وقد طال القصاص أعلى المستويات في الحكومة، إذ بدأ «مجلس السيادة» Signoria — وهو المجلس الحاكم في فلورنسا — حملة تطهيرية فورية لتجريد هؤلاء المتعاطفين مع سافونارولا من مناصبهم الرسمية. فقد طردوا الأعضاء العشر في مجلس «العشر للحرية والسلام» Dieci di Liberta e Pace وهو المجلس الذي كان يضطلع بشئون السياسة الخارجية، ولقي نفس المصير الرجال الثمانية الذين كانوا يشكلون لجنة «الثمانية للمراقبة» Otto di Guardia، وهي اللجنة المنوط بها شئون العدالة الجنائية. وكان من بين هؤلاء الذين طالهم القصاص أيضًا مسئول في المستشارية يُدعى أليساندرو براسيزي Alessandro Braccesi، وقد حل محله مبتدئ في السياسة، يبلغ من العمر تسعة

وعشرين عامًا يُدعى نيقولو مكيافيللي Niccolò Machiavelli. وكان يعد عمر التاسعة والعشرين — العمر الذي يحصل فيه الفرد على أهلية التصويت حينذاك — مبكرًا للغاية على أن يتقلد فيه فرد منصبًا مهمًّا مثل هذا، إذ يظل معظم الشباب في فلورنسا تحت وصاية أبائهم حتى عمر الرابعة والعشرين، ولا يتسنى للبعض بلوغ سن الرشد حتى سن الثامنة والعشرين. لكن مكيافيللي عوض صغر سنه وقلة خبرته بذكائه المتقد وبتعليمه الرائع الذي لا تشوبه شائبة وبالكم الهائل من الطاقة والطموح الذي تمتع به.

ولد مكيافيللي في فلورنسا في الثالث من مايو/أيار عام ١٤٦٩، وكان الابن الأكبر لبرناردو مكيافيللي Bernardo Machiavelli وزوجته بارتولومي Bartolomea. وسيكتب نيقولو فيما بعد: «ولدت فقيرًا، وتعلمت في عمر مبكر ألا أنفق سوى أقل القليل بدلًا من أن أعيش في ترف»[٢]. وينطوي هذا الزعم — مثل العديد من الأشياء التي كتبها — على نوع من المغالاة. فيبدو أن والدته انحدرت من عائلة عريقة وبارزة، وأن والده ينتمي إلى عشيرة ثرية كانت تمتلك على مدار عدة أجيال بقاعًا واسعة من الأرض في التلال المتعرجة التي تكسوها مزارع الكروم جنوب فلورنسا. وفي حقيقة الأمر، لم يكن برناردو مكيافيللي ثريًّا على الإطلاق، فقد وصف نفسه ذات مرة في إحدى الوثائق الضريبية — بصراحة متناهية — أنه «بدون مهنه مربحة»[٣]. لكن هذا لم يمنعه من أن يعيش في منزل كبير في حي سانتو سبيريتو Santo Spirito بفلورنسا بالقرب من جسر بونتي فيكيو، كما أنه اقتنى مزرعة خارج فلورنسا في قرية «سانت أندريا إن بركوزينا» Sant Andrea in Percussina احتوت على بساتين الكروم والتفاح وأشجار الزيتون إلى جانب الماشية. واشتملت ممتلكاته القروية أيضًا على حانة ومحل للجزارة.

أعد برناردو نفسه ليعمل في مهنة قانونية، ثم امتهن — دونما اهتمام أو تسجيل نجاح — مهنة موثق قانوني، ومن الواضح أن صيته قد ذاع في فلورنسا باعتباره عقلية قانونية من الدرجة الأولى. وقد أصبح صديقًا لمستشار فلورنسا، وهو باحث بارز يدعى بارتولوميو سكالا Bartolomeo Scala، الذي وصفه بأنه ضليع في القانون في بحث عنوانه «حوار حول القوانين والأحكام القضائية». غير أن أبرز خصال برناردو هي شغفه بالكتب، إذ جعله التعليم النظامي الذي تلقاه يدرس قواعد اللغة اللاتينية ويتقن الكتابة بخط اليد ويتعلم كيف يصوغ الوصايا ويعتمد عقود الزواج والعقود التجارية. غير أن عقله كان يجول باحثًا في الشئون الإنسانية على نحو يفوق ما قد يوحي به هذا العمل المكتبي، وفي سبعينيات القرن الخامس عشر كان برناردو يهوى الأعمال الأدبية الكلاسكية. ولعل كتاب Dialogue لبارتولوميو سكالا قد أوفاه حق قدره حينما أظهر معرفته ودرايته وهو يستشهد بأقوال مأثورة عن مؤلفين عظام من أمثال أفلاطون وجوستنيان وشيشرون ولاكتانتيوس. وبالطبع اقتنى برناردو في مكتبته الخاصة نسخًا لأعمال بعض الكتاب مثل ليفي Livy، وماكروبيوس Macrobius، التي كان أحيانًا يحصل على بعضها بثمن ليس بالقليل، كما كان يستعير البعض عندما تقصر يده عن شرائه من بعض المؤسسات، مثل مكتبة دير سانتا كروتشيه Santa Croce. وكان من أهم مقتنياته البارزة، نسخة من كتاب «تاريخ روما» الذي كتبه ليفي، وقد حصل عليه مجانًا مقابل تصنيف فهرس بأسماء الأماكن للمطبعة التي طبعته في فلورنسا. وبعد مرور أحد عشر عامًا، في عام ١٤٨٦م، غُلف الكتاب بالجلد وهي المهمة التي جعلته يقوم بمكافأة الشخص الذي جلده بمنحه ثلاث زجاجات من النبيذ الأحمر المعد في ضيعته في الريف.

ولم يكن برناردو وحده الذي بجل الأدب الكلاسيكي والتاريخ القديم، فثمة شغف شديد بثقافة العالم القديم كان قد وضع فلورنسا في الطليعة فيما يخص الأنشطة الفكرية والفنية الجديدة، التي عُرفت فيما بعد بالحركة «الإنسانية» Humanism، التي صرفت الاهتمام العقلي عن التركيز على الأمور الدينية التي كانت يومًا ما هي المبادئ والأفكار الأساسية للأدب الكلاسيكي؛ إلى التركيز على دراسات ذات قدر أكبر من العلمانية. وقد حاول رئيس المستشارية بفلورنسا في الفترة ما بين عامي ١٣٧٥م و١٤٠٦م، وهو باحث يُدعى كولوتشيو سالوتاتي Coluccio Salutati، أن يبرهن أن النصوص القديمة يمكنها أن تعلم الناس دروسًا هامة غير موجودة في الكتاب المقدس فيما يختص بالحياة الأخلاقية والسياسية المعاصرة. وقد تناول هو وأتباعه النصوص القديمة بطريقة عملية، إذ تعاملوا معها في الحقيقة على أنها كتيبات تعليمية تمتلئ بالحكم العملية المتعلقة بالحياة اليومية المدنية والأخلاقية. وقد اعتقدوا أن أعمال اليونانيين والرومانيين القدامى يمكنها أن توضح — بين جملة أمور أخرى — أفضل الطرق لتعليم الأطفال، أو لإلقاء الخطب، أو للكيفية التي يمكن بها للمرء أن يصبح مواطنًا صالحًا، أو لكيفية حكم الدولة — أي أنها توضح الأفعال والممارسات التي من شأنها أن تجعل الفرد و«المجتمع» سعداء وينعمون بالرخاء.

وقدم الإنسانيون للأوربيين الذين عاشوا في القرن الخامس عشر نظرة جديدة للعالم ولموضع الإنسان فيه، وكان من بين المصادر التي يستمدون منها إلهامهم ذلك الزعم الذي قدمه الفيلسوف اليوناني بروتاجوراس Protagoras القائل بأن «الإنسان هو مقياس كل شيء.» وقد كانت كل من الحكومة والقوانين وأخلاقيات المجتمع بالنسبة للمسيحيين في العصور الوسطى بأوربا تُفرض من قبل اللّه، أما بالنسبة لإنسانيي القرن الخامس عشر، فقد رأوا أن كلًّا من الإمبراطوريتين

الرومانية واليونانية من صنع الإنسان، وأن كلاهما يستحق الدراسة المتأنية ويعتبر عرضة للتغيير. ورغم أن العديد من الإنسانيين كانوا مسيحيين ورعين، فإن اهتمامهم كان ينصب على الشئون الإنسانية وليس على القيم السامية. أكد الإنسانيون على وجهة النظر الكلاسيكية فيما يخص الطبيعة البشرية أكثر من تأكيدهم على وجهة النظر المسيحية؛ إذ لم ينظروا للإنسان على أنه فاسد بالخطيئة التي ولد بها وفي حاجة إلي الخلاص من خلال نعمة الله، إنما رأوه كائنًا حرًّا ومبدعًا وقادرًا على تحديد مصيره، وقادرًا على السيطرة على كل من المنطق الأعلى والأهواء الدنيا.

ويبدو أن برناردو قد عزم أن ينعم ابنه بفوائد الثقافة الإنسانية المزدهرة في فلورنسا على الرغم من التكاليف التي قد يتكبدها. بدأ نيقولو في تعلم مبادئ اللغة اللاتينية بعد عيد ميلاده السابع بثلاثة أيام على يد معلم محلي يطلق عليه مايسترو ماتيو Maestro Matteo، الذي كان يُلقي دروسه في منزل يقع بالقرب من جسر سانتا ترينيتا Santa Trinità الذي يبعد مسافة قصيرة من منزل آل مكيافيللي. وفي غضون سنوات قليلة، كان مكيافيللي يدرس علم الحساب ويكتب باللغة اللاتينية تحت إشراف معلم أكثر شهرة يُدعى باولو دا رونسيليوني Paolo da Ronciglione. وكان باولو — إلى جانب تمتعه بقدر من السمعة الحسنة — أيضًا صديقًا وزميلًا لأحد كبار الإنسانيين وهو كريستوفرو لانديو Cristoforo Landino الذي أثرت تفسيراته لكتاب دانتي Dante الكوميديا الإلهية، التي نُشرت عام ١٤٨١م؛ تأثيرًا عارمًا على المسئولين في مدينة فلورنسا — إذ كان الشعراء والباحثون آنذاك يحظون بمثل هذا الاحترام الشديد — فكُوفئ بمنحه قلعة.

ويبدو أن مكيافيللي التحق بعدها بذات المؤسسة التعليمية التي عمل فيها لانديو Landino نفسه كمدرس للشعر والخطابة، والتي

تحمل اسم استوديو فيورنتينو Studio Fiorentino، وهي جامعة تأسست عام ١٣٤٨م ونُقلت إلى بيزا عام ١٤٧٣م. وفي حقيقة الأمر فإن حياة مكيافيللي الدراسية مجهولة لنا، ولهذا فمن الأسلم أن نفترض أنه حقق نجاحًا في ظل جو الجامعة الفكري المفعم بالحيوية. كان مكيافيللي رفيقًا جذابًا، وربما كان يتمتع بصفات جسدية غير جذابة؛ إذ كان نحيل القوام ذا شفتين رفيعتين وذقن صغير ووجنتين غائرتين وشعر أسود قصير؛ لكن تمتعه بذكاء حاد وميله إلى حياة الصخب والعربدة كان يناقض مظهره المتقشف؛ فمعظم اللوحات التي رُسمت له — وإن كانت بعد مماته — كانت تُبرز ابتسامة ساخرة تداعب شفتيه. ومع كونه قارئًا نهمًا للأدب الكلاسيكي، فقد ترك نفسه أيضًا لممارسات دنيئة مثل لعب القمار ومرافقة الغانيات. وكما ورد على لسان أحد أصحابه «كان يفيض بالجاذبية والظرف.» وادعى آخر أن مزاحه وطرفه كانت تجعل الجميع «ينفجرون ضحكًا». وقد اشتهر باسم مكيا Machia، وهو تورية لكلمة مكيا Macchia التي تعني لطخة أو بقعة، إشارةً إلى الضرر الذي يحدثه بلسانه اللاذع وطُرفه الوقحه.

جعلت الجامعة مكيافيللي يقف على أرض صلبة فيما يخص جوهر الفروع الدراسية الخاصة بمنهج الحركة الإنسانية، مثل البلاغة وقواعد اللغة والشعر والتاريخ والفلسفة الأخلاقية. وكانت قصيدة الفيلسوف الروماني لوكريشيوس Lucretius التي تحمل عنوان «حول طبيعة الأشياء» De rerum natura، وهي المخطوطة الوحيدة التي أُعيد اكتشافها وأُعيدت إلى فلورنسا في عام ١٤١٧م؛ أحد النصوص التي يبدو أنه درسها ببعض الاهتمام، إذ نسخ بخط يده أبيات القصيدة كلها التي بلغ عددها سبعة آلاف وأربعمائة بيت. ويبدو أن مكيافيللي الشاب قد فتنته الحجة الرئيسية للوكريشيوس القائلة بأنه ينبغي

التخلص من الخوف والخرافات الدينية باستخدام العقل والتعمق في دراسة الآليات الخفية للطبيعة.[٤]

انهمك مكيافيللي في دراسة الشعر وكذلك الفلسفة. وقد جُمعت ثلاثة من أعماله التي كتبها إبان شبابه في ديوان شعر مزود بلوحات للرسام ساندرو بوتيشيلي Sandro Botticelli، واشتمل الديوان أيضًا على عشر قصائد من تأليف لورنزو دي ميديتشي Lorenzo de' Medici الملقب بلورنزو «العظيم»، الحاكم الفعلي لفلورنسا في الفترة ما بين عام ١٤٦٩م — وهو العام الذي وافق مولد مكيافيللي — وحتى مماته عام ١٤٩٢م. وكان المديتشيون أكثر عائلات فلورنسا ثراءً وأعظمها قوةً ونفوذًا. وقد أصبح جد لورنزو، كوزيمو دي ميديتشي Cosimo de' Medici، وهو ابن لأغنى مصرفي بأوروبا؛ الحاكم المطلق الفعلي لفلورنسا في عام ١٤٣٤م عقب طرد الحكومة الموجودة آنذاك. احتفظت العائلة منذ ذلك الحين بسيطرتها على المدينة لفترة امتدت لستة عقود، إذ كانت تحترم المؤسسات الجمهورية من الناحية الشكلية فقط، لكنها في الواقع كانت تخول لأيدي مؤيديها جميع السلطات.

كان كوزيمو ولورنزو راعيين للفنون يمتلكان حسًّا فنيًّا رفيعًا، وقد اتسما بالسخاء فقاما بتمويل بناء الكنائس والقصور وتقديم الدعم «للأكاديمية الأفلاطونية» الجديدة والشهيرة التي كانت تعقد لقاءاتها خارج فلورنسا في المبنى المعروف باسم فيلا دي كاريجي. أما مدى قوة العلاقة بين مكيافيللي وآل مديتشي، فهي لا تزال مسألة خاضعة للتخمين، إذ يبدو أن مكيافيللي — على الأقل لفترة من الزمن — كان أحد أعضاء جماعة من الإنسانيين ضمت باحثين وفنانين وفلاسفة، وهي جماعة رفيعة المقام، كان من ضمن أفرادها الشاب مايكل أنجلو Michelangelo، وكانت تحظى برعاية لورنزو. وقد أهدى مكيافيللي إحدى قصائده الشعرية إلى جليانو دي ميديتشي، الابن الأصغر للورنزو،

الذي سيصبح في سن المراهقة عندما تُجمع هذه القصائد في أوائل التسعينيات من القرن الخامس عشر. وأيًّا كان نوع العلاقة التي ربطت بين مكيافيللي وآل ميديتشي، فقد انقطعت انقطاعًا كليًّا عام ١٤٩٤م عندما هبت ثورة شعبية ضد بيرو الابن الأكبر للورنزو الذي اتصف بالغرور وعدم الكفاءة (والذي عُرف بالمشئوم)؛ ونفت المديتشين عنوة.

عثر مكيافيللي عندما وصل إلى أواخر العشرينات من عمره على المهنة التي تمكنه من استغلال مواهبه المتعددة، إذ كانت السياسة تجري في عروقه. فعلى مدار القرنين السابقين، تولى العديد من أفراد عائلته مناصب سياسية في فلورنسا، إذ بلغ إجمالي عدد من شغلوا — بين حين وآخر — أرفع منصب مدني وهو منصب «حامل لواء العدالة» من آل مكيافيللي؛ ثلاثة عشر شخصًا، وكان ألمع مَن شغل هذا المنصب هو جيوفاني مكيافيللي Giovanni Machiavelli — أحد من عاصروا دانتي — الذي انتُخب في مناسبات عديدة لتولي هذا المنصب الرفيع، بالرغم من قيامه بقتل كاهن واتهامه بالاغتصاب. أما الاثنان الآخران اللذان صنعا اسمًا لهما من آل مكيافيللي فهما فرانشيسكو Francesco وجيرالمو Girolamo، أبناء عم برناردو من الدرجة الثانية، وكلاهما قُطعت رأسه بسبب معارضة نظام حكم الأقلية الذي شاب عصر كوزيمو دي مديتشي.

ويبدو أن نيقولو انغمس — غير مكترث بالمصير الذي لقيه أقرباؤه — في أمور السياسة في تلك الأشهر المضطربة التي سبقت سقوط سافونارولا. وفي أوائل عام ١٤٩٨م، حاول مكيافيللي الفوز بمنصب السكرتير الأول لمجلس السيادة، وهو المنصب الذي يقدم الدعم الإداري للمجلس الجمهوري الحاكم. فبعد أن رشح نفسه في مواجهة ثلاثة مرشحين، لم ينجح في كسب أصوات كافية، ولعل ذلك يرجع

إلى أوراق اعتماده التي كانت تحمل مواقف معادية لسافونارولا.[٥] لكن رياح التغير حملته سريعًا إلى المنصب، فبعد مُضي ثلاثة أشهر وبمجرد موت سافونارولا واضطهاد البكائين الوحشي؛ حصد مكيافيللي النتائج الطيبة. ففي الثامن والعشرين من مايو/آيار عام ١٤٩٨، رشحه «مجلس الثمانين» — وهو المجلس المُضطلع بمسئولية تعيين سفراء للجمهورية والمسئولين الحكوميين الآخرين — لمنصب هام ورفيع المستوى هو منصب المستشار الثاني. ولأن عملية التعيين كانت تتطلب تصديقًا من «المجلس العظيم للشعب» المكون من ثلاثة آلاف مواطن؛ فقد أُرسل اسمه إليه. ووجد مكيافيللي نفسه مرة أخرى أمام ثلاثة مزاحمين آخرين على الوظيفة، لكنه أُختير هذه المرة، وبالتحديد في التاسع عشر من يونيو/حزيران، ليكمل فترة تولى المنصب التي تبلغ عامين خلفًا للمعزول أليساندرو براسيزي. وهكذا وصل إلى السلطة الرجل الذي سيقترن اسمه فيما بعد بالحكم الغاشم والاستبدادي؛ بناء على الأصوات التي أدلى بها مواطنوه.

وكانت فلورنسا، المدينة التي تحتضن بين جدرانها مايقرب من خمسين ألف مواطن، قد أعادت تشكيل نفسها كجمهورية عقب طرد المديتشيين في عام ١٤٩٤م. وكان المجلس العظيم للشعب هو حجر الزاوية الذي يستند عليه الجمهوريون، وهو مجلس مكون من رجال فلورنسيين تتجاوز أعمارهم التاسعة والعشرين ويتمتعون بحق التصويت على التشريعات وعلى انتخاب الموظفين الذين يقترحهم مجلس السيادة الذي هو الذراع التنفيذي للحكومة. ويتألف مجلس السيادة من ثمانية سادة إلى جانب الرئيس الرسمي للحكومة الذي يسمى «حامل لواء العدالة». وقد صاغ هؤلاء الرجال التسعة سياسة الجمهورية بالتشاور مع العديد من اللجان، مثل مجلس العشر للحرية والسلام، ولجنة الثمانية للمراقبة.

وكان الأمناء في مجلس السيادة يعدون كافة مراسلاتهم — من تقارير وخطابات ومعاهدات.

ولم تكن المستشارية الفلورنسية مجرد حكومة بيروقراطية عادية؛ إذ عمل بها على مدار أكثر من قرن بعض من أبرز العقليات الأدبية في فلورنسا، من شعراء ومؤرخين وباحثين في الأدب اللاتيني واليوناني. ومن ثم، كانت المراسلات الرسمية للحكومة — التي كانت تُصاغ دائمًا باللغة اللاتينية — ذات مستوى أدبي رفيع جدًّا، وكان كولتشيو سالوتاتي هو أول من بادر باستخدام الاقتباسات والتلميحات الكلاسيكية في الوثائق الرسمية. وقد حُوفظ على استمرار مسألة الرفعة الأدبية عن طريق مارسيلو فيرجيلو أدرياني Marcello Virgilio Adriani، الذي أُنتخب كسكرتير أول للمجلس في عام ١٤٩٨م، وهو باحث في الأدب اليوناني، وإلى جانب دوره في المجلس كان يقوم بالعمل كمدرس للشعر والبلاغة في جامعة أستوديو فيورنتينو. وكان أليساندرو براسيزي نابغة أيضًا، فقد ألف ثلاثة دواوين من الشعر باللغة اللاتينية، وترجم إلى اللغة اللاتينية رواية «قصة عاشقَين» Tale of Two Lovers وهي رواية تدور أحداثها حول علاقة حب غير شرعية، وقد ألفها إينياس سيلفيوس بيكولوميني Aeneas Silvius Piccolomini عام ١٤٤٠م، وهو الرجل الذي أصبح فيما بعد البابا بيوس الثاني.

وفي عام ١٤٩٨م، التحق عدد كبير من الأمناء يتروح ما بين الخمسة عشر والعشرين بالمستشارية، تدرب معظمهم ليكونوا موثقين أو باحثين إنسانيين، وكان نصفهم يعمل تحت إشراف المستشار الأول المعني بالشئون الخارجية. أما الباقون فعملوا مع المستشار الثاني، وهي الوظيفة التي استحدثت لأول مرة عام ١٤٣٧م للمساعدة في التعامل مع كمية المراسلات الهائلة والمتزايدة باستمرار. ولكون نيقولو مكيافيللي المستشار الثاني، كان عليه أن يهتم — على الأقل من الناحية

الشكلية — بالقضايا الداخلية. وكان مجلس السيادة شديد الحرص فيما يتعلق بالإنفاق؛ ولهذا كان يستخدم المستشارين أنفسهم كمبعوثين إلى بعض الجهات الأجنبية مخولين ببعض السلطات، لكن من دون أي من مظاهر الترف كتلك التي يحظى بها السفير الحقيقي. علاوة على ذلك، كان المستشار الثاني يقدم المساعدة الإدارية لمجلس العشر للحرية والسلام، وهو المجلس المنوط به الإشراف على العلاقات الخارجية للجمهورية. وفي واقع الأمر، عُين مكيافيللي رسميًّا كسكرتير لمجلس العشر في غضون شهر من دخوله المستشارية، وبالتحديد في الرابع عشر من يوليو/تموز، وهي الوظيفة التي ألزمته أن يمتطي الجواد ويسافر إلى الخارج مع المبعوثين والسفراء الفلورنسيين، بدلًا من البقاء جالسًا على مكتبه يعد التقارير عن الشئون الداخلية للبلاد. لقد كان نيقولو على وشك أن يرى العالم.

وكان الأجر الذي يتقاضاه ميكافيللي نظير عمله كمستشار ثان هو ١٢٨ فلورين، وهو يعتبر أجرًا كافيًا غير أنه بعيد كل البعد عن الأجور المترفة، باعتبار أن متوسط الدخل السنوي لحرفي ماهر في فلورنسا آنذاك كان يتراوح تقريبًا بين ثمانين وتسعين فلورين. وكان لميكافيللي بعض المساعدين الذين يعملون تحت سلطته، وكان من بينهم صديق له يُدعى بياجيو بواناكوريزي Biagio Buonaccorsi، وموثق يُدعى أوغسطينو فسبوتشي Agostino Vespucci — ابن عم المستكشف أمريجو فسبوتشي Amerigo Vespucci. تكدس كل هؤلاء الموظفين في مكتب ضيق ذي واجهة بحرية بالطابق الثاني من (قصر مجلس السيادة) Palazzo della Signoria، وقد استُخدم هذا المبنى الضخم الذي يشبه الحصن كمقر لحكومة فلورنسا*. وكان يُتوصل إلى هذا

* المبنى المعروف الآن باسم «القصر القديم» Palazzo Vecchio أشير إليه هنا اسم «قصر مجلس السيادة» Palazzo della Signoria، لأن هذا هو الاسم الذي أُطلق عليه إبان فترة تولي مكيافيللي لمنصبه،

المكتب من طريق حجرة أكبر منه، تُعرف باسم قاعة الزنابق Hall of the Lilies، التي كانت تستخدم كحجرة طعام للسادة. وتميزت قاعة الزنابق باحتوائها على الزخارف المنمقة، وكانت تشتمل على مدخل مصنوع من الرخام وسقف مطلي بالذهب. ويتصدر مقدمة الحجرة تمثال داوود David المصنوع من الرخام والذي نحته دوناتيلو Donatello، وتتزين الجدران بلوحات جصية لبعض القديسين رسمها دومنيكو جيرلاندايو Domenico Ghirlandaio المعلم الأول لمايكل أنجلو.

وثمة قطعة فنية أخرى تُزين أيضًا قاعة الزنابق، فقد رُسمت لوحة «عجلة الحظ» Wheel of Fortune، فوق أحد أبوابها نحو عام ١٤٠٠م وإلى جانبها قصيدة شعرية (سونيتا) تحذر المرء من أن يضع ثقته في الآلهة المتقلبة ذات النزوات «فورتونا» Fortuna[٦] (آلهة الحظ الرومانية). وقد بدا أن هذا التحذير جدير بالاعتبار بدرجة كبيرة في الأيام التي عقبت البطش المأساوي بسافونارولا وأنصاره. غير أن الآلهة فورتونا تبسمت لنيقولو مكيافيلي، ففي صيف عام ١٤٩٨م، استعد مكيافيلي ليخطو أولى خطواته نحو أروقة السلطة.

وذلك من أجل الدقة التاريخية. وهو لم يأخذ اسمه الحالي «القصر القديم»، إلا بعد أن أقتنى المديتشيون «قصر بيتي» Palazzo Pitti عام ١٥٤٩م، إذ هجرت العائلة «قصر مجلس السيادة» Piazza della Signoria، (الذي استخدموه من قبل كبلاط لهم)، إلى «قصرهم الجديد» الذي يقع على الجانب الجنوبي من نهر أرنو.

الفصل الثاني

عندما أنهى دومينيكو غيرلانديو مجموعة لوحاته الجصية التي تصور أطوار حياة القديس يوحنا المعمدان على جدران كنيسة «سانتا ماريا نوفيلا» في فلورنسا، وقّع تحتها بخط مزخرف: «في عام ١٤٩٠م، الذي نعمت في غضونه هذه المدينة الأبرع جمالًا المشهورة بانتصاراتها وفنونها ومبانيها؛ بقدر عظيم من الازدهار والرخاء والسلام.» وما كان هذا الازدهار والرخاء والسلام ليدوم، فقد شابت السنوات التي انحصرت بين وفاة لورنزو العظيم في عام ١٤٩٢م ومصرع جيرالامو سافونارولا في عام ١٤٩٨م الاضطراب وتخللتها الفاجعات. فقد توالت مواسم حصاد سيئة، كان من بين مسبباتها العواصف الهوائية العنيفة التي اجتاحت البلاد، مما أفضى إلي حدوث مجاعة. وبحلول ربيع عام ١٤٩٧م، كان الفقراء يتضورون جوعًا في شوارع فلورنسا. وفي صيف نفس العام، صاحب كسوف الشمس العديد من حالات الوفاة من جرّاء الطاعون والحمى بمعدلات تتجاوز المئة نفس يوميًّا. وقام الطاعون بزيارات منتظمة إلى فلورنسا على مدار قرن ونصف من الزمان كانت آخرها خلال الشهر الذي شهد موت سافونارولا. ومما زاد الأمور سوءًا، ظهور مرض جديد عُرف «بالمرض الفرنسي» — وهو مرض الزهري — الذي كان يشوه وجه المصابين به بالبثور ويسبب العمى في بعض الحالات. وكان

هذا المرض — كما ورد على لسان أحد قاطني فلورنسا، فرانشيسكو جوتشيارديني Francesco Guicciardini: «مريعًا للغاية، لدرجة أنه يستحق أن يذكر كأحد أبشع الفاجعات»، لكن لا يزال يتفق الكثيرون من الناس على أن أعظم كارثة حلت بفلورنسا في غضون هذه السنوات — بل بإيطاليا كلها — هي الغزو الفرنسي لشبه الجزيرة على يد الملك تشارلز الثامن.

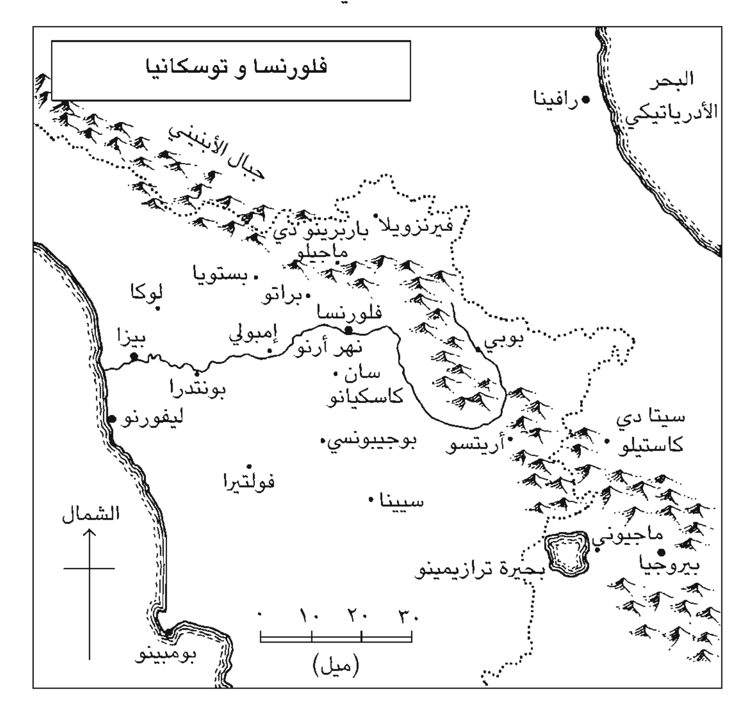
وكانت شبه الجزيرة الإيطالية في تسعينات القرن الخامس عشر مزيجًا يتألف مما ينيف على اثنتي عشرة من الممالك والدوقيات والإقطاعيات ودول المدينة والجمهوريات المستقلة. غير أنه كان يوجد خمس قوى مهيمنة، فكانت القوتان المسيطرتان في الشمال هما دوقية ميلانو التي تحكمها عائلة سفورزا Sforza، وجمهورية البندقية التي اتسعت أراضيها ونفوذها كثيرًا نحو الداخل بعيدًا عن قنواتها وبحيراتها. أما مملكة نابولي — التي حكمها على مدار الخمسين عامًا الماضية أفراد من عائلة أراجون Aragón الملكية — فقد شغلت الثلث الجنوبي من إيطاليا، في حين أن الدول البابوية (دولة الكنيسة) استحوذت على جزء كبير من المنطقة المركزية، فقد كان البابا يحكم ما يقرب من مائتين وخمسين ميلًا من الأراضي الممتدة على شكل خط مائل عبر شبه الجزيرة الإيطالية من روما جنوبًا وحتى بولونيا شمالًا. وخامس قوة رئيسية هي فلورنسا التي ضمت أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل مربع من ريف توسكانيا، كما شملت مدينة بيزا.

وكانت هذه القوى الخمس المهيمنة تنعم إلى حد ما بالسلام فيما بينها منذ عام ١٤٥٤م، عندما أبرم ممثلوهم ميثاق عدم اعتداء يُسمى «ميثاق لودي للسلام». لكن الموازين انقلبت رأسًا على عقب بموت ملك نابولي الملك فيرديناند الأول عام ١٤٩٤م الذي عُرف باسم دون فيرانته Don Ferrante. فلقد سارع ملك فرنسا الشاب الطموح،

تشارلز الثامن، باتخاذ إجراءات تناقض في مضمونها معنى لقبه، إذ كان يلقب «بتشارلز الدمث الخلق». فلكونه ابن حفيد لويس الثاني دوق «أنجو» الذي كان قد تُوج ملكًا على نابولي عام ١٣٨٩م، ادعى ادعاء واهنًا بأحقيته في عرش نابولي، فقد حضه الدوق الجديد لميلانو، لودوفيكو سفورزا Ludovico Sforza المجرد من الأخلاق؛ على الاستمرار في مزاعمه، وكانت النتيجة أن الملك الفرنسي عبر جبال الألب ومعه جيش ينيف على ثلاثين ألف جندي في سبتمبر/أيلول عام ١٤٩٤، مرغمًا كافة السلطات الإيطالية على أن تقر بما إذا كانت تؤيد أحقيته بالعرش أم تؤيد ابن دون فيرانته، «ألفونسو الثاني» الذي كان قد تُوج مؤخرًا على العرش.

في بادئ الأمر أعطى الفلورنسيون تأييدهم لألفونسو، بيد أن منظر الجيش الفرنسي المريع على أرض توسكانيا، الذي استولى بسهولة ويسر (ووحشية) على المعقل الفلورنسي بمدينة «فيفيزانو» سرعان ما عجل باقتلاع ولائهم، أو على الأقل ولاء بيرو المشئوم. تنبأ لورنزو العظيم ذات مرة بأن سقوط حكم أسرة ميدتشي سيكون على يد ابنه الأكبر بسبب طيشه وغطرسته. وسرعان ما تحققت هذه النبوءة إذ قدّم بيرو المذعور — حتى بدون أن يكلف نفسه ويستشير شعبه أو مجلس السيادة — ولاءه لتشارلز إلى جانب العديد من المعاقل الفلورنسية بما فيها معقل بيزا. وقد أثار مثل هذا الاستسلام الخانع سخط شعب فلورنسا، وفي غضون أيام، فر بيرو وسائر عائلته إلى المنفى على صيحات «الشعب والحرية!» لقد حصل الشعب الفلورنسي على حريته لكن ما خسره كان ثمينًا للغاية: لقد خسر مدينة «بيزا».

وتعد هذه الخسارة — بالنسبة للفلورنسين — أكثر العواقب المخزية للغزو الفرنسي إذ حكمت فلورنسا جارتها «بيزا» — مدينة الميناء الثرية — منذ عام ١٤٠٦م. وكان تشارلز الثامن قد وقع في



نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٤٩٤ معاهدة مع الفلورنسيين يعدهم فيها بإعادة بيزا إليهم فور استيلائه على نابولي، لكن ما حدث أن عملية استرداد المدينة انطوت على صعوبة بالغة، ذلك لأن أهل بيزا، كما علق أحد المؤرخين المعاصرين: «كانوا بطبيعتهم ناقمين بشدة على الهيمنة الفلورنسية.» وأعقب ذلك سنوات من المناوشات حاول الفلورنسيون في غضونها استعادة السيطرة على هذه المدينة الثمينة دون طائل. وفي مايو/أيار من عام ١٤٩٨، هزم أهل بيزا الفلورنسين في سان ريجولو San Regolo، وقد عظموا مهانتهم بأسر قائدهم العسكري لودوفيكو دا مارشيانو Ludovico da Marciano.

كان استرداد بيزا من أهم البنود الأساسية في جدول أعمال مجلس السيادة ومجلس العشر لدى دخول نيقولو مكيافيللي المستشارية في عام ١٤٩٨م. وقد بلغت المشكلة أوجها نظرًا لأن فلورنسا لم يكن لديها جيش خاص بها، ولذلك كان عليها أن تدفع لآخرين، شأنها في ذلك شأن الدول الإيطالية الأخرى، إذ كانت تدفع لجنود مرتزقة من الدول الإيطالية الأصغر والأفقر ليقاتلوا في معاركها. وكان هؤلاء المرتزقة الذين عُرفوا باسم «قادة المرتزقة» شرًّا لا بد منه بالنسبة للمدن التجارية مثل فلورنسا التي يعكف مواطنوها على الاهتمام بالتجارة بدلًا من الانخراط في الأمور الحربية. وكمنت إحدى المشكلات الكبرى في أن الرجال الذين يقاتلون مقابل الحصول على أكياس الدوكات، وليس بدافع حب بلدهم، لا يُتوقع منهم أن يحاربوا ببسالة بالنيابة عن مؤجريهم. وكان السلوك المتكاسل والمراوغ والمنافق لقادة المرتزقة يفوق كل وصف.

وفي ظل إجبار المشئوم لودفيكو دا مارتشيانو على البقاء سجينًا في إحدى قلاع بيزا، بات الفلورنسيون بحاجة إلى شخص آخر يقود هجماتهم العسكرية. فعينوا في يونيو/حزيران عام ١٤٩٨م قائد مرتزقة ذائع الصيت يُدعى باولو فيتيلي Paolo Vitelli، كقائد عسكري جديد لهم، وهو ابن لقائد عسكري سيئ السمعة من مدينة سيتا دي كاستيلو الواقعة بإقليم أومبريا. ورغم أن فيتيلي كان يبلغ من العمر سبعًا وثلاثين عامًا فحسب، فإنه عمل بالجندية في جميع أنحاء إيطاليا منذ أن ذاق طعم الحرب لأول مرة وهو في الثالثة عشرة من عمره. وكان فيتيلي — شأنه شأن الكثير من القادة المرتزقة — محاربًا تقليديًّا إذ كان يُفضل استخدام البلطة والسيف عن استخدام البندقية. وقد اشتهر بقيامه بفقء عيون وقطع أذرع من يأسرهم من الرجال المسلحين بالبنادق وذلك لشدة كراهيته للوسائل الحديثة المستخدمة في الحروب،

إذ يقوم جنود مشاة وضيعون باصطياد الفرسان الذين يمتطون الجياد باستخدام أسلحة نارية.

وبعد مرور شهر من تعيين فيتلي، استعان مجلس السيادة بمرتزق ثانٍ يُدعى جاكوبو دابيانو Jacopo d'Appiano — حاكم مرفأ بيومبينو Piombino وجزيرتي إلبا Elba و«مونت كريستو» Monte Cristo بتوسكانيا. وكان جاكوبو البالغ من العمر ثمانية وأربعين عامًا، قائد مرتزقة محنك أيضًا، فقد حارب من قبل لصالح كل من نابولي وميلانو وسيينا، بل إنه حارب في عام ١٤٩٦م ضد فلورنسا نفسها لصالح بيزا. وقد استأجر الفلورنسيون جاكوبو نظير خمسة وعشرين ألف دوكات، وهو يعد مبلغًا ضخمًا بالنظر إلى إجمالي عوائد المدينة السنوية من الرسوم والضرائب الأخرى غير المباشرة التي تصل إلي مئة وثلاثين ألف دوكات. لكن جاكوبو لم يكن قانعًا بشروط هذا العقد — فقد أراد خمس آلاف دوكات أخرى — وعليه كُلف مكيافيللي في مارس/آذار عام ١٤٩٩م بالسفر إلى مدينة بونتدرا Pontedera التي تبعد عشرين ميلًا خارج بيزا، حيث يُخيم جاكوبو. وكانت التعليمات التي أُعطيت له من قبل مجلس السيادة من النوع الذي سرعان ما سيألفه على نحو يدعو للأسف. كان عليه أن يؤكد لجاكوبو ميل فلورنسا لتحقيق مطلبه ولكن دون أن يعبر عن ذلك بكلمات صريحة أو محددة، ومن ثم لا يكون على مجلس السيادة أي التزامات فعلية كي تفي بها نحوه.

وكانت هذه هي البعثة الدبلوماسية الأولى لمكيافيللي، لذا كان عليه أن يستجمع كافة مهاراته البلاغية. وكان والد مكيافيللي قد استعار من بائع أدوات كتابية فلورنسي يُدعى «زانوبي» عام ١٤٨٠م واحدة من أشهر الدراسات على الإطلاق التي كُتبت حول فن الخطابة وهي كتاب شيشرون «في الخطابة» De oratore. وسواء قرأ نيقولو هذه النسخة تحديدًا أم لا (إذ كان مكيافيللي حينئذ في الحادية عشرة من

عمره)، فحتمًا درس هذا العمل الشهير فيما بعد في مرحلة متقدمة من تعليمه. ويصف شيشرون في هذا العمل السمات المتنوعة التي تميز الخطيب الجيد وكذلك التمرينات العملية التي يمكن أن يوظفها الخطيب كي يحسن قدراته؛ مثل: تدريب صوته، واستخدام الإيماءات، والتمكن من الحقائق، وتحسين الذاكرة، وكسب رضا الجمهور، وهلم جرًّا. وكانت الحكومة الفلورنسية تقدر البراعة الفائقة في الخطابة، مثل تلك التي يصفها شيشرون، آيما تقدير (كما هو الحال في مفاوضاتهم مع جاكوبو دابيانو) إذ كانت دائمًا تفضل أن تمنح حلفاءها كلمات بدلًا من أفعال، فقد كان أدرياني Adriani — المستشار الأول — أستاذ بلاغة في الجامعة. ولقد بدا أن قدرات مكيافيللي في الفن الرفيع للاقناع — مثل مهاراته في التحدث والكتابة — لم تضمن له وظيفته الهامة في المستشارية فحسب بل ضمنت له أيضًا هذه المهمة الحساسة كسفير لاسترضاء لورد بومبينو العنيد.

بيد أن تدريب مكيافيللي على البلاغة أَعدَّه بالكاد لهذه البعثة إلى المخيم العسكري الذي يقع خارج بيزا في بقعة ريفية مستنقعية محفوفة بمخاطر الفيضانات. واعتاد مكيافيللي سريعًا امتطاء الجياد لمسافات طويلة كي يبرر للقادة العسكريين الطماعين الذين ينقادون بالمال أكثر من الكلمات؛ يبرر لهم طرق مجلس السيادة المقتصدة في الإنفاق. ولم يكن من الغريب، أن تئول أولى خبرات مكيافيللي مع قائد مرتزقة إلى نتائج غير مرضية، إذ كان جاكوبو سياسيًّا ماكرًا أفضى تعنته وعناده ذات مرة إلى عقابه بالحرمان الكنسي من قبل أحد البابوات الساخطين عليه. ومع ذلك، آلت المهمة إلى نجاح إلى حدٍ كبير، فقد ظل جاكوبو على عهده بحماية فلورنسا وشن الهجمات على بيزا.

بدا مكيافيللي وقد أبلى بلاء حسنًا، فبعد مضي أشهرٍ قلائل، وفي احتدام حرارة الصيف، بُعث في مهمة مماثلة تقريبًا. فقد اتجه إلى

مدينة فورلي Forlì، التي تبعد خمسين ميلًا شمال شرق فلورنسا، في الجانب الآخر من جبال الأبينيني Apnnines، تاركًا وراءه كما يقول: «عبأه الثقيل من المهام» في المستشارية. وكانت مهمته هذه المرة هي إقناع قائد مرتزقة ثالث هو «أوتافيانو رياريو» Ottaviano Riario كي يقبل تجديد عقده (الذي كان قد انتهى في يونيو/حزيران السابق) دون أي زيادة في الأجر المتفق عليه من قبل. وكان على مكيافيللي أن يتفاوض بالأحرى مع «كاترينا سفورزا» Caterina Sforza — والدة المرتزق الشاب، الذي لم يبلغ العشرين من عمره بعد، والذي كان في ميلانو في ذلك الوقت. وكان إرسال مكيافيللي ليتعامل مع شخصية مرعبة للغاية مثل هذه يعد دليلًا على ثقة مجلس السيادة بمستشارهم الثاني الشاب.

كانت كاترينا سفورزا بطبيعتها شخصية مخيفة على نحو يفوق شخصية جاكوبو. ورغم أنها لم تكن تبلغ من العمر سوى ست وثلاثين عامًا، فإنها كانت شخصية أسطورية ذات تاريخ مأساوي عاصف. وكاترينا هي الابنة غير الشرعية لدوق ميلانو «جاليزو ماريا سفورزا» Galeazzo Maria Sforza، الذي اتصف بالوحشية والفسق، والذي اغتاله المتآمرون عام ١٤٧٦م على أعتاب سلم كاتدرائية ميلانو. وقد جعلها الموت القاسي الذي ألم بأولئك المقربين إليها، إذ كانت في الثالثة عشر من عمرها حينئذ، تعتاد الأمر بدرجة رهيبة. فقد تزوجت كاترينا في سن الخامسة عشرة من «جيرولامو رياريو» Girolamo Riario، ابن شقيق البابا سيكستوس الرابع Sixtus IV وأمير مدينتي فورلي وإيمولا. وقد أُغتيل جيرولامو عام ١٤٨٨م، وكذلك زوجها الثاني «جياكومو فو» Giacomo Feo بعد ذلك بسبع سنوات. أما زوجها الثالث «جيوفاني دي ميدتشي» Giovani de' Medici، الذي يمت بصلة قرابة إلى لورنزو العظيم، فقد توفي عام ١٤٩٨م وإن كان لأسباب

طبيعية. ولم تفلح هذه المآسي في أن تُثبط معنويات كاترينا التي لُقبت بلقب «المرأة المحاربة»، إذ اشتهرت بجرأتها التي تصل إلى حد الوقاحة. فلقد تحدت قاتلي زوجها الأول بأن فرت منهم وحدها إلى قلعة فورلي، وعندما هددها القتلة بقتل صغارها إذا لم تذعن لهم، ظهرت على سور القلعة رافعة تنورتها إلى أعلى مظهرة أعضاءها التناسلية، ثم قالت ساخرة (كما ورد في الأسطورة): «لا يزال بمقدوري إنجاب أطفال غيرهم!» كما أظهرت كاترينا مؤخرًا أسلوبها الخاص في الجرأة التي تصل إلى حد الوقاحة المهلكة عندما حاولت قتل البابا ألكسندر السادس Alexander VI، فقد أرسلت إليه مجموعة من الخطابات ملفوفة في قطعة من القماش كانت ملفوفة من قبل حول رأس إحدى ضحايا الطاعون.

اشتهرت كاترينا بجمالها، قدر اشتهارها بتظاهرها بالشجاعة فكانت ذات شعر أشقر ضارب إلى الحمرة وبشرة بيضاء ناعمة. وكانت تحتفظ بكتاب سردت فيه وصفات العناية بالبشرة (وأيضًا وصفات لتحضير السموم بطيئة المفعول). وقد خلدها الفنان الفلورنسي «لورنزو دي كريدي» Lorenzo di Credi بأن رسمها، وقد تمتع التجار في فورلي بنشاط تجاري مزدهر من وراء بيع لوحات صغيرة لوجهها. وبالعودة إلى المستشارية، نجد صديق مكيافيللي، «بياجيو بوناكورزي» يشتهي أن يحصل على واحدة من هذه الصور، فقال له: «أود أن تبعث لي مع ردك صورة لجلالتها على رقعة من الورق، فهي شائعة الانتشار هناك» ثم استطرد محذرًا إياه: «لفها ولا تطوها لأن الطي قد يتلفها.»

ولم تفتن المرأة المحاربة مكيافيللي بدرجة كبيرة. لقد أمضى قرابة الأسبوعين في فورلي، حيث كانت المفاوضات تتأرجح بين التقدم والتراجع، لأن كاترينا كانت تماطل مرة تلو الأخرى كي تكسب المزيد

من الوقت للتمعن في الأمر، مدعية أنها لا تملك الجنود أو البارود، ثم تعود وتغير أي اتفاق في اللحظة الأخيرة، فلم تُعجَب كاترينا بالكلمات المنمقة الجوفاء التي كانت حجر الزاوية الذي تستند عليه معظم شئون الدبلوماسية الفلورنسية. وفي آخر الأمر، ضاق مكيافيللي ذرعًا من عدم إحراز أي تقدم، وقبل عودته إلى فلورنسا في مستهل أغسطس/آب عبّر علانية عن ضجره «بالكلمات والإيماءات» (وهو أسلوب أقل تهذيبًا وأدبًا من ذلك الذي أوصى به شيشرون). بيد أن الأمر بدا عند هذه النقطة كما لو كانت فلورنسا مشرفة على أن تنجح في عدوانها على بيزا، سواء بمساعدة كاترينا وجنودها وبارودها أم بدونهم.

وتلقى مكيافيللي خطابًا من بياجيو بوناكورزي قبل عودته إلى فلورنسا بأيام قلائل يقول فيه: «إن سير حملتنا على بيزا يزداد تحسنًا أكثر فأكثر.» لم تكن هذه الكلمات مجرد تفكير نابع من رغبة شخصية، فمنذ تعيين باولو فيتلي قائدًا عسكريًّا لفلورنسا، منذ عام مضى، وهو يشن حملة غير حاسمة من المناوشات على أهل بيزا، حملة شهدت تبادل الغارات على القرى، وسلب الماشية، وإهلاك المحاصيل الزراعية، وحرق القلاع. لكنه أخيرًا مع قدوم شهر أغسطس/آب قام بتغيير طريقته وشنَّ حملة مباشرة على بيزا نفسها. أرسل فيتلي — بناء على تحريض من أخيه الأكبر فيتلوزو Vitellozzo — قواته التي استولت على الفور على معقل أسكانيو Ascanio القريب (وقد قطع فيتلي كعادته أذرع المدافعين عن المعقل)، ثم شرع في قصف بيزا باستخدام مائة وتسعين مدفعًا. وبحلول السادس من أغسطس/آب، أطاحت مدفعيته بأربعين ياردة من السور الذي يطوق المدينة، وبعدها بأربعة أيام، اقتحم جنوده حصن بيزا مجبرين قائده العسكري على الفرار. وبعد مضي أيام قلائل، وفي غضون الاحتفال بعيد صعود السيدة العذراء، استولى جنوده على كنيسة وما يتاخمها داخل سور المدينة. وهكذا، بعد ما يقرب من خمس

سنوات من الاستقلال، أخيرًا، بدا أن المدينة المتمردة ستقع مرة أخرى تحت رحمة فلورنسا.

ومع ذلك فإن مجلس السيادة لم يجازف إذ أصدر قرارًا — في ظل القصف المستمر — باحضار لوحة «المادونا» Madonna (السيدة العذراء مريم) من مدينة «إمبرونيتا» Impruneta إلى فلورنسا وذلك في خضم الإعداد لهجوم فيتلي. وكانت لوحة المادونا هي أثمن لوحة في فلورنسا، وقد رسمها القديس لوقا، كما ورد في الأساطير، وقد وُجدت مدفونة تحت الأرض في عام ١٠٠٠م تقريبًا حينما كانت تُحفر أساسات كنيسة سانتا ماريا التي تقع في إمبرونيتا على بعد سبعة أميال جنوب فلورنسا. ويُقال إن اللوحة وُجدت تبكي من الألم عندما ارتطم الجاروف بها، ومنذ ذلك الحين حُفظت هذه الصورة الخارقة في الكنيسة، وقد جرت العادة أن تُحمل إلى فلورنسا وقت الحاجة إليها في موكب يكون المشاركون فيه حفاة القدمين وتكون الصورة مغطاة بعناية. وعلى مدار السنوات الخمس السابقة، نُقلت اللوحة إلى فلورنسا على الأقل في أربعة أحداث مختلفة كي تحدث المعجزات، مثل جعل الطقس معتدلًا كي يتناسب مع الحصاد عام ١٤٩٤م، وكذلك في حادثة المذبحة الدموية التي حدثت لأربعين جندي من بيزا على أيدي أهالي ليفورنو Livorno، عام ١٤٩٦م.

أما في هذا الحدث الأخير، وبالتحديد في الرابع والعشرين من أغسطس/آب، فقد توقف الموكب الذي يحملها حينما تعلقت الصورة في فرع إحدى أشجار الزيتون، إذ كانت تُنقل عبر الطريق المار بالريف، وعلى الرغم من هذا الحادث المؤسف فقد نظر الجميع للأمر على أنه فأل حسن. بيد أن أهل بيزا لم يذعنوا. أما الإشاعات التي راجت بأن أهل بيزا يتسلحون بسهام مسممة فقد جعلت رجال فيتلي يترددون في الهجوم. ولم يكن فيتلي نفسه في الحالة المزاجية التي تسمح له

بأن يحشد كل قدراته وملكاته العقلية لمواجهة الأمر؛ إذ إن مجلس الشعب كان قد اتخذ قرارًا يعارض السماح له بنهب المدينة (وهذا النهب كان من شأنه أن يجعله هو ورجاله أثرياء بسبب الغنائم التي كانوا سيحصلون عليها)، مما أفقده الرغبة في شن مزيدٍ من الهجمات. لقد كان متمردًا إلى درجةٍ أثارت على الفور الشكوك حول خيانته، تلك الشكوك التي زادها قراره برفع الحصار في مطلع سبتمبر/أيلول (بزعم أن الملاريا كادت تقضي على جنوده). وكان هذا الإخفاق مثل ضربة قاصمة ومذلة معنويًّا لأهل فلورنسا، وكما ورد على لسان أحد المعلقين: «لقد كانت فلورنسا تموج بهمهمات الغضب.»

كان نيقولو مكيافيللي أحد الأشخاص الذين أثار حيرتَهم وسخطَهم إخفاقُ فيتلي غير المبرر في الاستيلاء على المدينة. فإذا كان مكيافيللي قد كوّن بالفعل أفكارًا سيئة عن كل من جاكوبو دابيانو وكاترينا سفورزا، فإن التردد ذا العواقب الوخيمة لفيتلي يوجز الاستخفاف بالمسئولية والنفاق الذي يوسم به هؤلاء الذين يحاربون في سبيل المال وليس من أجل المثل الوطنية، فرفع فيتلي للحصار جعل منه متهمًا إما بالجبن وإما بما هو أبشع من ذلك وهو التآمر خفية مع العدو، وكان مكيافيللي مقتنعًا بالأمر الثاني. ونظرًا لسخط مكيافيللي الشديد على «غدر فيتلي»، كما أطلق عليه، ادعى مكيافيللي أن مسئولية إخفاق الحصار «تقع على عاتقه»، وكتب مكيافيللي أن قائد المرتزقة قد استحق «عقابًا أبديًّا».

ولم يدم الأمر طويلًا حتى نال فيتلي هذا العقاب، فقد قُبض عليه وأُعيد إلى فلورنسا حيث نال قسطًا من العذاب على المخلعة، ثم قُطعت رأسه في الأول من أكتوبر/تشرين الأول بعدما اتُّفق على أنه مذنب (بالرغم من عدم توافر الأدلة) عند محاكمته بتهمة تقاضي رشوة من أهل بيزا. ونُفذ حكم الإعدام في بهو يعلو قصر مجلس السيادة حيث اكتظت الساحة أسفل القصر بالجموع. وقال واحد ممن شاهدوا

الواقعة: «كان من المتوقع أن يُلقى برأسه إلى الساحة»، واستطرد قائلًا: «لكنها لم تُلقَ إلى أسفل، بل عُلّقت على رمح وعُرضت في شرفات البهو وإلى جانبها شعلة مضيئة حتى يتسنى للجميع رؤيتها.»

وفي نفس الوقت اعتقل عدد من رفاق فيتلي المقربين إليه بما فيهم طبيبه الخاص، وكان من بينهم رجل مُسمى على اسم الملاك «شاروبيم» شُنق بعد ذلك بقليل في شرفة «قصر ديلابودستا» Palazzo del Podestà. لكن فيتلوزو — أخو باولو — الذي كان أحد قادة المرتزقة والذي اشتهر بشراسته، تمكن من الهرب من قبضة العدالة الفلورنسية. ويمثل هروبه مع مئتين من الجنود إحدى الهفوات التي ستندم عليها فلورنسا لاحقًا.

الفصل الثالث

كان من المقرر أن تنتهي فترة تولي مكيافيللي لمنصب مستشار ثانٍ بعد أشهر قلائل من الفشل الذريع في الاستيلاء على بيزا، وقد جرت العادة أن يُنتخب المستشارون للمنصب في البداية لفترة تدوم سنتين، أما في حال مكيافيللي فقد اختير عام ١٤٩٨م ليشغل المنصب لفترة عشرين شهرًا فحسب؛ وهي الأشهر المتبقية من مدة تعيين أليساندرو براسيزي. وفي السابع والعشرين من يناير/تشرين الثاني عام ١٥٠٠ وُضع اسم مكيافيللي أمام مجلس الشعب للمرة الثالثة في خلال فترة لم تتجاوز العامين. وبلا شك لم يُؤخذ الفشل في اخضاع بيزا ضد مكيافيللي، ويتضح ذلك في عودته إلى منصبه في حينه، إنما هذه المرة لفترة تمتد لسنة واحدة طبقًا للوائح. ولم يكافأ مكيافيللي فحسب بمنحه مدة جديدة في المنصب وإنما أُعطي أيضًا ستة فلورينات ذهبية «نظير الأهوال التي خاضها». وبلا ريب، توالت المخاطر على فلورنسا وذلك يُعزى إلى عدم السيطرة على بيزا حتى ذلك الحين، وكذلك بسبب الحرب الصريحة التي نشبت بين فرنسا وميلانو.

وفي مايو/آيار، كان مكيافيللي يعد للرحيل إلى بيزا عندما توفي والده، وبدا أن مكيافيللي ووالده برناردو كان كل منهما قريبًا من الآخر للغاية؛ فقد كانا يتشاركان الشغف بالكتب، والولع بالسياسة،

والتمتع بروح دعابة لاذعة. وكانت والدة مكيافيللي قد قضت نحبها عام ١٤٩٦م، وكانت أختاه الكبيرتان قد تزوجتا، لذا كان يعيش مكيافيللي وحده في منزل بفلورنسا مع أخيه الأصغر توتو Totto، الذي كان يسعى للعمل في الكنيسة. ولم يكن برناردو نفسه متدينًا بدرجة كبيرة، مع أنه تبرع بستار مزخرف وُضع خلف مذبح أحد الأديرة بحيث يمكن أن تُتلى الصلوات في القداسات على روحه. وقد دُفن في مدافن آل مكيافيللي في كنيسة سانتا كروتشيه بفلورنسا، وحدث في غضون الأعوام القلائل التالية احتيال غريب ومريع إلى حد ما، فقد دُفن عدد من الجثث بطريقة غير مشروعة في هذه المقبرة، وعندما أراد أحد رهبان كنيسة سانتا كروتشيه التخلص من هذه الجثث الدخيلة على المقبرة، جاء رد نيقولو ليكشف عن جانب من شخصيته وشخصية والده، إذ كتب نيقولو يقول: «دعهم، فوالدي كان يعشق التحدث مع الآخرين، وكلما كان بصحبته المزيد من الجثث، ازدادت سعادته.»[١]

ولم تترك الأعباء الحكومية لمكيافيللي الكثير من الوقت ليندب أباه، فلم يكد يمر إلا شهران على موت برناردو حتى شرع في رحلته التي بلغت مسافتها ٤٥٠ ميلًا إلى ليون بفرنسا في منتصف يوليو/تموز. وكانت هذه أولى رحلاته خارج إيطاليا؛ وهي أولى رحلاته بحق التي يسافر فيها من فلورنسا ممتطيًا الجياد لأكثر من مجرد بضعة أيام. وأُعطي مكيافيللي ثمانين دوكة نفقة للرحلة، كما مُنح شرف صحبة أحد الرجال البارزين وهو فرانشيسكو ديلا كازا Francesco della Casa، السفير السابق لدى فرنسا. كانت التعليمات المعطاة لمكيافيللي من قبل مجلس السيادة تقول: «يجب عليك التحرك بأقصى سرعة ممكنة»، وهو الأمر الذي دفعه إلى قيادة الجياد بسرعة وتبديلها كلما أمكنه في كل استراحة من استراحات المسافرين[٢]. ولم تكن مهمة مكيافيللي هذه المرة هي التفاوض مع قائد حقير مثل جاكوبو دابيانو، وإنما التفاوض

مع أحد أكثر الرجال نفوذًا في أوربا وهو الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا.

وكانت قضية بيزا هي سبب هذه البعثة أيضًا؛ ففي نهاية يونيو/حزيران، أي بعد مضي عشرة أشهر على إجهاض حصار باولو فيتلي، أعاد الفلورنسيون مجددًا غاراتهم على المدينة المتمردة بيزا. وكانت القوات تتألف هذه المرة من مرتزقة سويسريين وجاسكونيين أعارهم الفرنسيون إياهم لأن الملك لويس الثاني عشر (الذي خلف الملك تشارلز الثامن عام ١٤٩٨م) كان قد وعد بإعادة بيزا إلى الفلورنسيين مقابل حصوله على خمسين ألف دوكة. ومرة أخرى لم تسر الأمور كما هو مخطط لها. وفي تكرار مريع لأحداث الصيف الماضي، وبمجرد قيام القوات بتدمير بعض الحصون بالمدفعية، ومن ثم بات الطريق خاليًا أمامهم؛ لم يُظهر السويسريون والجاسكونيون أي حماس لدخول المدينة أكثر من ذلك الذي كان من رجال فيتلي. بل تصرفوا في الحقيقة بطريقة أسوأ من تلك التي تصرف بها جنود فيتلي، إذ هجر العديد من الجاسكونيين الميدان ناهبين ما طالته أيديهم في طريقهم. أما السويسريون فقد اقترفوا أمورًا أكثر خسة، فقد احتجزوا المبعوث الفلورنسي كرهينة وطلبوا فدية حتى يطلقوه.

ثم اُختير مكيافيللي لمرافقة ديلا كازا في بعثته إلى بلاط ملك فرنسا لأنه شاهد بأمِّ عينيه الكثير من هذه المشاهد الفوضوية والحقيرة، وكان على كل منهما أن يُجنب الفلورنسيين أي لوم في القضية، ويُعلم الفرنسيين بأن الخطأ يقع على عاتق القائد الفرنسي الذي تصرف — كما قال مجلس السيادة — تصرفات تنم عن «الجبن والفساد».

وفي السادس والعشرين من يوليو/تموز وصل مكيافيللي وديلا كازا إلى البلاط الفرنسي في ليون، بعد اجتيازهما جبال الألب عبر طريق مون سيني Mont Cenis، قاطعين ما يقرب من خمسين ميلًا

في اليوم الواحد. لكنهما لم يكادا يصلان ليون حتى أُجبرا على امتطاء جواديهما مرة أخرى ومتابعة المسير لمسافة ١٢٥ ميلًا نحو الشمال الغربي إلى مدينة نيفير Nevers التي تقع في قلب منطقة بورجاندي Burgundy، نظرًا لأن البلاط الملكي كان بلاطًا رحالًا (وعدم استقرار مقر البلاط يعكس ولع الملك لويس الثاني عشر بصيد الآيائل الحمر، وكذلك توقه للفرار من الطاعون المتفشي.) ولم يكادا يصلان إلى مدينة نيفير حتى أُرغما على اللحاق بالبلاط لمسافة تسعين ميلًا شمالًا إلى مدينة مونتارجي Montargis. ومرة أخرى، لم يكادا يصلان إلى مدينة مونتارجي حتى وجدا البلاط قد واصل مسيرته الجليلة إلى مدينة ميلون Melun بالقرب من باريس، ثم انتقل البلاط بعد ذلك مباشرة مسافة مئة ميل غربًا متجهًا إلى مدينة بلوا Blois. وهكذا قطع مكيافيللي وديلا كازا منذ خروجهما من فلورنسا ما يزيد على سبعمائة ميل (فكما يذكر أجوسطينو فيزبوتشي في أحد خطاباته إلى مكيافيللي متعجبًا): «غالبًا ... يقع البلاط في عالم آخر.»

ولم يكن كل من مكيافيللي وديلا كازا متحمسين للقائهما مع الملك لويس ومستشاره المفضل جورج دامبواز Georges d'Amboise الملقب بكاردينال روان Rouen، والتقى المبعوثان الفلورنسيان بالملك لويس ومستشاره روان (الذي كان مكيافيللي يدعوه روانو Roano) للمرة الأولي في نيفير. ولم تفلح المناقشات التي جرت على مدار الأسابيع القليلة التالية في تحسين العلاقات بين فلورنسا وفرنسا؛ إذ لم يكن الملك لويس راغبًا في المضي قدمًا في الحرب إلا في حال قيام فلورنسا بتمويلها، والأدهى من ذلك، أنه كان يريد أن يدفع الفلورنسيون أجور السويسريين العصاة. وعجز الفلورنسيون — الذين كانوا في حاجة إلى العون الفرنسي للاستيلاء على بيزا مرة أخرى — عن رفض مطالبه. ومع ذلك شاب رد الحكومة الفلورنسية التردد والمراوغة اللذان كانا من

شيم سياستها الخارجية، ولم يختلف إحباط مكيافيللي من جراء هذه التكتيكات المماطلة كثيرًا عن إحباط الملك، فقد نوه في مراسلاته لرؤسائه أن الفرنسيين «لا يحترمون إلا أولئك المتسلحين تمام التسليح أو أولئك الذين لديهم النية في الدفع»، لكن بكل أسف افتقر الفلورنسيون إلى كلا الحالين. والواقع، كما أخبرهم إياه مكيافيللي، أن الفرنسيين «يطلقون عليكم سادة نكرة».

وبلا ريب، تلذذ مكيافيللي في نقل هذه الإهانة إلى هؤلاء الرجال الذين كان يتزايد حنقه عليهم يومًا بعد يوم، إذ كانت إحدى المشكلات الفطرية للحكومة الفلورنسية التي اكتشفها مكيافيللي تكمن في سياسة «الباب الدوار» إذا جاز التعبير، أي في قصر مجلس السيادة. فقد كان يُنتخب السادة الثمانية ورئيسهم حامل لواء العدالة لفترة مدتها شهران. والسبب في هذه الفترات بالغة القصر أنه ما من أحد غير أعضاء النقابات التجارية والصناعية يصلح للمنصب، ومن ثم فإن الفترات القصيرة لتولي مناصب الخدمة العامة تضمن عدم بقائهم طويلًا بعيدًا عن مخازنهم ومكاتبهم المحاسبية. بيد أن ما كان يصلح للتجارة والصناعة لم يكن يصلح للسياسة؛ فلما كان الرجال الذين تولوا هذا المنصب في قصر السيادة لفترات قصيرة — قليلي الخبرة أو المعرفة، أصبحت فترات توليهم المنصب تنتهي دون أن يكتسبوا أية خبرات فعلية في الشئون العامة. ولم تقتصر العواقب على الافتقار إلى الاستمرارية والخبرة فحسب، بل أيضًا الافتقار المتأصل للمبادرة والاتجاه الواضح من جانب حكومة أضحت مغرمة بالتفوه بحِكم جوفاء مثل: «على المرء ألا يخاطر إلا عند الضرورة القصوى.»[٣] ولم تستطع مثل هذه الأقوال المأثورة الجوفاء أن تبهر كثيرًا رجلًا مثل مكيافيللي ولا سيما في هذه المرحلة المبكرة من حياته المهنية.

وسرعان ما أصبح جليًّا أن الأمر يحتاج إلى شخصيات تتمتع بنفوذ أكبر مما يتمتع به مكيافيلي وديلا كازا للتفاوض مع حليف شديد البأس وصعب المراس مثل الملك لويس الثاني عشر. بيد أن مجلس السيادة داوم على سياسة التلكؤ المعهودة، تاركًا مكيافيلي الحانق ينتظر أسبوعًا تلو الآخر مجيء سفير فلورنسي إلى فرنسا. ولم ينقضِ منتصف ديسمبر/كانون الأول، حتى كان بيد مكيافيلي رسالة تلقاها في مدينة نانت Nantes تفيد أن السفير أخيرًا قادم في الطريق، مما جعل بال مكيافيلي يهدأ أخيرًا ويتسلم تصريح بدء رحلة عودته إلى فلورنسا. وكان لدى مكيافيلي — في غضون رحلة عودته الطويلة إلى إيطاليا — متسع من الوقت حتى يفكر مليًّا في أوجه عجز الحكومة التي كانت أسيرة للجنود ونزوات الحكام الآخرين، والتي أسست سياستها الخارجية على ما لا يزيد عن التلكؤ والمراوغة.

وكان مكيافيلي تواقًا إلى الرجوع إلى فلورنسا، لقد افتقد أصدقاؤه في المستشارية شخصيتَه المفعمة بالحيوية، وبالتأكيد افتقدهم هو أيضًا. ففي أكتوبر/تشرين الأول، تسلم مكيافيلي خطابًا من فيزبوتشي يصف له كيف أن بياجيو وغيره من موظفي السكرتارية «تتملكهم جميعًا رغبة عارمة لرؤيتك بسبب أحاديثك المسلية والمضحكة والممتعة التي عندما تتردد أصداؤها في آذاننا، ينتابنا شعور بالراحة والبهجة والانتعاش.» وثمة شخص آخر في فلورنسا كان بالمثل يترقب عودة «مكيا»، فقد كتب له مساعد بالمستشارية يُدعى أندريا دي رومولو Andrea di Romolo عن امرأة عاهرة بالقرب من جسر بونت ألي جراتسي Ponte alle Grazie تنتظره «فاتحة فرجها ... أنت تعرف عما أتحدث».

وعاد مكيافيلي إلى فلورنسا في الرابع عشر من يناير/كانون الثاني عام ١٥٠١، بعد أن أمضى ستة أشهر كاملة خارج فلورنسا. وصاحب

عودته مزيج من الحزن والقلق وكذلك البهجة، فقد توفيت أخته الكبيرة بريمافيرا Primavera أثناء غيابه وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها تاركة وراءها زوجها وصبيًّا في الرابعة عشرة من عمره يدعى جيوفاني Giovanni، الذي كان مريضًا بشدة لدى عودة مكيافيللي. كتب توتو البائس شقيق ميكافيللي قائلًا: «إن هذا هو عام بلايانا.»

كان على مكيافيلي أيضًا أن يضع في حسبانه مسألة إعادة انتخابه، إذ ستنتهي فترة توليه لمنصبه التي دامت مدة عام بنهاية الشهر، فمنذ شهر أكتوبر/تشرين الأول وفيزبوتشي يحذره بأن وظيفته ستكون عرضة لأن يفقدها ما لم يَعُد. وعاد مكيافيللي إلى وظيفته في الوقت المناسب لكنه ناشد رؤساءه أن يمنحوه راحة كان في أمس الحاجة إليها، فقد أخبرهم أن شئونه الخاصة «في حالة فوضى عارمة».

الفصل الرابع

تمتد المنطقة الإيطالية المعروفة باسم رومانيا Romagna إلى ما يقرب من تسعين ميلًا من الجنوب الشرقي من بولونيا إلى ساحل البحر الأدرياتيكي، ويحدها طريق مستقيم يبدو وكأنه خط مرسوم بالمسطرة معروف باسم طريق فيا أميليا Via Aemilia وهو طريق روماني قديم، كما احتوت المنطقة على عدد من المدن الحصينة وهي إيمولا Imola، وفاينتسا Faenza، وفورلي Forlì، وتشيزينا Cesena، وريميني Rimini، ثم تنحدر قليلًا نحو الجنوب لتضم أيضًا مدينة أوربينو Urbino، وكذلك مدينة تشيتا دي كاستيلو على الجانب الآخر من جبال الأبنيني. وكانت رومانيا جزءًا من الدول البابوية، وكان لكل من تلك الدول نائب يحكمها باسم البابا الذي كان يُؤدى له مبلغ سنوي يُعرف باسم «الجزية». وعادة ما كان يورث هذا المنصب داخل عائلة من يتولاه: فنجد عائلة مانفريدي هي العائلة الحاكمة في فاينتسا، وعائلة مالاتيستا في ريميني، وعائلة سفورزا في بيزارو، وعائلة فيتلي في تشيتا دي كاستيلو. وعلى الرغم من كونهم ليسوا أكثر من مجرد أتباع للبابا، فإن الكثيرين منهم كان لديهم مسار مستقل. وكانت أكبر سلعة يصدرونها إلى الخارج هي الحرب نظرًا لأن معظمهم — مثل عائلة فيتلي — كانوا قادة مرتزقة. وما كتبه دانتي قبل

قرنين في «الكوميديا الإلهية» بأن «الحرب كانت وستظل في قلب طغاة رومانيا»[1] — كان لا يزال صحيحًا عام ١٥٠٠م. وأحيانًا ما كان طغاتها يشنون الحرب حتى ضد البابا نفسه، كما هو الحال مع سيجيسمندو مالاتيستا Sigismondo Malatesta، المُلقب باسم «ذئب ريميني» وهو قائد عسكري عنيف ومارق، قتل أول زوجتين له، وسافر عام ١٤٦٨م إلى روما بنيّة صريحة (لم تتحقق) لقتل البابا بولس الثاني.

وهؤلاء الحكام المولعون بالحرب والحريصون على مصالحهم الذاتية جعلوا من رومانيا أضعف دولة في الدول البابوية. ولطالما كانت رومانيا على مدار قرون منطقة موحشة وغير مستقرة وعرضة للمعتدين من الخارج وغير جديرة بالثقة في علاقتها مع البابا. وقد اشتدت المخاطر المنهالة على البابوية حديثًا بمحاولة كاترينا سافورزا — حاكمة مدينتي إيمولا وفوريلي الرومانيتين — اغتيال البابا ألكسندر السادس، الذي كان يعرف من قبل باسم رودريجو بورجيا Rodrigo Borgia، وبعد إخفاق مؤامرتها في مارس/آذار عام ١٤٩٩، أصدر ألكسندر مرسومًا بابويًّا يجردها فيه من ممتلكاتها وأطلق عليها لقب «ابنة الإثم». وسرعان ما غزى سيزار بورجيا Cesare Borgia، ابن البابا البالغ من العمر أربعة وعشرين عامًا أراضيها في نهاية عام ١٤٩٩م. وفرت كاترينا إلى معقلها بفورلي، لكن هذه المرة لم يكن هناك حاجة للتظاهر بالشجاعة على السور، فقد ذُبح جيشها المكون من أربعمائة جندي الذي يحميها، وأُسرت هي نفسها وأُخذت إلى روما كسجينة.

ولم تكن كاترينا سفورزا هي الشغل الشاغل الوحيد للبابا، فقد أراد ألكسندر إيجاد حليف للكنيسة يمكن التعويل عليه بشكل أكبر — ويقوم في أثناء ذلك بتأسيس أسرة بورجيا الحاكمة — وذلك عن طريق تنصيب سيزار كحاكم لرومانيا بأكملها. وكان سيزار مجرد أداة لتحقيق طموح والده في معظم سنوات العقد السابق؛ إذ وجد نفسه

وهو في سن الخامسة عشرة أسقفًا على مدينة بمبلونا Pamplona، وفي سن السابعة عشرة — أي بعد عام واحد من اختيار والده لمنصب البابا — أضحى كاردينال مدينة فالنتسيا، وهو ما يعد قفزة سريعة في الرتب الكنسية باعتبار أنه لم يحصل أساسًا على أية درجات كهنوتية، وأيضًا باعتبار ما كتبه أحد المؤرخين بتكتم شديد، إذ قال عنه: «لقد كان عازفًا تمام العزوف عن المهن الكهنوتية.» وفي ١٤٩٧م، تنازل عن منصب الكاردينال، عقب اغتيال أخيه الأكبر (ويعتقد الكثيرون أنه وراء هذا الحادث) كي يمتهن عملًا علمانيًّا. وفي العام التالي، أصبح سيزار دوقًا على فالنتينوا (ولذلك لُقب في إيطاليا باسم فالنتينو Valentino، كمكافأة لوالده من الملك لويس الثاني عشر نظير منح البابا إياه حق الطلاق من زوجته. لكن سيزار وأباه اشتهيا الحصول على حكم دوقيات أرفع شأنًا من الأراضي البعيدة الواقعة على ضفاف نهر الرون التي لم تطأها قدمه سوى مرة واحدة.

أنزل ألكسندر السادس عقوبة الحرمان الكنسي بنواب كل من بيزارو وريميني وفانيتسا، متعللًا بعدم دفعهم الجزية ومُعلنًا مصادرة أراضيهم لصالح الكنيسة. وحدثت الطامة الثانية عندما اقتحم سيزار بورجيا رومانيا مجددًا على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف من المرتزقة الفرنسيين والإسبانيين في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٥٠٠، في الوقت الذي كان فيه مكيافيللي في بعثته إلى فرنسا. وسقطت بيزراو دون أدنى مقاومة، تلتها في ذلك مباشرة ريميني. ولم تُظهر أي من المدن مقاومة جدية إلا فاينسا التي سقطت أيضًا في نهاية الأمر في أبريل/نيسان عام ١٥٠١ عقب حصار طويل. وعلى الفور كافأ البابا ألكسندر ابنه بمنحه لقب دوق رومانيا، معطيًا إياه سيادة مطلقة على المنطقة المتمردة.

وكان سيزار بورجيا يتباهي بلقب جديدٍ مؤكَّد، وجيشٍ كبيرٍ خاص به حملتين عسكريتين خاطفتين وناجحتين، ناهيك عن أنه كان يحظى

بتأييد كل من البابا وملك فرنسا لويس الثاني عشر، فقد تزوج من إحدى قريبات الملك تُدعى تشارلوت دالبرت Charlotte d'Albert عام ١٤٩٩م. وليس من الغريب أنه كان متعطشًا للمزيد من الفتوحات، فمنذ الخريف السابق، كان أجوسطينو فيزبوتشي يورد في خطاباته لمكيافيللي — الذي كان في فرنسا حينذاك — عن رواج شائعات مزعجة تفيد أن بورجيا يخطط للهجوم على فلورنسا وإعادة المديتشيين إلى الحكم. وما كان يزيد الأمور إزعاجًا هو أن بورجيا قد ألحق في خدمته فيتيلوزو فيتلي الأخ الأكبر لباولو فيتلي. ومنذ أن أقسم فيتيلوزو بالثأر من فلورنسا لموت أخيه، وهو يواصل سعيه كمرتزق بوحشية جلية، على خلاف سلوكه الحذر خارج أسوار بيزا. قام فيتلوزو بأسر بيرو دي مارشيانو Pirro da Marciano شقيق لودوفيكيو الذي أرسله الفلورنسيون ليقبض عليه عقب فشل بيزا الذريع، ثم قطع رأسه. وعلى مدار الثمانية عشر شهرًا التالية، سلب فيتلوزو المنطقة المحيطة بمدينة كورتونا Cortona، وخاض حربًا ضروسًا خارج بوابات مدينة بيروجيا Perugia راح ضحيتها بضع مئات من الرجال، كما ساعد بورجيا في الاستيلاء على فاينتسا بمساعدة ألف من الجنود المشاة. أما أبشع نزواته فقد حدثت في سبتمبر/أيلول عام ١٥٠٠ عندما نهب مدينة أكواسبارتا الصغيرة التي تقع في منطقة أومبرينا وحرق قلاعها وقتل حاكمها ألتوبيلو دا كانال Altobello da Canale ثم مثّل بجثته.

وكان فيتلوزو متعطشًا للثأر من الفلورنسيين أكثر من أي شيء آخر، ويبدو أن بورجيا كان مستعدًا للعمل على إرضائه، إذ نقل جيشه في أوائل مايو/آيار إلى الأراضي الفلورنسية مطالبًا بالحصول على تصريح لكي يمر عبر منطقة توسكانيا إلى بومبينو، إذ كان يخطط لطرد جاكوبو دابيانو. وتملك الفزع التوسكانيين لأن بورجيا — دون انتظار رد من مجلس السيادة — واصل زحفه نحو فلورنسا محملًا بالتهديد والوعيد.

وبعدما اندفعت قواته في أنحاء الريف، أخذت في «النهب واقتراف شتى الأعمال الوحشية»، كما ورد على لسان أحد الفلورنسيين المذعورين. وعلى الفور حزم فلاحو الريف النفيس من مقتنياتهم وحمّلوها على البهائم، ثم ولوا الأدبار إلى داخل أسوار المدينة خوفًا على حياتهم.

وكانت فلورنسا ذاتها غير مستعدة للتعامل مع التهديد على نحو يدعو إلى الأسى. وعليه، أُرسل على الفور السفراء (بمعية مجموعة من الموسيقيين) للقاء بورجيا في معسكره خارج فلورنسا. وعند بدء المفاوضات رضخ السفراء لكافة مطالبه؛ نظرًا لضعف موقفهم. إذ قبلوا أن يدفعوا له مبلغ ست وثلاثين ألف دوكة سنويًّا، وهو ضرب من ضروب الإتاوات الباهظة إذ كان هذا المبلغ يصل إلى ربع إجمالي ميزانية المدينة. ومرة أخرى في عام ١٤٩٤م، أذلت ضراوة بورجيا الوقحة فلورنسا بشدة إذ عرى ضعفها العسكري البالغ على الملأ.

وكان مكيافيللي منشغلًا في غضون تلك الأشهر من عام ١٥٠١م بشئون بستويا، وهي مدينة صغيرة تقع على أحد روافد نهر أرنو، وتبعد عشرين ميلًا شمال غرب فلورنسا. وكانت بستويا تخضع للحكم الفلورنسي منذ منتصف القرن الرابع عشر بيد أن عملية حفظ السلام لم تكن سهلة بالمرة، فقد عجت مدينة بستويا بالعنف والخطر حتى بمقاييس ذلك العصر المريعة، حيث كان يسودها صراع مستمر بين عائلتين مناوئتين، هما آل كانسيليري Cancellieri وآل بانسياتشي Panciatichi، فبينما كان مكيافيللي في بعثته إلى فرنسا، قام آل كانسيلري بإبعاد آل بانسياتشي من المدينة وسط الكثير من أعمال النهب والقتل، وداخل أسوار بستويا عمت الفوضى العارمة، فكانت الفصائل المسلحة المتحاربة تتقاتل في كل أنحاء الريف كثير الروابي. وقد أُشير إلى هذه الفوضى بتعبير لطيف على أنها «نوبات غضب» أو «نزوات عابرة». وفي أوائل

فبراير/شباط، لم يكد يمر سوى أسبوعين على رجوع مكيافيللي من فرنسا، حتى أُرسل إلى المدينة كمبعوث مخول بسلطات كبيرة لإنهاء تلك النزوات وخلق نوع من السلام.

ولم تبدأ هذه البعثة الدبلوماسية بطريقة ميمونة؛ فبعد وصول مكيافيللي بأيام قلائل فقط، نشبت معركة بين الآلاف من أهل بستويا — وهو ما يمثل نسبة كبيرة من سكانها — نجم عنها مائتا قتيل. وقضى مكيافيللي في المدينة عشرة أيام قبل الرجوع إلى فلورنسا، لكن بحلول أبريل/نيسان نشبت معارك أخرى أودت بحياة ما ينيف على خمسين آخرين من السكان. وفي بداية يوليو/تموز، لقي ثلاثمائة فرد حتفهم وهم يحاربون، في الوقت الذي أُحرق فيه قصر بانسياتشي عن آخره، وعُلقت رءوس اثني عشر عضوًا من عائلة بانسياتشي في رماح وعُرضت في أنحاء المدينة، بينما استخدمت الرءوس الأخرى المفصولة عن أجسادها في مباريات كرة المضرب، وهي شكل بدائي من أشكال لعبة التنس. وعلى الفور أُمر مكيافيللي بالذهاب إلى بستويا مرة أخرى للتمهيد لعقد هدنة أخرى.

ولعل مكيافيللي انتابته حقًّا شكوك خطيرة إزاء بعثته، فبعد مُضي ما يزيد عن عقد من أدائه لمهمته سيشرح الطرق الثلاث البديلة لفرض النظام في مدينة منقسمة الفصائل، فيقول: «يمكن للمرء إما أن يعدم قادة الفصائل، أو ينفيهم خارج المدينة، أو يرغمهم على التوقف عن القتال وتوقيع اتفاقية سلام. ومن بين هذه الطرق الثلاث فإن الطريقة الأخيرة هي الأشد ضررًا فهي أقلها حسمًا وأكثرها لا فاعلية.» ومع ذلك فقد لاحظ بأسى أن هذه هي الطريقة التي تتبعها فلورنسا دائمًا في بستويا. ويري مكيافيللي أن الطريقة المثلى لإحلال السلام في مدينة مثل بستويا هي الطريقة الأولى. وعلق مكيافيللي بطريقة منتقدة

قائلًا: «لكن نظرًا لأن مثل هذه الاجراءات الحاسمة تنطوي في ذاتها على شيء عظيم ونبيل، فلا يمكن لجمهورية ضعيفة أن تنفذها.»

وحدثت أيضًا مجزرة أخرى في غضون زيارته الثانية لبستويا، وسرعان ما تصالحت جميع الأطراف قبل نهاية الصيف، إذ قامت كل فصيلة باختيار أربعة أفراد ليمثلوها في مجلس سيادة بستويا، بيد أن الأوضاع السلمية لم تدم أكثر من أسبوع قبل اندلاع المزيد من أعمال العنف. في تلك الأثناء، كان مكيافيللي قد عاد إلى فلورنسا ليولي اهتمامه لمسألة أخرى، ففي سن الثانية والثلاثين شرع مكيافيللي في الزواج.

وكانت عروسه تُدعى ماريتا كورسيني Marietta Corsini، وما من شيء معلوم يقينًا عن تفاصيل زواجهما، ولا حتى تاريخ يوم الزفاف بالضبط، ولا نعرف عن ماريتا نفسها إلا أقل القليل. فقد كانت ماريتا، شأنها في ذلك شأن مكيافيللي، تنتمي إلى أحد الفروع الفقيرة لعائلة فلورنسية عريقة ذات شأن من النبلاء القلائل، فقد كانت تعد عائلة كورسيني إحدى العائلات النبيلة التي تقطن المنطقة المحيطة بمدينة بوجيبونسي جنوب فلورنسا، لكنها تعرضت في منتصف القرن الرابع عشر لتدهور مادي من جراء انهيار بنكي بيروتزو وباردي الفلورنسيين. ويعد أندريا كورسيني Andrea Corsini — أسقف مدينة فيزولي الذي عاش في القرن الرابع عشر والذي رأي رؤية للسيدة العذراء ورفع إلى مصاف القديسين فيما بعد عام ١٦٢٩م — ألمع أفراد هذه العائلة.

ومن الأسلم أن نفترض أن هذا الزواج لم يكن زواج حب بالدرجة الأولى، فثمة أشياء أخرى أكثر أهمية بالنسبة للرجل مثل مقدار المهر الذي ستدفعه له العروس وكذلك مقدار محيط فخذها — بغرض إنجاب الأطفال. وجاء زواج مكيافيللي ثمرة للمفاوضات التي جرت بين مكيافيللي ولويدجي Luigi والد ماريتا وأخيها لانكيولينو Lanciolino.

وغالبًا ما كان وسيط الزواج يقوم بالإعداد لحفل العرس في فلورنسا، وكان ذلك يشتمل على سلسلة من الاتفاقات التي كانت تُوثق في عقود قانونية ثم تُمارس المراسم رسميًّا. أحد هذه المراسم يعرف باسم impalmamento وفيه يعرب العريس عن رغبته في الزواج من طريق إمساك يد عروسه المستقبلية في حضور عدد من الشهود، يعقب ذلك مرسم آخر يعرف باسم sponsalia وهو لقاء رجال العائلتين لنقاش الأمور المادية بالغة الأهمية، مثل المهر وتكاليف فستان الزفاف، ثم يأتي المرسم الأخير الذي يعرف باسم nozze وفيه تسير العروس — عقب قداس الزواج — في موكب إلى منزل زوجها.

وفي وقت ما في أواخر صيف عام ١٥٠١م، سارت ماريتا إلى منزل بساحة فياديلا (الاسم الحالي لها فيا جوتشيارديني)، بالقرب من الطرف الجنوبي لجسر بونتي فيكيو. وكان منزلها الجديد عبارة عن جزء من مجمع مبانٍ يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الرابع عشر، ويضم ثلاثة أو أربعة منازل يقطنها جميعًا أقارب نيقولو. وكان يوجد خلف هذه المنازل منطقة محاطة بسياج تظللها الأقواس المعمارية، وعرفت هذه المنطقة باسم «بلاط مكيافيللي». وكان لدى نيقولو خادم على الأقل، واشتمل منزله على حجرات لتخزين الخمور والحبوب في الدور الأرضي، وغرف نوم وغرف معيشة في الطابق الأول ومطبخ في الطابق العلوي. وكان يوجد خلف منزله بناية صغيرة مكونة من طابقين يمكن الدخول إليها بواسطة ممر، كانت تستخدم كمكان لإقامة الخدم. ومثل باقي منازل فلورنسا، كان يوجد قضبان حديدية في الشُرف بغرض إبقاء اللصوص خارج المنزل والنساء بداخله.*

---

* يقع منزل مكيافيللي — الذي هدم منذ وقت طويل — في المكان الذي يشغله الآن العقار رقم ١٦ بشارع فيا جوتشارديني.

وفي الواقع بدا منزل مكيافيللي لماريتا كسجن بسبب القضبان الموجودة في الشرفات، وقد كانت محقة في أن تندب حظها في أكثر من مناسبة، فمكيافيللي أبعد ما يكون عن الزوج المثالي. وبلا شك، آمن مكيافيللي، مثل معظم الرجال الإيطاليين الآخرين، بالمفاهيم المشار إليها في أغلى كتاب اقتناه برناردو مكيافيللي وهو كتاب Decretum الذي كتبه جراتيان Gratian، والذي يعلن فيه أنه «على النساء أن يخضعن لأزواجهن» وأن «ليس للمرأة أية سلطات». وكتب بعد ذلك الباحث الإنساني ليوناردو بروني Leonardo Bruni، أحد أسلاف مكيافيللي في المستشارية، عن سلطة الرجل مستخدمًا مصطلحات مستبدة لا تختلف كثيرًا عن تلك المستخدمة في الكتاب السالف ذكره، مثل قوله: «الرجل هو رأس الأسرة وهو الملك على منزله، إذا جاز التعبير.»

ويبدو أن مشكلة مكيافيللي لم تكن مشكلة تسلطه قدر ما كانت مشكلة عدم اكتراثه وخيانته، إذ سنراه بين الفينة والأخرى يرافق الغواني والعشيقات. يكتب له أحد أصدقائه بعد مرور عدة سنوات على زواجه: «إذا عرفت نفسك بحق، فستجد أنك لم تتزوج بعد.» وزعم مكيافيللي أنه يحسد العزاب، وتميزت كتاباته عن الزواج بتجردها من العاطفة وامتلائها بالسخرية. وكتب مكيافيللي في وقت لاحق: «كل رجل لديه عشيقة فهو في ورطة لأنه متزوج.» وفي أحد أعماله الأخرى يفتتح قصته القصيرة بمشهد يبدو فيه إله العالم السفلي وهو يتأمل كيف أن أكثر الأرواح الملعونة تلقي باللوم لما هي فيه على الأهوال التي لاقتها في حياتها الزوجية. كما اختتم أحد أعماله الأخرى — شرحه أحد كتب ليفي — بصورة عن النساء في روما القديمة وهن يقمن بدس السم لأزواجهن. أما بالنسبة لماريتا فيبدو أنها كانت امرأة ذكية وعطوف (وإن كانت متقلبة المزاج إلى حد ما)، استمتعت عن صدق

بعشرة زوجها وافتقدته بشدة كلما أخذته واجباته الحكومية بعيدًا عن فلورنسا.

وهكذا ينهمك مكيافيللي في عمله بعيدًا عن الحياة الزوجية، وفي الغالب بعد زواجه مباشرة، ففي أكتوبر/تشرين الأول، كان مكيافيللي يمتطي جواده في طريقه إلى التعامل مرة أخرى مع الفصائل المتحاربة في بستويا. واكتشفت ماريتا بعدها مباشرة أنها حامل. ولم يكن لدى مكيافيللي حينئذ أي متسع من الوقت ليلعب دور الزوج الذي تغمره البهجة والشغف لأنه أصبح أبًا حتى وإن أراد هو نفسه ذلك. وأُرسل مكيافللي في العام التالي — على الأرجح في نفس الوقت الذي أنجبت فيه ماريتا طفلتهما — في مهمة أكثر أهمية، حيث مثّل فلورنسا في بلاط سيزار بورجيا.

الفصل الخامس

بعد مضي عام على إخضاعه لرومانيا وترويعه لفلورنسا، ظفر سيزار بورجيا بنصر آخر لا يقل أهمية إذ استولى على دوقية أوربينو في يونيو/حزيران عام ١٥٠٢ باستخدام نفس أسلوب الخداع الجريء والغادر، فقد ناشد جيدوبالدو دا مونتفلترو Guidobaldo da Montefeltro حاكم المدينة أن يُعِينه على إخضاع مدينة كامرينو، ثم غزى على الفور مدينة أوربينو بألفي مرتزق إسباني بعد أن صدقه جيدوبالدو المنحوس وأرسل مدفعيته لتحاصر مدينة كامرينو. ويعد هذا الانتصار أكبر انتصاراته المذهلة على الإطلاق؛ إذ جعل منه هذا الانتصار سيدًا للمدينة الثرية والجميلة التي كانت تحكمها عائلة مونتفلترو منذ منتصف القرن الثاني عشر، كما جعل منه قوة بلا منازع تحسب لها القوى الإيطالية الأخرى ألف حساب.

وبلا ريب، أخذ الفلورنسيون تفوقه الجديد والخطير بعين الاعتبار، ومرة أخرى راجت شائعات مخيفة حول أن فلورنسا هي الغنيمة التالية في قائمة بورجيا، وعليه، وفي عشية دخوله أوربينو طالب بحضور السفراء كي يناقش معهم القضايا الخطيرة الخاصة بالتحالفات الإقليمية، ولم يتوان مجلس السيادة عن تلبية دعوته. وعلى الفور أُرسل نيقولو مكيافيللي بمعية أحد أعضاء عائلة فلورنسية مبجلة هو فرانشيسكو

سودريني Francesco Soderini أسقف فولتيرا، وما إن وصلوا قصر الدوقية بأوربينو في عشية الرابع والعشرين من يونيو/حزيران الموافق عشية عيد القديس جيوفاني، حتى استدعاهم بورجيا.

وفي صيف عام ١٥٠٢م، كانت فلورنسا عرضة لخطر جسيم، فقد سارت الحملة العسكرية على بيزا بشكل سيئ كما هو الحال دائمًا: ففي ذلك الربيع بعث الفلورنسيون فرقًا من المغيرين المعروفين باسم أصحاب المعاول marraiuoli (اشتُق اسمهم من الكلمة الإيطالية marra بمعنى معول) ليعيثوا فسادًا في ريف بيزا، غير أن أهل بيزا أسروا أصحاب المعاول وشنقوهم وجروهم وقطعوا جسد كل واحد منهم أربعة أجزاء، ثم أخذوا معاولهم إلى البساتين والمحاصيل في الأراضي الفلورنسية. والأدهى من ذلك أنه في مطلع يونيو/حزيران، قامت ثورة في أريتسو، المدينة الخاضعة للهيمنة الفلورنسية منذ عام ١٣٨٤م، واستدعى المتمرد أرتيني Aretini فيتلوزو فيتلي الذي كان متاحًا بسهولة والذي كان بمعيته آلاف من الجنود، وعلى الفور استولى قائد المرتزقة على المعاقل في مدينة فال دي تشيانا ثم دخل أريتسو في صورة المحرر كي يتلذذ بالانتقام من قتلة أخيه. ورغم تأكيد بورجيا أنه لم يكن على علم بالمناورات التي أجراها فيتلوزو، فإن معظم أهل فلورنسا رأوا أن الدوق فالنتينو وراء هذه المسألة. لكن الفلورنسيون عجزوا كعادتهم عن التصرف برد فعل رادع.

كان هذا هو المشهد الجاري عند التقاء مكيافيللي والأسقف سودريني وجهًا لوجه مع سيزار بورجيا في قصر الدوقية العظيم في أوربينو. ومع أن بورجيا كان شخصية محتقرة ويخافه الجميع في فلورنسا، فإن مكيافيللي كان يكّن له إعجابًا خاصًا. فبالرغم من السمعة الشنيعة التي كانت تلاحقه، فقد كان شابًا نابغة ومثيرًا للإعجاب. أثبت أنه مثال رائع لطالب العلم، وقد تلقى تعليمًا جيدًا

في الجامعة في بيروجيا وفي جامعة مكيافيللي القديمة أي أستوديو فيورنتينو في بيزا. وكان بورجيا طلق اللسان في خمس لغات من بينها اللاتينية واليونانية، مع أنه كان يقضي وقتًا في منزله في ركوب الخيل وفي حلبة مصارعة الثيران — ذبح بورجيا ثمانية ثيران في يوم مشهود في تاريخ روما — أطول من ذلك الذي كان يقضيه في حجرة الدراسة. واستطاع بورجيا أيضًا أن يكسر بيديه العزلاوين حدوة حصان، وكان يمضي وقت فراغه في أوربينو في الصيد بمساعدة الفهود في التلال المحيطة، وفي منافسة الشباب المحليين في سباقات العدو والمصارعة التي كان يفوز بجميعها دائمًا. وكان بورجيا يرتدي حلة من القطيفة السوداء وكثيرًا ما كان يرتدي قناعًا بغرض إضفاء الغموض على نفسه، وأيضًا لكي يداري تشوهات وجهه البشعة من جرّاء إصابته بالزهري.

وكتب مكيافيللي المبهور إلى أعضاء مجلس السيادة فور وصوله إلى أوربينو: «إن هذا الأمير غاية في الروعة والفخامة.» ولم تكن قوة بورجيا ولا مهاراته الرياضية ولا حتى طلاقته في اللاتينية واليونانية هي التي بهرت مكيافيللي؛ إنما بهره منذ البداية عزيمتُه الصلبة وجسارته المدهشة. وأردف مكيافيللي قائلًا: «في وقت الحرب تبدو كافة الأهوال الجسام هينة في ناظريه، وفي سعيه نحو المجد والمكاسب لا يعرف طعمًا للراحة ولا يخشى الأخطار ولا يردعه التعب. إنه يصل إلى وجهته التالية قبل أن يُعرف أنه ترك المكان الذي كان فيه. يحبه جنوده، وقد اجتذب حوله خيرة الرجال في إيطاليا، مما جعله قائدًا منتصرًا وجبارًا.» وكانت أقوال مكيافيللي هذه مثل طلاسم وألغاز بالنسبة لرجال مجلس السيادة الذين كانوا على النقيض تمامًا من الخصال السالف ذكرها، إذ كانوا مترددين ومزعزين، فهم رجال أعمال يفهمون في سعر الصوف وليس في فن الحرب.

وعامل بورجيا الرجلين الممثلين لفلورنسا بنفس القدر من التعالي والازدراء الذي أظهره لهما ملك فرنسا، لقد هدد بتغيير الحكومة الفلورنسية، ولاسيما بإعادة تنصيب بيرو مديتشي، ما لم يتعهد مجلس السيادة باحترام غزواته ويكف عن التدخل في شئونه. كما تناول بورجيا مسألة الستة والثلاثين ألف دوكة التافهة التي أهملت فلورنسا دفعها منذ أمد بعيد، وأنذرهما قائلًا: «إن لم تجعلوني صديقكم، فأنا عدوكم.» انتهى اللقاء المسائي بحثٍّ بورجيا إياهما على إقناع رؤسائهما في فلورنسا بمطالبه الملحة، وقال لهما في تلك الليلة أيضًا: «عجلوا بالقرار.» وفي اليوم التالي سلمهم إنذارًا يفيد بأن الفلورنسيين لديهم مهلة أربعة أيام ليقرروا ما إذا كان بورجيا صديقهم أم عدوهم، وأنهى كلامه قائلًا: «لا يوجد طريق وسط.»

لا بد أن مكيافيللي وهو يمتطي صهوة جواده المسرع في طريق عودته عبر التلال الوعرة كي يخبر مجلس السيادة بمطالب بورجيا؛ كان يدرك تمام الإدراك أن هذا الحل الوسط الذي أطلق عليه اسم «الطريق الأوسط» la via di mezzo هو بالضبط الطريق الذي تفضل حكومته الحذرة أن تطأه. وكما هو متوقع فقد رفض مجلس السيادة أن يرد على مطالب بورجيا الملحة، وفي الأسبوع الأول من يوليو/تموز، أي بعد مضي عدة أيام على انقضاء المهلة، لم تقم الحكومة إلا بإرسال أحد فصحائها المعتادين ذوي البلاغة الجوفاء إلى أوربينو، فاستشاط بورجيا غضبًا فور تسلمه الرد مما حدا بالأسقف سودريني إلى أن يولي الأدبار على الفور من أوربينو لينجو بحياته، بيد أن الأحداث انقلبت سريعًا لصالح فلورنسا. ولا بد وأن أعضاء مجلس السيادة قد توهموا أن إنذار بورجيا شديد اللهجة هو مجرد خدعة، خاصة وأن الملك لويس الثاني عشر من الصعب أن يوافق على غزو فلورنسا التي وقع معها معاهدة قبل بضعة أشهر فحسب. وقد أطلقوا لفظ «خدعة» بأسلوب

تهكمي عندما استولى فيتلوزو فيتلي على مدينة بورجو سان سبولكرو Borgo San Sepolcro التوسكانية التي تقع شمال شرق مدينة أريتسو Arezzo بنحو اثني عشر ميلًا ونهبها، ثم نفذ بعدها مذبحة وحشية في معقل باتيفولي. أثارت هذه الأحداث الاستياء البالغ للويس الثاني عشر، ولهذا فقد أُجبر بورجيا على أن يأمر قائده العسكري الشرير بالخروج من توسكانيا. واضطر فيتلوزو المستشيط غضبًا أن يسحب قواته (وفي تلك الأثناء سرق الأجراس من القلعة)، وبنهاية يوليو/تموز كان يتوعد بالانتقام من بورجيا مثل فلورنسا تمامًا.

ومرت الأزمة بسلام، ونجا الفلورنسيون مرة أخرى من مواجهتهم الثانية مع سيزار بورجيا في مدة لم تتجاوز السنة الواحدة إلا بفترة قليلة. بيد أن هذه التجارب كان لها أثرها على أعضاء مجلس السيادة، وما إن أدركوا مدى الضعف المتأصل في طرق أدائهم لأعمالهم المتمثل في التناوب على المناصب الذي يحدث على جناح السرعة لموظفين ذوي خبرة محدودة للغاية في الشئون السياسية؛ حتى قرروا إجراء إصلاح دستوري مهم، إذ اقترحوا الاستعاضة عن منصب حامل لواء العدالة Gonfalonier — الذي تبلغ مدة شغله للمنصب شهرين فقط — بمنصب جديد أطلقوا عليه «حامل لواء العدالة مدى الحياة» Gonfaloniere a vita، وهو منصب دائم مدى الحياة (مثل منصب القاضي الأول في جمهورية البندقية) مما سيضفي على الجمهورية الاستمرارية والاستقرار، بالإضافة إلى حكمة سياسية نابعة من الخبرة.

وعليه، سُن قانون يستحدث هذا المنصب الجديد في نهاية أغسطس/آب. وبعد مرور أسبوعين، كان أمام المجلس العظيم للشعب أسماء مائتين وستة وثلاثين مرشحًا للمنصب. وكما جرت العادة، نُقلت لوحة المادونا من إمبرونيتا إلى فلورنسا لتقود المصوتين إلى الاختيار

السديد، ثم أجريت عملية التصويت، وفاز بالمنصب أحد رجال الدولة المحنكين يُدعى بيرو سودريني — السفير السابق لفلورنسا في كل من ميلانو وفرنسا. وسودريني البالغ من العمر اثنين وخمسين عامًا هو أخو فرانشيسكو أسقف فولتيرا، المبعوث الذي كان مكيافيللي بمعيته في بعثته إلى أوربينو. وكان فرانشيسكو قد انبهر بمواهب مكيافيللي وبصيرته وشجاعته في غضون بعثتهما الدبلوماسية وقدرها أيما تقدير، إذ كتب بعدها مباشرة عن مكيافيللي — المستشار الثاني: «إنه يفوق الجميع مقدرة.» وسرعان ما سيعتمد بيرو أيضًا على مهارات مكيافيللي، ففي الواقع، لم يمر على بيرو شهر في شغله لمنصبه حتى أرسل مستشاره الثاني في مهمة أخرى. ولما كان جيران سيزار بورجيا ينتظرون في قلق تحركه التالي، لذا أدرك الفلورنسيون أنهم في حاجة إلى شخص ما ليراقب خطواته. ومرة أخرى سنحت الفرصة لمكيافيللي ليراقب الدوق «العظيم» عن كثب.

أقبل مكيافيللي على هذه المهمة الأخيرة بحماس شديد، وقد أمرته الحكومة أن يتحرك في عجالة، لذا أبتدأ مكيافيللي رحلته ووضع أمتعته معه في عربة تجرها الخيول ولكنه سرعان ما ضاق ذرعًا بهذه الكماليات فتركها في سكاربريا التي تبعد نحو خمسة عشر ميلًا خارج فلورنسا، ثم امتطى صهوة جواد ليقطع مسرعًا مسافة الخمسة والعشرين ميلًا المتبقية للوصول إلى إيمولا حيث يوجد بلاط سيزار بورجيا، ووصل في السابع من أكتوبر/تشرين الأول، وقدم نفسه إلى بورجيا وهو لم يزل مرتديًا ثياب السفر.

ثمة تغير حدث في طالع بورجيا مقارنة بالوقت الذي رأه فيه مكيافيللي في أوربينو قبل ثلاثة أشهر، فوجد دوق رومانيا نفسه على حين غرة عرضة للخطر، إذ اجتمع فيتلوزو فيتلي المستاء مع عدد

من قادة المرتزقة الآخرين الذين ساعدوا بورجيا في الاستيلاء على رومانيا — وقد كان من بينهم حاكما بيروجيا وفيرمو — اجتمعوا في بيروجيا لمناقشة كيفية قهر صاحب الأمر والنهي الطموح. وقد نبههم الأسلوب المخادع في خلع جيدوبالدو دا مونتيفيلترو من الحكم إلى مدى خطورة موقفهم، كما أعرب جيانباولو باليوني Gianpaolo Baglioni، حاكم بيروجيا، عن نفس الشيء حينما قال إنهم قد جازفوا «بجعل أنفسهم عرضة للتنين ليبتلعهم واحدًا تلو الآخر.» وبعد يومين من وصول مكيافيللي إلى إيمولا، أي في التاسع من أكتوبر/تشرين الأول، وقع قادة المرتزقة المتمردون معاهدة لشن هجمات على بورجيا في كل من رومانيا وأوربينو في نفس الوقت، إذ كانت أوربينو بالفعل في حالة تمرد ضد حكمه.

وعلى الرغم من توالي كل هذه النكبات، لم يبدُ بورجيا أقل عظمة في عيني مكيافيللي، فقد كتب إلى مجلس العشر أن الدوق «يفوق البشر في شجاعته.» وحينما وجد بورجيا أن ثمة احتمالًا لفقد الأراضي التي كسبها من قبل، بدأ في طلب يد العون من كل من فلورنسا وملك فرنسا. وفي ذات الوقت، بدأ في تجنيد مليشيات من المواطنين لمواجهة فيتلوزو والمرتزقة الآخرين المتمردين، مجندًا رجلًا من كل منزل في القرى الرومانية المحيطة، إلى أن حشد في آخر الأمر جيشًا مؤلفًا من ستة آلاف رجل، وألبسهم زيًّا موحدًا عبارة عن قميص طويل ذي لونين قرمزي وأصفر، ومطرز عليه اسم «سيزار».

وانبهر مكيافيللي بالمليشيات وأيضًا برباطة الجأش التي تعامل بها بورجيا مع أعدائه في الداخل الذين نبذهم واعتبرهم «مجلس الفشلة.» وكتب مكيافيللي إلى مجلس السيادة ليحث حكومته على تعضيد بورجيا ضد هؤلاء الطواغيت الحقراء، فبورجيا — دوق رومانيا — كما كتب عنه مكيافيللي: «ذائع الصيت إلى أقصى حد، وتؤازره إلهة الحظ، ومعتاد

على النصر» — ناهيك عن أنه يحظى بكل من مال البابا وجنود لويس الثاني عشر، واستطرد مكيافيللي معبرًا عن رأيه أنه من صالح فلورنسا ألا تعادي هذه «القوة الجديدة في إيطاليا» بل تصادقها.

وللوهلة الأولى بدا أن الحكومة الفلورنسية سوف تأخذ بهذه النصيحة، ففي الأسبوع الثالث من أكتوبر/تشرين الأول، تلقى مكيافيللي خطابًا من بيرو جوتشيارديني Piero Guicciardini أحد أعضاء مجلس العشر للحرية والسلام، يجزم له أن «ثمة ميلًا بداخل الجميع نحو الموافقة على الصداقة مع سيادته»، ولكن كما هو معتاد فقد كانت الحكومة تستخدم الكلمات المبهمة. وهكذا، قدمت فلورنسا لبورجيا الكثير من الكلمات التشجيعية وأقل القليل من الدعم الحقيقي. وما أثار سخط مكيافيللي هو أن بيرو سودرينى كان شغوفًا أكثر بمعرفة مصائر بعض البغال التي استولى عليها رجال بورجيا من قافلة للبغال كانت في مدينة كاستل دورانتي بالقرب من أوربينو. لقد استبد القلق بسودريني — حامل لواء العدالة — بشأن هذه الحيوانات، حتى إنه كتب إلى مكيافيللي يؤكد عليه بشدة قائلًا: «إنك سوف تناقش مع سعادته بالتحديد أمر البغال الستة التي جرى الاستيلاء عليها، عليك أن تتوسل إليه مرارًا وتكرارًا من أجل استعادتها.»

وطال وقت مكيافيللي بالتدريج في إيمولا حتى نوفمبر/تشرين الثاني، ثم ديسمبر/كانون الأول نظرًا لطول فترة تردد كل من مجلس السيادة من جانب، والمرتزقة المتمردين من جانب آخر الذين لم يظهروا رغبة قوية في القتال. وبالرجوع إلى فلورنسا، نجد القلق بدأ يستبد بزوجة مكيافيللي الشابة، فقد كتب بياجيو بواناكورزي إلى مكيافيللي في أكتوبر/تشرين الأول قائلًا: «لقد كتبت إليّ السيدة ماريتا خطابًا سلمه لي أخوها تسأل فيه عن موعد رجوعك»، وكتب أيضًا يقول: «إنها غاضبة بشدة ومجروحة لأنك وعدتها بأنك لن تغيب أكثر من ثمانية

أيام.» وبحلول ديسمبر/كانون الأول ازدادت غضبًا وحزنًا، فكتب له بياجيو يقول: «السيدة ماريتا تلعن الرب، وتشعر أنها ألقت جسدها وممتلكاتها في مهب الريح.»

أما مكيافيللي فقد كان يتوق إلى موطنه بشدة. فقد ساورته المخاوف مرة أخرى من أن غيابه قد يضع مسألة إعادة انتخابه في المستشارية على المحك. وكذلك شعر بالإحباط مِن كلٍّ مِن تكتم بورجيا وتلكؤ مجلس السيادة. وكان من الجلي أن الملل انتابه من طول أيام السكون والخمول، حتى إنه سأل بياجيو أن يجد له نسخة من كتاب Lives الذي ألفه بلوتارخ Plutarch حتى يقضي وقت فراغه في قراءته. (اعتاد مكيافيللي أن يصطحب معه في سفره بعض الكتب يضعها في حقيبته، وكان الكتاب الذي يقرأه في رحلته الطويلة إلى فرنسا هو كتاب Commentaries on the Gallic and Civil Wars الذي ألفه يوليوس قيصر). وكتب إلى فلورنسا أيضًا يطلب عباءة من القطيفة والدمقس وقبعة جديدة من القطيفة (من الواضح أنه أراد أن يظهر في هيئة أفضل في بلاط بورجيا) إلى جانب قسط من الخمور. وكان مكيافيللي لا يحصل في المقابل إلا على خطابات تافهة أو شديدة اللهجة، فمثلًا كان يرد عليه بياجيو في غضب قائلًا: «اذهب إلى الجحيم» أو «يمكنك أن تذهب إلى الشيطان لتطلب منه كل هذه الأشياء.» وعنفه بياجيو أيضًا في نهاية أكتوبر/تشرين الأول لأن تقاريره كانت تصل بصفة غير منتظمة على نحو لا يروق لمجلس السيادة، قائلًا: «يجب عليّ أن أذكرك بأن تزيد عدد خطاباتك، لأن الفترات الفاصلة بين وصول خطاب وآخر قد تمتد إلى ثمانية أيام، وهذا لا يكون في صالحك ويجلب عليك سخط من أرسلوك إلى بعثتك.» وفي الحقيقة فإن بعضًا من تقارير مكيافيللي كانت تفقد في طريق وصولها بينما يستغرق وصول البعض الآخر عبر الأربعين ميلًا من إيمولا إلى فلورنسا أكثر من أسبوع بسبب

السير المتراخي لسعاة البريد، فعلى سبيل المثال: في إحدى المرات كان بياجيو يشكو في إحباط قائلًا: «لقد استغرق هذا الأحمق توتي ثمانية أيام كاملة في الوصول إلى هنا.» ومع ذلك فلم تكن المستشارية نفسها أكثر فعالية، ففي إحدى المرات، كما ذكر بياجيو صراحة، تأخر وصول وثيقة السفر الخاصة بمكيافيللي إلى إيمولا لأن أحد الموظفين الذي يُدعى أنطونيو ديلا فالي Antonio della Valle قضى يومًا بأكمله في لعب الطاولة في الوقت الذي كان عليه أن يجهز الوثيقة.

وقضى مكيافيللي شهرين في إيمولا، وفي العاشر من ديسمبر/كانون الأول، والأرض مغطاة بالجليد الكثيف؛ غادر بورجيا المدينة مع جيش مكون من خمسة آلاف من جنود المشاة وألف ومائتين من الفرسان، وكانت وجهته الأولى هي تشيزينا التي تبعد قرابة ثلاثين ميلًا نحو الجنوب الشرقي، ولحقه مكيافيللي بعدها بيومين متسائلًا مثل الباقين عما يخطط له بورجيا، وكما اتضح فيما بعد، كانت أولى أعماله هي إحداث انقلاب مفاجئ لمسرح الأحداث مما أذهل مكيافيللي وفتنه مثل الباقين.

كان من المساعدين المقربين إلى بورجيا على مدار العديد من السنوات رجل عابس الوجه ذو لحية سوداء، إسباني الجنسية يُدعى راميرو دي لورقا Ramiro de Lorqua وقد كان يتمتع بسلطات واسعة باعتباره الحاكم العسكري لرومانيا. وكان لراميرو مهابة بين الناس بسبب وحشيته، إلا أنه كان مكروهًا للغاية بسبب قمع أي معارضة تبزغ ضد سيادة بورجيا وإخمادها. وجاءت نهايته على نحو مفاجئ مع انبلاج فجر السادس والعشرين من ديسمبر/تشرين الأول، إذ احتشد أهل تشيزينا في ساحة المدينة كي يروا عطية بورجيا لهم في الكريسماس، فكانت عبارة عن جثة راميرو مقطوعة الرأس وملقاة عارية، والرأس معلقة في رمح، وإلى جانبها كان فأس ومنصة الإعدام

ملطخين بالدماء. وكتب مكيافيللي عن ذلك الحدث لرؤسائه قائلًا: «لا يعرف أحد سبب إعدامه، فيما عدا أن هذا كان يُرضي الأمير الذي أثبت للناس أنه بمقدوره أن يخلق الرجال ويدمرهم حسب مرضاته.»

وما كانت جثة راميرو الدامية إلا مشهدًا افتتاحيًّا، فبعدها في نفس اليوم، شرع بورجيا وجيشه في الانتقال في رحلة إلى سينيغاليا التي تقع على الساحل الأدرياتيكي، حيث كان ينتظره أعداؤه الذين كان من بينهم فيتلوزو فيتلي.

الفصل السادس

حفل السجل الخطير للمرتزقة العصاة في رومانيا بأعمال العنف والخيانة إذ كان جيانباولو باليوني هو المحرض على المذبحة الوحشية التي راح ضحيتها مائة وثلاثون شخصًا من عائلة أودي Oddi غريمة عائلته في بيروجيا. وعلى نفس القدر من البشاعة كان مجرى حياة أوليفروتو أوفردوتشي Oliverotto Eufferducci البالغ من العمر سبعة وعشرين عامًا، الذي تولي تربيته خاله جيوفاني فولياني Giovanni Fogliani حاكم مدينة فيرمو Fermo الصغيرة التي تقع في إقليم ماركي، وبعد التحاق أوليفروتو بالخدمة العسكرية، حارب مع باولو فيتلي ضد بيزا في الحملة الفلورنسية المشئومة عام ١٤٩٩م، ولم ينج من المصير الذي لاقاه باولو إلا بفضل تدخل خاله في الوقت المناسب، لكن أوليفروتو ردَّ ذلك المعروف بعدها بسنتين، إذ قتل خاله في وليمة أقيمت في فيرمو واستولى بعد ذلك على المدينة!

ورغم الصيت الذائع عن وحشية هؤلاء الرجال الذي يستحقونه عن جدارة، فإنه قد تبين أنهم مزعزعون وعاجزون عندما يتعلق الأمر بالتعامل مع بورجيا. ولم تثني الإصابة بمرض الزهري فيتلي فيتلوزو عن قراره، بل نُقل إلى الاجتماع في قرية لاماجون La Magione محمولًا على نقالة، متأوهًا من شدة الألم. ولم يقم المتآمرون بأي إجراء عسكري

جدير بالاعتبار بعد توقيعهم الميثاق، بل بدأ بالفعل عدد من قادة المرتزقة يخطبون ود بورجيا لعقد السلام معه. وتحير مكيافيللي من طريقتهم هذه في تناول الأمر، وتساءل كيف يمكن أن يغفر بورجيا كل الخطايا التي اقترفوها في حقه. أما بورجيا فلم يقم بشيء من جانبه سوى أنه انتظر حتى يحين الوقت المناسب لذلك إلى أن وقع معاهدة سلام مع ممثليهم في نهاية نوفمبر/تشرين الأول عام ١٥٠٢. وبعد مضي شهر، وفي نفس اليوم الذي لقي فيه راميرو دي لورقا حتفه، استولى قادة المرتزقة على سينيغاليا باسم بورجيا كنوع من التظاهر بولائهم له. ودخل كل من فيتلوزو وأوليفروتو المدينة فور وصول بورجيا لتقديم الولاء كما كان يُظن. ووصف مكيافيللي، الذي لحق ببورجيا إلى سينيغاليا، ما حدث بعدها بأنه «أجمل خدعة على الاطلاق.»

كتب مكيافيللي فيما بعد أن «قدرة بورجيا على الخداع» جعلت قادة المرتزقة ينخدعون ويعتقدون أنه حليفهم بحق، غير أن رجلين في غاية الخيانة مثل فيتلوزو وأوليفروتو لم يكونا بهذا القدر من الحماقة حتى يعتقدا أن رجلًا مثل بورجيا الذي يتصف بشخصية لا تقل عنهم ضراوة يمكن أن يغفر لهم الأخطاء التي اقترفاها في حقه أو يحترم بنود معاهدة سلام. وفي حقيقة الأمر، فأغلب الظن أنهما كانا يخططان للقضاء على بورجيا ما إن تطأ قدمه سينيغاليا إذ زعما أن حاكم القلعة لن يتنازل عن الحصن إلا لبورجيا، ومن ثم يستدرجانه إلى سينيغاليا حيث يتكفل أحد القناصين المستخدمين للقوس بعملية اغتياله. ومع أن بورجيا اكتشف هذه المؤامرة الواضحة وضوح الشمس، فإنه قابل فيتلزو الذي جاء ممتطيًا بغلًا خارج بوابات سينيغاليا وذلك في آخر أيام عام ١٥٠٢م، حيث تبادلا الترحاب الحار الذي أعقبه مناورة ثنائية رائعة أشبه برقصة بالية ابتكرا خطواتها

وانتهت بفيتلوزو وأوليفروتو داخل سينيغاليا يحيط بهما بورجيا وعدد كبير من قواته، أما جنودهما هما فقد بقوا خارج أسوار المدينة في سهو جسيم أحمق. وقُبض على قائدي المرتزقة على الفور، وبعد ساعات، اضطلع ميجيول دا كوريلا Miguel da Corella، الذراع الأيمن لبورجيا وهو إسباني مُخيف معروف باسم دون ميتشلوتو Don Michelotto؛ بمهمة اعدامهما شنقًا. وهكذا كانت نهاية «خيانتهما وخبثهما اللا محدودين» على حد قول بورجيا.

لعل الكمين الذي أوقع بفيتلوزو وأوليفروتو ومقتلهما كان مجرد حدث صغير في الحياة السياسية الإيطالية، لكنه كان ذا أهمية عظيمة في إثراء مخيلة مكيافيللي للعديد من السنوات اللاحقة. فقد كان حاضرًا بنفسه في سينيغاليا ليلة تنفيذ الإعدام في فيتلوزو وأوليفروتو، وقد اعترف بنفسه أنه «اعتراه الذهول» من ضربة بورجيا البارعة والقاصمة. انبهر مكيافيللي بالخصال القيادية التي أظهرها بورجيا في خضم هذه الأزمة، مثل عزمه الذي لا يخور لتدمير أعدائه، وحيلته الحاذقة والثقة التي نُفذ بها الخطة، و«تدبيره كل شيء بنفسه» بدلًا من التعويل على لجان المستشارين، ومن ثم استطاع أن يؤدي الأمر بغتة وبسرعة.

وعاد مكيافيللي إلى فلورنسا في الثالث والعشرين من يناير/كانون الثاني وهو لا يزال مأخوذًا بما حدث، مما حدا به إلى أن يكتب على الفور تأريخًا للحدث مكونًا من ألفين وخمسمائة كلمة تحت عنوان «وصف للوسائل التي اتخذها دوق فالنتينو عند قتله فيتلوزو فيتلي وأوليفروتو دا فيرمو وغيرهما.» ولم يخل سرد الأحداث من خروج عن الواقع، فعلى سبيل المثال يقحم مكيافيللي نفسه في الأحداث كالآتي: «جعل مكيافيللي فيتلوزو يترجي بورجيا كي يغفر له خطاياه، وكان أوليفروتو يلوم فيتلوزو على كل شيء» — وربما لم يكن هذا اللوم

تجاوزًا في النص. بيد أن هذا العمل كان ينيف على كونه مجرد دراسة أدبية أو تأريخًا للأحداث إذ كان تحليلًا للطريقة التي استطاع بها قائد باسل واسع الحيلة أن يخدع أعداءه ويسحقهم بلا شفقة. لقد قُدم نذر يسير من التاريخ كعبرة نتعلم منها، وكمثل مفيد للطريقة التي يمكن لرجل ذي نبوغ ومقدرة أن ينتزع بها النصر من بين فكي الأسد. ورأى مكيافيللي أن ثمة دروسًا ذات مغزى في فن الحكم والقيادة يمكن تعلمها من الإجراءات التي اتخذها سيزار بورجيا في الأشهر الأخيرة من عام ١٥٠٢م. ويمكن للمرء أن يرى في هذا السرد الموجز مولد لفكرة سوف تنمو لتصل إلى أكثر صورها نضجًا بعد عقد من الزمان في العمل الذي سيجعل من مكيافيللي ذاته شخصًا يُخشى منه وغير جدير بالثقة مثل بورجيا.

وما كانت سيادة بورجيا لتدوم إلى الأبد، ففي مستهل شهر أغسطس/آب عام ١٥٠٣م، علق البابا البدين ألكسندر السادس، والد بورجيا، بكآبة قائلًا: «إن هذا لشهر مشئوم بالنسبة للرجال البدناء.» وقد تحقق هذا القول معه شخصيًّا، إذ وافته المنية بعدها بأسبوعين، على الأرجح بسبب إصابته بالملاريا. وفي غضون نفس الأسبوع أُصيب ابنه سيزار بإعياء شديد من جرّاء حمى مفرطة حتى إنه أمر رجاله بأن يغمروا رأسه في ماء مثلج. وكان إعياؤه الشديد إلى جانب موت والده يعنيان أن مكاسبه من الأراضي على مدار الثمانية عشر شهرًا الماضية قد آلت سريعًا إلى زوال. فعقب مضي أقل من شهر على تشييع جثمان ألكسندر، عاد آل فيتلي إلى السلطة في تشيتا دي كاستيلو، واسترد جاكوبو دابيانو مدينة بومبينو، واعتلى جيدوبالدو دا مونتفيلترو مجددًا حكمه لدوقية أوربينو. وكانت الطامة الكبرى في طريقها، فقبل نهاية العام واجه بورجيا عدوًّا أكثر دهاءً وخطرًا من نواب رومانيا.

وكان البابا بيوس الثالث Pius III قد خلف البابا ألكسندر السادس في شهر سبتمبر/آيلول، إلا أن بيوس لقي نحبه بعد ستة وعشرين يومًا فقط قضاها في المنصب، وعُقد اجتماع سري آخر للكرادلة لاختيار بابا آخر في نهاية أكتوبر/تشرين الأول. وذهب مكيافيللي إلى روما، وكانت أولى زياراته لها على الإطلاق، ليقدم إلى مجلس السيادة تقريرًا بالأحداث الجارية هناك، ووصلها مكيافيللي في السابع والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر عام ١٥٠٣م، تاركًا زوجته الحامل في شهور حملها الأخيرة (وكانت ماريتا قد أنجبت بالفعل ابنتهما بريمرانا Primerana، في العام السابق)، كي يشاهد في الوقت المناسب بأم عينيه دمار الرجل الذي طالما اعتبره نموذجًا لقائد سياسي يُحتذى به.

كتب مكيافيللي إلى فلورنسا واصفًا كيف أن العديد من المرشحين البارزين يحاولون التودد إلى بورجيا بسبب تأثيره على الكرادلة الإسبان (بسبب أصوله الأيبيرية)، وفاز بالمنصب كردينال ذو نفوذ يُدعى جيوليانو ديلا روفيري Giuliano della Rovere، الذي وقع ميثاقًا مع بورجيا يتعهد فيه بأن يُبقي بورجيا القائد العام للكنيسة (الوظيفة التي كان يتولاها في ظل وجود والده)، وأن يُعينه على استعادة أراضيه في رومانيا، فأدلى بورجيا بصوت إسبانيا لصالح ديلا روفيري كما هو متوقع. وعليه، تولى المنصب الكردينال ديلا روفيري البالغ من العمر تسعة وخمسين عامًا باسم البابا يوليوس الثاني Julius II في الأول من تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٠٣م.

وخامر مكيافيللي الشك في أن بورجيا البارع في التخطيط الحربي، حتى الآن، قد ارتكب لتوه خطأً فادحًا. كتب مكيافيللي قائلًا: «لقد أطاح الدوق بنفسه بثقته الهائلة، حينما اعتقد أن كلمات الآخرين أكثر قيمة من كلماته هو نفسه.» وبلا ريب، لم يكن لدي يوليوس النية في الوفاء بالتزاماته في هذه الصفقة، فهو العدو اللدود للبابا ألكسندر السادس

والد سيزار، إذ كانت أولى أعمال ألكسندر لدى دخوله الفاتيكان عام ١٤٩٢م هي محاولة تقديم كأس من السم لغريمه، مما حدا بالكردينال ديلا روفيري إلى أن يولي الأدبار من روما ويقضي عقدًا من الزمن في شقاء، منفيًّا في فرنسا يحيك المؤامرات للقضاء على عدوه. أورد مكيافيللي أيضا في خطابه الأقوال الرائجة التي مفادها أن «الكراهية المتأصلة» التي يكنها البابا الجديد لسيزار معروفة للجميع، وأردف قائلًا: «من المستحيل أن يُفترض أن يوليوس الثاني قد نسي العشر سنوات التي أُجبر على قضائها في المنفى بسبب ألكسندر السادس.» وحقًّا، لم ينس يوليوس، وسرعان ما أنزل العقاب ببورجيا، فبحلول الأسبوع الثالث من نوفمبر/تشرين الثاني، جُرد بورجيا من لقب دوق رومانيا وأُمر بتسليم كافة المفاتيح وكلمات السر المستخدمة في قلاعه، إذ أصر البابا أن جميعها ممتلكات الكنيسة، وعندما رفض بورجيا، ألقى يوليوس القبض عليه وسجنه. وهذه كانت نهاية سلطة الدوق فالنتينو المرعبة.

تكاد حيلة يوليوس أن تكون صورة طبق الأصل من الحيلة التي حبكها بورجيا لقادة المرتزقة العصاة قبل عام. واُحتفل بسقوط بورجيا على نطاق واسع، ولا سيما في فلورنسا حيث قيل إنه «دفع بالكامل ثمن وحشيته.» ولا يزال مثل هذا الخداع السفيه — المتمثل في خرق الاتفاقية بينما حبرها على الورق لم يجف بعد — يثير الاشمئزاز من الناحية الأخلاقية بوجه عام. فعلى سبيل المثال، احتفظ دانتي في ذهنه بصورة قاتمة لكافة الحيل السياسية، متسائلًا بأسلوب بلاغي: «ما عسى ينتفع الإنسان الصالح من استخدام وسائل الجبر أو الاحتيال؟»[1] ومن ثم نجد دانتي في «الكوميديا الإلهية» يضع جويدو دا مونتفيلترو — وهو شخصية معروفة بحنث القسم وخرق العقود — في الوادي الثامن من الجحيم، حيث سُجن بداخل شعلة لا تنطفئ كعقاب له على «طُرُقه الملتوية في التصرف بطرق خفية».[2] وبالطبع أدان دانتي طرق يوليوس

الملتوية، لكن مكيافيللي، الرجل الذي سيُمقت فيما بعد بسبب قوله إن الأمراء يجب أن يعرفوا كيف يكونوا كاذبين ومخادعين؛ كان أكثر موضوعية في حكمه عليه، إذ كتب مكيافيللي متهكمًا: «نحن نرى أن هذا البابا يشرع في تسديد ديونه بشرف إذ يمحو أثرها بقطنة يبللها من محبرته.» وإن كان مكيافيللي قد حزن من ناحية على سقوط بطله، فإنه أولى اهتمامه الآن تجاه البابا الثابت العزم المجرد من الأخلاق، فهو القائد الذي عزم على أن يستخدم كلًّا من القوة والحيلة ليصل إلى مبتغاه، شأنه في ذلك شأن بورجيا. وهكذا فعندما يختفي أحد أساتذة الدروس السياسية من الساحة، يظهر آخر ليحل محله.

وكان سقوط سيزار بورجيا مصدرًا لفضول مكيافيللي وحيرته، إذ رأى مكيافيللي أن بورجيا قد فعل ما بوسعه ليضع الأسس التي يمكن أن يركن إليها حاكم ناجح يستطيع أن يمسك بزمام السلطة لفترات طويلة: فهو قضى على الكثير من أعدائه، وحكم رومانيا بحزم وكفاءة، وجند قوات محاربة من بين رعاياه، وحظي بتأييد كل من الفاتيكان والبلاط الفرنسي واستحسانهما، كما تمتع بقدر لا بأس به من السلطة في مجلس الكرادلة. ومع ذلك لم يدم حكمه سوى سنتين. فما الذي جعل الأمور تسوء إذن؟ أين كمنت أسباب سقوطه، وماذا كان سيحدث لو أنه فعل كل شيء بطريقة مختلفة؟

ولجأ مكيافيللي إلى أحد المنجمين لعله يفهم سبب المصير التعس الذي حل ببورجيا ويفسره. وكانت ممارسة التنجيم واسعة الانتشار في فلورنسا كما في باقي أوربا، إذ لم يجرؤ معظم حكام القرن الخامس عشر على أن يضعوا أساس أحد القصور أو الكنائس، أو يوقعّوا معاهدة، أو يعيّنوا أحد قادة المرتزقة أو حتى يدشنوا المذبح الأساسي في كاتدرائية دون الرجوع أولًا إلى أحد المنجمين طلبًا للنصيحة. فعلى

سبيل المثال: اتخذ تشارلز الثامن ملك فرنسا هذا الإجراء الوقائي، من طريق استشارة منجمه الخاص سيمون فريز Simon Phares قبل غزو إيطاليا عام ١٤٩٤م. وبرغم اعتداده الشديد بقدراته الخاصة، وقع بورجيا بالمثل تحت تأثير التنجيم؛ فقد عين العديد من الممارسين للتنجيم، كان من بينهم رجل إسباني يُدعى جاسبار توريلا Gaspar Torrella الذي كان خبيرًا أيضًا في علاج مرض الزهري. وفي غضون أزمة قادة المرتزقة، أقنع هؤلاء المنجمون بورجيا بأن النجوم تشير إلى أن عام ١٥٠٢م — كما أخبر مكيافيللي بنفسه في بهجة — «عام سيئ للرعايا الذين يتمردون على سادتهم.» وربما ثبتت مصداقية هذه النبوءة، إلا أنه من الواضح أن عام ١٥٠٣م لم يكن يحمل حظًّا أفضل للطغاة أنفسهم.

وفتن مكيافيللي، شأنه شأن الباقين، بهذا «الزيف المهلك» كما دعاه سافونارولا — واحد من القلة القليلة المعارضة للتنجيم. وكان تحليل مكيافيللي البلاغي للأحداث التاريخية والسياسية يستمد قوته من اعتقاد بالافتراض السائد أن الظواهر التي تحدث في السماء يمكنها أن تؤثر على الأحداث الجارية على الأرض بل وتتحكم فيها أيضًا، لكنه أراد أن يعرف ما نوع العلاقة بالتحديد بين تصرفات الإنسان والأحداث الفلكية. فهل كُتب مصير بورجيا في النجوم، وعليه لم يكن هناك مناص من هزيمته؟ وهل الإنسان أشبه بدمية لا حول لها ولا قوة، تتحكم فيه قوى من عالم آخر تحدد مصيره سلفًا؟ أم من الممكن أن يعارض الإنسان هذه التأثيرات السماوية ويمارس حرية الإرادة والتصرف؟

تزاحمت هذه التساؤلات الفلسفية في ذهن مكيافيللي في الشهور التي تلت سقوط بورجيا، فلجأ مكيافيللي إلى بارتولوميو فيزبوتشي Bartolomeo Vespucci، مدرس الفلك بجامعة بادوا Padua الذي ألف بحثًا بعنوان «في تمجيد علم التنجيم» In Praise of Astrology

ليجد إجابة على هذه التساؤلات. وفي يوم غير معروف بالتحديد في الشهور الأولى من عام ١٥٠٤م، كتب مكيافيلي خطابًا لفيزبوتشي الذي ينتمي إلى فلورنسا، يسأل فيه عما إذا كان من الممكن لإنسان أن يقاوم تأثير النجوم. فرد عليه فيزبوتشي في مطلع يونيو/حزيران ليؤكد له مجددًا أن «كافة القدماء قد أجمعوا على أن الإنسان الحكيم هو القادر على أن يغير بنفسه تأثيرات النجوم.» وكان فيزبوتشي يشير بلا شك إلى بعض الكتّاب ومنهم أرسطو الذي ناقش في بحثه «الأخلاق العظيمة» Magna moralia أن النجوم لديها القدرة على السيطرة على «مقتنيات الإنسان الخارجية» (مثل الوالدين، والأصدقاء، والثروة، والقوة البدنية، ومظهر الفرد) إلا أنها ليس لديها أدنى سيطرة على الفضائل الذهنية والأخلاقية التي دعاها «مقتنيات الروح.» وقد دحض أخيرًا القديس توما الأكويني Thomas Aquinas مذهب الحتمية الذي يقر به علم التنجيم، إذ ذكر في كتابه Summa theologiae: «أن المنجمين أنفسهم يميلون إلى قول إن الرجل الحكيم يسيطر على النجوم، تمامًا كما يسيطر على عواطفه».

وهوجمت أخيرًا سلطة النجوم بواسطة جيوفاني بيكو Giovanni Pico، كونت مدينة ميراندولا، واحد من ألمع المفكرين في حاشية لورنزو العظيم. ففي أحد أبحاثه الذي نُشر عقب وفاته في عام ١٤٩٦م، بعنوان: «مناظرات لتفنيد علم التنجيم» Disputations Against Astrology أقر أن النجوم ليس لديها أدنى تأثير يُذكر على ذهن الإنسان الذي لا يتأثر بأي من الزمان أو المكان، كما يزعم. فالإنسان يتمتع بحرية التفكير — ومن ثم حرية الفعل — بعيدًا عن الكيفية التي ترتب بها مجموعة النجوم نفسها. وكما عبر فيزبوتشي، يتمتع الإنسان بالحرية والقدرة على اختيار سبيله، «مغيرًا خطواته الخاصة بنفسه، بحيث يأخذ جميع الأوجه بعين الاعتبار.»

وبحلول عام ١٥٠٤م، كانت الفكرة القائلة بأن الإنسان المتعقل يمكنه أن يتحاشى تأثير النجوم، تعم الأرجاء إلى الدرجة التي جعلت سؤال مكيافيللي يصدم فيزبوتشي بشدة باعتباره سؤالًا ساذجًا، أو قد ينم عن جهل. وأيًّا كان الأمر، فإن فيزبوتشي كان قد أعطى مكيافيللي تصريحًا ليتخيل عالمًا يكون فيه الإنسان حرًّا ليعارض الأوامر التي تمليها عليه خرائط البروج ويجعل من نفسه سيدًا لمصيره. ويواصل مكيافيللي على مدار السنوات القلائل التالية التأمل في محصلة حياة بورجيا في هذا السياق إلى جانب إمكانية مقاومة الأقدار المكتوبة في النجوم.

الفصل السابع

عاد مكيافيللي إلى فلورنسا في منتصف ديسمبر/كانون الأول عام ١٥٠٣ بعدما أمضى ما يقرب من ثمانية أسابيع في روما، وأنجبت ماريتا طفلهما الثاني أثناء غيابه إذ أنجبت صبيًّا سُمي برناردو تكريمًا لوالد مكيافيللي. وكتبت ماريتا إلى مكيافيللي: «إن الصبي مُشعر مثلك، وهو يروق لي لأنه يشبهك.» وقد علق صديق يُدعى لوكا أجوليني Luca Ugolini بلباقة على هذا الشبه الشديد قائلًا: «زوجتك السيدة ماريتا لم تخنْك لأنه صورة طبق الأصل منك، وما كان ليوناردو دافنشي ليستطيع أن يرسم لك لوحة أفضل من هذه.» بيد أن بياجيو بوناكورزي كان يحذره كالمعتاد من أن ماريتا المتقلبة المزاج متلهفة لعودة زوجها، فكان يقول له: «إنها تحيا في حرقة شديدة بسبب غيابك.» وفي منتصف نوفمبر/تشرين الثاني، أي بعد سفره بنحو أسبوعين، كتب له قائلًا: «ياإلهي! لا توجد أي طريقة تهدئ من روعها وتجعلها تخلد إلى الراحة.» ومع ذلك لم يبدُ أن مكيافيللي كان في عجلة من أمره كي يرى أيًّا من زوجته أو مولوده الجديد، فعلى الرغم من أن مجلس العشر أمره في أوائل ديسمبر/كانون الأول أن يعود توًّا إلى فلورنسا، فإن مكيافيللي تخلق الأعذار المختلفة كي يمد فترة بقائه أسبوعين آخرين. وكان أحد أسباب متعته في المدينة

الخالدة هو غناءه مع الأصدقاء بمصاحبة آلة وترية مقوسة تُسمى الربابة.

ولم تكن زوجة مكيافيللي وصغيراه هم وحدهم الذين أهملهم مكيافيللي في غضون إقامته في روما، فما أهال بياجيو أن مكيافيللي أهمل أيضًا معاملته مع رؤسائه في مجلس السيادة، فقد تسلم مكيافيللي في نوفمبر / تشرين الثاني خطابًا من عضو بمجلس السيادة يُدعى أجنولو توتشي Agnolo Tucci — وهو تاجر أوراق — يدعوه فيه أن يقدم له تقريرًا عن سياسة يوليوس الثاني في رومانيا، وعندما وجد توتشي أن خطابه قد استُقبل بصمت مهين، احتد للغاية وأدان مكيافيللي في أحد اجتماعات مجلس السيادة مستخدمًا تعبيرات «بذيئة للغاية» كما أورد بياجيو. والأدهى من ذلك، أن أحدًا لم يهب للدفاع عن مكيافيللي، فقد ذكر بياجيو أن باقي أعضاء المجلس أومئوا برءوسهم فحسب مؤيدين هذا الذم.

وأخيرًا حمل مكيافيللي نفسه على أن يرد علي توتشي، فكتب إليه خطابًا عبر فيه تمام التعبير عن مدى تنازله وتفضله عليه، إذ انتقد بشدة خط يده الذي كان دون المستوى، وعدم درايته باللغة اللاتينية، مما بين بوضوح شديد مدى احتقار مكيافيللي له. فقد كان توتشي سياسيًّا غير محترف، وكانت طلباته التافهة وخبراته المحدودة في الشئون العامة تثير ضجر خبير مخضرم مثل مكيافيللي. وعلى الفور حذر بياجيو مكيافيللي ونصحه بأنه ينبغي عليه أن يتملق تفاهات رؤسائه في قصر مجلس السيادة؛ «فكل شخص بحاجة لأن يُعامل برفق ويُقدر، فهذا ما يجب أن يفعله شخص في مكانك، أي يقدم بعض الكلمات اللطيفة مع اليسير من الملاحظات؛ مما يبعث الرضا في نفوس الآخرين.» إلا أن مكيافيللي عجز عن تحمل الأغبياء عن طيب خاطر، كما عجز عن ممارسة

قدراته في الرياء، في ضوء الدروس التي تعلمها توًّا من سيزار بورجيا.

ولم يُجدِ شجب توتشي لمكيافيللي في إعاقته عن المضي قدمًا في حياته العملية، إذ عُين مجددًا في المستشارية بعد مرور شهر على عودته إلى فلورنسا، وعندئذ لاحت في الأفق بعثة دبلوماسية أخرى هامة هي بعثته الثانية إلى فرنسا في نهاية يناير/كانون الثاني، فقد جاءت هذه الزيارة بعد مرور ثلاث سنوات على زيارته الأولى، وتسع سنوات على غزو تشارلز الثامن، إذ كانت حظوظ فرنسا في إيطاليا قد وصلت إلى منعطف سيئ. ولم يدَّعِ لويس الثاني عشر أحقيته في العرش الفرنسي فحسب، بل أيضا أحقيته في عرش مملكة نابولي وفي حكم مدينة القدس، فإذا انطوى ادعاؤه بأحقيته في مدينة القدس على مجرد الرغبة في امتلاكها، فإنه كان قد اقترب من تحقيق طموحه في نابولي، ففي عام ١٥٠٠م وقع لويس الثاني عشر معاهدة جراندا مع الملك فيردناند الثاني Ferdinand II ملك مملكة أراجون، واتفقا فيها على عزل الملك فيدريجو الرابع Federigo IV (ابن عام فيرناند) وتقسيم مملكة نابولي فيما بينهما. وبعدها بسنة نُفِّذ هذا الاتفاق دون عناء، إلا أنه حدث اختلاف في بنود معاهدة جراندا؛ مما أسفر عن اندلاع حرب بين طرفي المعاهدة في صيف عام ١٥٠٢م، وحقق الفرنسيون انتصارات في المعارك الأولى، لكن في عام ١٥٠٣م أوقع جونسالفو دي كوردوبا Gonsalvo de Córdoba الشهير بلقب القائد العظيم El Gran Capitán بجيش الملك لويس الثاني عشر هزيمتين ساحقتين، الأولى في تشرينيولا Cerignola التي تقع على بعد خمسة وسبعين ميلًا شمال شرق نابولي، والثانية والأخيرة على ضفاف نهر جاريجليانو، وانتهى المطاف بالقوات الفرنسية نهاية دموية وحاسمة في نابولي.

وعليه، ارتبطت بعثة مكيافيللي الأخيرة إلى فرنسا في عام ١٥٠٤م بهذه الأحداث مباشرة. فقد كان عليه أن يؤكد على رغبة الملك لويس الثاني عشر في حماية فلورنسا من الإسبان — الذين يمثلون خطرًا جسيمًا جديدًا على إيطاليا — إذا حدث أن كوردبا انتقل بجيشه نحو الشمال مدعيًا أحقية الملك فيردناند في توسكانيا. وسافر مكيافيللي في برد الشتاء القارص، حيث استقبله في البلاط الملكي في ليون غريمه القديم كردينال روان. واستمع روانو القدير إلى شكواه في ضجر — فالفرنسيون لديهم ما يكفي من مشكلاتهم الخاصة وليسوا بحاجة لأن ينشغلوا بشأن مصير فلورنسا أيضًا — لكنه في آخر الأمر هدأ من روع فلورنسا عندما أخبرهم أن ثمة هدنة بين فرنسا وإسبانيا. وعقب حل هذه المشكلة (رغم أن هذا كان حلًّا مؤقتًا)، عاد مكيافيللي إلى فلورنسا في منتصف مارس/آذار، وفي ذلك الحين استرعت قضية أخرى انتباهه، ألا وهي قضية بيزا التي لا تنتهي.

وفي ربيع عام ١٥٠٤م، كانت بيزا قد نعمت بما يقرب من عقد من الاستقلال من وطأة الهيمنة الفلورنسية. ولم يُبد أهل بيزا إشارات تنم عن رغبتهم في العودة للدخول تحت السيادة الفلورنسية في القريب العاجل، ومع ذلك أحرز الفلورنسيون في مايو/أيار نجاحًا يندر حدوثه، إذ استولوا على معقل ريبافراتا. عندئذ أُعدت الخطط لشن هجوم شامل على المدينة العاصية حتى وصلت الأخبار إلى فلورنسا أن أهل بيزا الأسرى في معقل ريبافراتا قد ادعوا أنه يوجد بداخل أسوار بيزا ألفا محارب مسلحون تسليحًا جيدًا، بالإضافة إلى خمسمائة من جنود المشاة، وثلاثمائة جندي من الفرسان خفيفي الحركة، وتمولهم مدينتا سيينا ولوكا. ولأن الفلورنسيين لم يمتلكوا من الأساس إرادة قوية للقتال، فسرعان ما ذبل حماسهم وانزوى. وبدلًا من الهجوم، وضعوا

خطة جديدة بارعة قيد الاقتراح. ففي يوليو/تموز، وافق أعضاء مجلس السيادة على بدء العمل في مشروع هندسي ضخم ألا وهو تحويل مجرى نهر أرنو، تاركين بيزا في حيص بيص، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تُطرح فيها هذه الفكرة المربكة التي تنطوي على إقحام الهندسة الهيدروليكية للمساعدة في الحرب. ففي عام ١٤٣٠م قام المهندس المعماري فيلبو برونيلستشي Filippo Brunelleschi بمحاولة لإخضاع مدينة لوكا من خلال إنشاء سد على نهر سيرشيو، ومن ثم يفيض النهر في المناطق الريفية المحيطة تاركًا مدينة لوكا أرضًا يابسة وسط بحيرة. ولكن لسوء حظ التخطيطات الحربية الفلورنسية، دمر أهل لوكا السد مما نتج عنه غمر المعسكر الفلورنسي بالمياه، وهو ما حدا ببرونيلستشي الذي شعر بالخزي إلى أن يتقهقر من المكان مسرعًا إلى منطقة أكثر ارتفاعًا. والآن اقترح الفلورنسيون — غير مكترثين بهذه التجربة — شق قناة طولها اثنا عشر ميلًا وعمقها ثلاثون قدمًا حتى يتمكنوا من تغيير اتجاه مجرى نهر أرنو — الذي هو قوام الحياة في بيزا — بحيث يصب في منطقة مستنقعية راكدة تبعد نحو ستة أميال جنوب بيزا. وهكذا يصبح أهل بيزا، على غرار أهل لوكا، منعزلين تمامًا عن العالم الخارجي في كافة الأمور العملية. وبينما قاد برونيلستشي العظيم العمل عام ١٤٣٠م، اضطلع بالمبادرة هذه المرة رجل ذو سمعة في البراعة الفنية تداني سمعة برانيلستشي، هو ليوناردو دا فينشي.

ويُرجح أن مكيافيللي قد التقى بليوناردو البالغ من العمر اثنتين وخمسين سنة قبل ذلك الحين بسنتين تقريبًا عندما كان الفنان الذي دأب على الترحال يعمل مهندسًا عسكريًّا لسيزار بورجيا. ورغم أن ليوناردو عُرف في فلورنسا بوصفه رسامًا في المقام الأول، فإنه طالما

غذي طموحه في مجال الهندسة العسكرية — وهي مفارقة كبيرة بالنسبة لرجل نباتي يحتقر صائدي الحيوانات ولا يستطيع أن يتحمل أن يرى طائرًا محبوسًا في قفص. بيد أنه، عندما غادر فلورنسا إلى ميلانو عام ١٤٨٢م، في الثلاثين من عمره، تسلح ليوناردو بخطاب إلى لودوفيكو سفورزا يوضح خبراته التي كان من بينها: نصب المجانيق والمدافع، وتجفيف الخنادق المائية المحيطة بالحصون، وتدمير الحصون من خلال الأنفاق وباستخدام المتفجرات (ولم يكتب أنه يتمتع أيضًا بالقدرة على الرسم والنحت إلا في نهاية الخطاب). وظل ليوناردو في بلاط سفورزا على مدار الأعوام السبعة عشر التالية يصمم (ولكن لا ينفذ فعليًّا) الأدوات الحربية مثل القوس والبنادق التي تزيد من حجم النيران وسرعتها، كما كان قادرًا على أن يصمم أيضًا دبابة مسلحة بالمدافع ومكسوة بطبقة معدنية، وقد درس أيضًا علم قوانين حركة القذائف Ballistics مما يمكن من إطلاق قذيفة المدفع على العدو على نحو أكثر دقة. وعلى الرغم من الانخراط في كل هذه الأنشطة، فقد تمكن من إيجاد الوقت لرسم لوحة «العشاء الأخير» واختراع أول مقعد مرحاض في العالم.

وشرع ليوناردو في العمل في خطط تحويل مجرى نهر أرنو في وقت مبكر من صيف ١٥٠٣م، حيث زار المواقع في وادي النهر بصحبة فنان موسيقي يُدعى جيوفاني بيفرو Giovanni Piffero، والد الصائغ بينفنتو تشليني Benvenuto Cellini الذي كان لا يزال طفلًا في ذلك الحين. ثم عاد ليوناردو إلى فلورنسا وعلى مدار الشهور القلائل التالية أعد دراسات الجدوى المتعلقة بإنشاء القناة، وكان من بين إحصاءاته دراسة تمكنه من تقدير أن مهمة نقل مليون طن من التراب سوف تتطلب أربعة وخمسين ألف يوم عمل والعديد من ماكينات الحفر التي صممها بنفسه. ولم يترك ليوناردو شيئًا للصدفة حتى إنه حسب أن

كل دلو من التراب سوف يمر بين أيادي ما لا يقل عن أربعة عشر عاملًا حتى يُرفع من قاع القناة إلى حافتها.

استهدف تحويل مجرى نهر أرنو تحقيق بعض أهداف الفلورنسيين الأخرى بجانب إخضاع أهل بيزا، إذ إنه سيجعل نهر أرنو أكثر صلاحية للملاحة، وسوف يعمل أيضًا على الحماية من الفيضانات التي كانت تقضي على المحاصيل على بصفة متكررة وتغرق فلورنسا ذاتها. وسرعان ما نال المشروع استحسان بيرو سودريني، وفي صيف ١٥٠٤م تمكن سودريني — حامل لواء العدالة — من إقناع زملائه في مجلس السيادة برغبته في تنفيذ هذا المشروع. ونُقلت أول كمية من التراب في العشرين من أغسطس/آب بالاستعانة بألفي عامل يحرسهم ألف جندي. وكان العامل يتقاضى كارلينو واحدًا عن يوم عمل شاق في الشمس الحارقة. ولتوضيح مدى حقارة هذا الأجر، فإن الكارلينو الواحد باعتباره أجرًا يوميًّا كان هو نفس الأجر الذي وافق ليوناردو أن يعطيه لخادمه الجديد ليعيش ويعمل في منزله في نفس ذلك الشهر.

وفي ذلك الوقت، ترك ليوناردو العمل في المشروع ليعود إلى استكمال رسم لوحة «الموناليزا»، ليس هذا فحسب وإنما أيضًا ليقوم بعمل ضخم آخر عبارة عن لوحة جدارية تصور معركة أنغياري Battle of Anghiari، التي حققت خلالها فلورنسا النصر على ميلانو عام ١٤٤٠م إذ عينه مجلس السيادة لرسمها على أحد جدارن قاعة المجلس العظيم. كانت الأمور قد تركت على الأقل بدرجة ما في يد مكيافيللي الذي بدأ يكتب من مكتبه في المستشارية عشرات الخطابات نيابة عن مجلس العشر إلى المراقبين في ميدان العمل. ومن المرجح أن يكون مكيافيللي قد أيد منذ البداية إنشاء مشروع القناة، ولعله كان أيضًا من بين أفراد الوفد الذين زاروا وادي نهر أرنو مع ليوناردو في صيف عام ١٥٠٣م. على أية حال، أقام كل من مكيافيللي وليوناردو

علاقة تعاونية عقب عودتهما من إيمولا، وقد أمّن تأثير مكيافيللي على الحكومة لليوناردو حصوله على مشروع اللوحات الجدارية في قصر مجلس السيادة، فوقع مكيافيللي عقد عمل ليوناردو مع مجلس السيادة في مايو/أيار ١٥٠٤، وقد ترجم مساعده أغوسطينو فيزبوتشي حكاية معركة أنغياري من اللاتينية إلى الإيطالية التي يستلهم منها ليوناردو عمله (إذ لم يكن لديه أدنى فكرة عن اللغة اللاتينية).

وبينما كان مكيافيللي يدبر الأمور الإدارية، كان يضطلع بالجوانب الفنية في مشروع القناة مهندس يُسمى كولمبينو Colombino، وأمل كولمبينو أن يتمم شق القناة في غضون شهر تعويلًا على حسابات ليوناردو، غير أن الأمور لم تسر وفقًا لما هو مخطط لها، فعلى الرغم من مدى براعة ودقة الدراسات التي أجراها ليوناردو، فقد ثبت أن حساباته كانت متفائلة على نحو مبالغ فيه، وسرعان ما برز أن ثمة حاجة إلى المزيد من العمالة، والأدهى من ذلك أن ثمة عيوب في التصميم وهي العيوب التي جعلت من سد برانلسيتشي المشئوم يبدو وكأنه إنجاز مبهر من إنجازات الهندسة المدنية.

وأدرك مكيافيللي وجود بعض المشكلات في غضون شهر من بدء العمل، وقد ساورته بالفعل بعض الشكوك في مدى كفاءة كولمبينو القيادية وقوة شخصيته، وعلق مكيافيللي عنه أمام أحد المندوبين قائلًا: «على المستوى الشخصي هو شخص متحفظ للغاية، إذن كيف له أن يصمد بين هذه الحشود من الرجال وهذه الإعدادات الضخمة!» وفي منتصف سبتمبر/أيلول أمسك مكيافيللي بيده المبررات ليشكك في معرفة كولمبينو الهندسية أيضًا، فقد أجرى كولمبينو عددًا من التغيرات على تصميم ليوناردو بسبب خطابات مكيافيللي التي كانت تحثه بإلحاح على ضرورة التعجيل بإنهاء الأمر. وانتابت مكيافيللي المخاوف لأن درجة ميل القناة لم تكن كبيرة بالقدر الكافي، وقاعها سيكون أعلى من قاع

نهر أرنو. وكان لهذه المخاوف ما يبررها، ففي نهاية سبتمبر/أيلول، لم تتمكن مياه نهر أرنو من دخول القناة إلا في حال ارتفاع المد، وبمجرد انحسار المد ترجع المياه بمنتهى البساطة مرة أخرى إلى قاع النهر. وتمكن سودريني من الحصول على إرجاء مؤقت للمشروع من خلال إقحام قرار في مجلس الثمانية يقر باستمرار العمل، غير أنه في ذلك الحين تبين أن مشروع القناة يزداد اتجاهه نحو الانهيار. وطبقًا لما ورد عن أحد المندوبين في موقع العمل كان العمال يعملون «بمزاج متعكر» بينما كان كولمبينو نفسه فاقدًا كل أمل في النجاح «ملقيًا باللوم على الظروف غير المواتية». وأوضحت خطابات مكيافيللي أنه لا يزال يداعبه الأمل في إنقاذ المشروع بحلول الأسبوع الأول من أكتوبر/تشرين الأول، لكن حينئذ آل المشروع بأكمله إلى زوال على نحو مفاجئ ومخزٍ عندما اجتاحته عاصفة عنيفة أفضت إلي انهيار جدران القناة. وعلى الفور، أقلع الجميع عن التفكير في المشروع، وبدأ أهل بيزا في ردم القناة، وتنهد المؤرخ فرانشيسكو جوتشياrديني في حزن: «شتان الفارق بين التخطيط للأشياء وبين وضعها موضع التنفيذ.»

في آخر الأمر، تكلف المشروع المفجع لتحويل مجرى نهر أرنو سبعة آلاف دوكة وحصد حياة ثمانين من العمال، وكلف أيضًا بيرو سودريني وزملاءه فقدان قدر لا بأس به من هيبتهم. وكانت أولى العواقب المترتبة على هذا الفشل الذريع هي حدوث أزمة مالية أدت بدورها إلى موقف سياسي محفوف بالمخاطر. كما رفض المجلس العظيم للشعب سن تشريع لفرض الضرائب كان قد اقترحه مجلس السيادة بسبب امتعاضه من العبء الضريبي الذي أحدثه سودريني جرّاء مواصلة الحرب غير النافعة. وتجلت عواقب الحرمان من العوائد الضريبية عندما وجد سودريني نفسه غير قادر على دفع مبلغ الإتاوة

(المقدر بأربعين ألف دوكة سنويًّا) الذي يتقاضاه أهم حلفاء فلورنسا وهو الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا، الذي بدون حمايته تقع فلورنسا فريسة للإسبان.

وبدأ التهديد الإسباني لفلورنسا يوشك أن يكون تهديدًا حقيقيًّا في صيف عام ١٥٠٤م، إذ تسلم مكيافيللي تقارير في المستشارية تفيد بأن بارتولوميو دألفيانو Bartolomeo d'Alviano — أحد قادة المرتزقة — الذي كان يعمل لحساب جونسالفو دي كوردوبا، كان متجهًا إلى الشمال من روما بصحبة جيش مؤلف من عدة آلاف من الرجال «للإطاحة بحكومتنا وإخضاع توسكانيا للهيمنة الإسبانية.» وقد جاء غزو فلورنسا كخطوة افتتاحية ضمن خطة معقدة أعدها الإسبان لطرد فرنسا من ميلانو، فقد أنعشت هزيمة فرنسا في جمهورية نابولي عام ١٥٠٣م آمال أعدائها في إمكانية إعادة الدوقية إلى آل سفورزا. ولما كانت فلورنسا بقيادة سودريني حليفًا قويًّا لفرنسا، فإن الكردينال أسكانيو Ascanio، شقيق لودوفيكيو سفورزا؛ أجرى الترتيبات مع جونسالفو دي كوردوبا، التي بموجبها تتم الإطاحة بالجمهورية الفلورنسية ويعاد آل مديتشي إلى السلطة، الذين سيقومون عندئذ بالمساعدة في طرد الفرنسيين من ميلانو.

وحدث أن مكيافيللي شرع في هذا الجو الذي يسوده الخوف وتربكه الإشاعات، في نوفمبر/تشرين الأول عام ١٥٠٤، في تأليف قصيدة مكونة من خمسمائة وخمسين بيتًا بعنوان «العقد الأول» First Decennium، واستغرق مكيافيللي أسبوعين في كتابة هذه القصيدة التي هي عبارة عن رواية يسرد فيها «الأوقات العصيبة» التي مرت بها إيطاليا على مدار السنوات العشر الماضية، ويزول الكرب في نهاية هذا البيان المصور الذي لا يتوقف فيه الهلع والوجع — إذ يصف أحد أبيات مكيافيللي صراحةً «بشاعة الأحداث وقسوتها» — من خلال نسمة من التفاؤل تقول

إنه يمكن للإيطاليين مرة أخرى أن يمسكوا بزمام شئونهم الخاصة ناصحًا بأنه يتوجب عليهم «أن يفتحوا ثانية معبد الإله مارس إله الحرب»، وبهذه الاستعارة يحض مكيافيللي الإيطاليين على أن يتوقفوا عن الاستعانة بهؤلاء المرتزقة الخائنين عديمي الفائدة، ويعولوا على أنفسهم بدلًا من ذلك — وبالأخص على المليشيات التي تتكون من أبناء بلادهم. وكان هذا النصح يزيد عن كونه مجرد فكر أدبي، ففي أعقاب انهيار القناة حول مكيافيللي نظره إلى مشروع الميليشيا باعتباره النجاة ليس لفلورنسا فحسب بل لإيطاليا بأكملها.

الفصل الثامن

تلى إخفاق مشروع قناة نهر أرنو المزيد من الإذلال للفلورنسيين على أيدي أهل بيزا في أوائل عام ١٥٠٥م، ففي مارس/آذار، لقيت القوات الفلورنسية التي كان يقودها قائد مرتزقة دون المستوى يدعى لوكا سافيلي Lucca Savelli هزيمة نكراء عند جسر بونت آه كابيلتو Ponte a Capelletto، فقد قُتل خمسون جنديًّا على أيدي فرقة عسكرية صغيرة من أهل بيزا، وقع في الأسر ثلاثمائة وسبعون آخرون، وهاجم الفلاحون بعنف الناجين من المعركة أثناء انسحابهم وسرقوهم. وحالت الهزيمة دون وصول واردات الحبوب إلى فلورنسا، مما أفضى إلى ارتفاع مطرد في سعر الذرة طوال شهر أبريل/نيسان، وتلاه في شهر مايو/أيار حدوث مجاعة وشغب من أجل الخبز.

وقام مجلس السيادة في سعيه وراء إيجاد حلول لهذه المشكلة بإرسال مكيافيللي مسافة خمسين ميلًا نحو الجنوب الشرقي إلى كاستيليوني ديل لاجو Castiglione del Lago في الشاطئ الشرقي لبحيرة ترازيمينو؛ ليتفاوض مع جيانباولو باليوني، أحد قادة المرتزقة في بيروجيا. وكان باليوني قد وقّع من قبل عقدًا ليحارب عن فلورنسا، غير أنه كان يحاول التملص من التزاماته في ربيع عام ١٥٠٥م — إذ تقاضى رشوة من المؤيدين لآل مدتشي وأيضًا نزل على رغبة صهره

بارتولوميو دألفيانو (الذي كان هو نفسه في غمرة الإعداد لغزو فلورنسا لصالح إسبانيا) — متذرعًا بأنه كان في حاجة إلى قواته للدفاع عن نفسه. وقام مكيافيللي «بنخزه في ضميره» كما أورد إلى مجلس السيادة، وبالطبع كان ينطوي أسلوب مكيافيللي على ضرب من ضروب السخرية عندما ينتقد شخصًا ما — وهو ما قام به مع باليوني — مؤكدًا على مسألة «أنه معروف بنواياه الحسنة» وأهمية أن يفي المرء بعهده، بيد أن باليوني لم يهتز بهذا النقاش، بل أحكم رأيه في الرفض.

وعلى الرغم من فشل مكيافيللي في هذه المهمة، فإنه نعم بالسلطة الدبلوماسية المطلقة، وبُعث إلى مدينة مانتوا Mantua، حيث عقد صفقة آلت إلى نجاح أكبر مع فرانشيسكو جونزاجا Francesco Gonzaga ماركيز مدينة مانتوا. واستعانت فلورنسا أيضًا مرة أخرى بإيركولي بينتفوليو Ercole Bentivoglio، أحد أعضاء العائلة الحاكمة في بولونيا البالغ من العمر ستًّا وأربعين سنة، والذي كان يتمتع بما ينيف عن عشرين عامًا من الخبرة في القتال، إذ قاتل ضد كل من البندقية وجينوا وسيينا، وساند في عام ١٥٠١م فيتلوزو فيتلي في هجماته ضد فلورنسا، رغم أنه قاد بعدها مباشرة القوات الفلورنسية في هجمة ضد أهل بيزا في إحدى صفقات بيع الولاء التي كان يشتهر بها قادة المرتزقة، وهي الحملة التي انصرف عنها عندما اتهم زوجته باربرا بالزنا ثم حاول أن يُسممها.

وحصلت فلورنسا على توقيعات هؤلاء القادة في اللحظات الأخيرة، وفي أوائل أغسطس/آب، اندفع جيش مكون من حوالي ألفي جندي بقيادة ألفيانو إلى توسكانيا، من بينهم فرسان يستخدمون القوس. وثبت أن صفقات مكيافيللي المتعجلة التي أجراها في غضون الأشهر القلائل الماضية غير ذات جدوى، ووجد الفلورنسيون أنفسهم بلا معين، إذ لم يهب حلفاؤهم لنجدتهم، وعندما لاح ألفيانو في الآفق، رفض

الفرنسيون، في لحظة من لحظات انعدام البصيرة؛ تقديم أي مساعدة لهم بسبب تأخرهم في سداد أربعين ألف دوكة، بينما رفض ماركيز مدينة مانتوا الجبان — الذي غالبًا ما كان يتذرع بإصابته بالزهري للتملص من الدخول في المعركة — أن يشارك في القتال بحجة أن الفرنسيين رفضوا التعاقد معه. ولحسن الحظ كان إيركولي بينتفوليو، الرجل الذي استولى على معقل ريبافراتا من قبل؛ رجلًا شديد البأس، وفي السابع عشر من أغسطس/آب، أنزل بألفيانو هزيمة ساحقة في مدينة سان فينشينزو إذ تخلص من جنود جيشه أجمعين ما بين قتيل ومنزوع السلاح، واستولى على القافلة التي تحمل أمتعة ألفيانو إلى جانب ألف من الجياد. ووضع الفلورنسيون، وهم الشعب الذي لم يتذوق كثيرًا طعم النصر، ألوية ألفيانو وخوذته بزهو للعرض في قاعة المجلس العظيم للشعب.

وغمرت البهجة سودريني ومجلس السيادة بهذا الانتصار الساحق حتى إنهم أصروا على استغلال هذه الفرصة، وعندئذ أرسلوا بينتفوليو للإغارة على بيزا، وحقق قائد المرتزقة في الأسبوع الأول من سبتمبر/أيلول بداية مشجعة، حيث نسف أجزاءً من أسوار المدينة بمدفعيته. غير أنه، في تكرار مؤسف لأحداث ١٤٩٩م، قامت قوات بينتفوليو بعصيان قادتهم ورفضوا دخول المدينة، ومن هنا ذهبت الجهود سدى، وتجرعت فلورنسا مرة أخرى مرارة الخزي والسمعة السيئة.

واختار مكيافيللي لحظة الانحطاط المشين هذه في حظوظ فلورنسا كي يتقدم بمخططه الجديد، لقد كان مقتنعًا تمام الاقتناع أن السبب الأكبر في خزي فلورنسا وبلاياها يُعزى إلى قادة المرتزقة، فلطالما استاء مكيافيللي من الظروف التي دفعت فلورنسا إلى أن تضع ثرواتها في أيدي رجال لا يحظون بولاء أو استقامة إلا ما يُشترى مقابل كيس من

الدوكات. لقد شاهد الإحباطات التي كابدتها الجمهورية مرارًا وتكرارًا من جراء خيانة باولو فيتلي، وجشع السويسريين وفوضويتهم، ونفاق جيانباولو باليوني، وضعف قدرات لوكا سافيلي، والآن جبن ماركيز مدينة مانتوا. بوضوح شديد، تحتاج فلورنسا إلى أن تجتث أي نوع من أنواع الاتكال على هؤلاء الجنود المرتزقة المجردين من المبادئ الأخلاقية، الذين لا يعنون إلا بمصالحهم الشخصية، لكن من أين لها أن تحصل على أسلحتها ومعداتها الحربية في هذه الحالة؟

ومن بين جملة الأشياء العديدة التي أثارت إعجاب مكيافيللي بسيزار بورجيا استخدامه ميليشيا المواطنين المؤلفة من فلاحين أقوياء شديدي الشكيمة من رومانيا، وعندما تعرض لخسارة مرتزقته المحاربين في غضون أزمة عام ١٥٠٢م، جند سيزار فرقًا من المقاتلين حتى يتسنى له مواجهة التهديدات، وعندما رآهم مكيافيللي في استعراض عسكري في إيمولا، أَسَرَ لبه أمر يفوق زيهم الخلاب القرمزي والأصفر، فهم رجال يقاتلون في سبيل وطنهم — من أجل حماية بيوتهم ومزارعهم وأسرهم — وليس بغرض الحصول على المال أو النهب.

ويُحكى أنه كان لفلورنسا نفسها مليشيا قومية من أبنائها، وهو الأمر الذي كان مكيافيللي يعلمه جيدًا، ففي منتصف القرن الثالث عشر، كان يُسجل كافة الفتية في المدينة والريف المجاور في خمس وتسعين سرية، وعندما كانت السلطات تستدعيهم في أوقات الأزمات من خلال دق ناقوس يُطلق عليه «المارتينلا» Martinella، كان يتعين عليهم أن يحضروا متسلحين ومتأهبين للمعركة، وكان هناك العديد من المراسم والتقاليد السائدة، أغربها هو قرع المارتينللا على مدار شهر كامل قبل الانقضاض على العدو — وهو طقس متبع يعرب عن الثقة المفرطة بالنفس، بالإضافة إلى الاعتقاد بأن الهجوم على العدو على حين غرة هو من التكتيكات المخزية. وسرعان ما اتضح أن مواطني

الجمهوريات التجارية الثرية ليسوا في حاجة إلى أن يكونوا أفضل جنود، كما أنهم لا يخدمون مصلحة الدولة الاقتصادية حينما ينخرطون في حملات عسكرية طويلة المدى تبعدهم عن أنشطتهم التجارية ومزارعهم، والأدهى من ذلك أنها تجعلهم يفقدون حياتهم، ففي عام ١٢٦٠م أفضت إحدى المناوشات المفجعة مع مجموعة صغيرة من الفرسان الألمان خارج أسوار مدينة سيينا، في معركة مونتابرتي؛ إلى مصرع أربعة آلاف فلورنسي، وبذلك اقتحم الموت كل منزل في فلورنسا كما قيل. وبحلول منتصف القرن الرابع عشر، شهدت المليشيا فترة من الاضمحلال، ولم تخض فلورنسا الحرب مع مدينة لوكا عام ١٣٣٦م إلا بعدما أنفقت مائة ألف فلورين على المرتزقة الأجانب. وبعد مضي قرن من الزمان، باتت الحروب في إيطاليا لا تعتمد إلا على المرتزقة.

ورأى مكيافيللي أنه أيًّا كانت عيوب المليشيا الفلورنسية القديمة، فإن مسئولية حماية حريات فلورنسا وتحقيق رخائها كانت تقع على عاتقها. وناقش مكيافيللي في مستهل ربيع عام ١٥٠٤م مع فرانشيسكو سودريني — شقيق حامل لواء العدالة — فكرة إحياء هذا العرف، فشجع سودريني (الذي عيُن حديثًا كردينال) المبادرة وأطلق عليها: «شيئًا في غاية الضرورة وفي غاية السداد.» بيد أن ذوي السلطات الأعلى رأوا غير ذلك تمامًا فيما يخص هذه المسألة، وأولوا اهتمامهم بدلًا من ذلك إلى القناة المشئومة. ومع ذلك، حث الكردينال سودريني مكيافيللي ألا يكف عن سعيه قائلًا له: «لا تفتر عزيمتك، فلعل الشيء الذي لا يُحبذ اليوم، يُحبذ في يوم آخر.»

وفي خريف عام ١٥٠٥م جاء اليوم الآخَر وحُبذ الأمر، حين خول حامل لواء العدالة ومجلس السيادة السلطة لمكيافيللي كي يشرع في تجنيد جيش من المواطنين على سبيل التجربة. وفي الأسابيع الأولى من عام ١٥٠٦م، أسس الجيش في مقره الجديد في بوبي Poppi، وهي

مدينة صغيرة تقع على قمة تل في وادي كازينتينو Casentino تبعد خمسة وعشرين ميلًا شرق فلورنسا. واتسم وادي كازينتينو، الذي يقع في أعالي نهر أرنو، بالجمال إلا أنه كان منطقة منيعة ذات تلال شديدة الانحدار تتخللها ممرات للبغال وتكسوها أشجار الصنوبر الكثيفة حيث تعشش النسور وتُرعى الخنازير البرية، واشتهر هذا الوادي بأديرته وبقديسيه؛ فعلى جانب من وادي كازينتينو، ظهرت على جسد القديس فرانسيس جراح المسيح. ومع ذلك فقد كانت أيضًا منطقة تعج باللصوص وقطاع الطرق، وكذلك كانت منطقة نائية خارجة على القانون، حيث «تنشب كل يوم النزاعات المسلحة وتُقترف جرائم القتل» كما ورد باستياء في أحد تقارير مجلس السيادة. بيد أن مكيافيللي أراد أن يشكل مليشيته من رجال هذه المنطقة العتاة ومن وادي موجيلو المتاخم من جهة الغرب.

وكان مكيافيللي يتوق إلى أن يجمع ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل، لهذا بدأ يجند جميع الرجال في الفترة العمرية ما بين الثامنة عشرة والثلاثين، على أن يُدمِج المجندين في حوالي ثلاثين سريةً، تتألف كل واحدة من ثلاثمائة رجل، وكل عدة سريات تضم رجالًا من نفس الوادي أو مجموعة من القرى المجاورة تشكل كتيبة تحت قيادة ضابط. وكان يُسلح رجلًا واحدًا من بين كل عشرة رجال ببندقية، بينما يستخدم الباقون رماحًا أو أقواسًا أو أي نوع آخر من الأسلحة. وكان على السريات أن تتمرن في العديد من أيام الاحتفالات — لكن ما لا يزيد عن ست عشرة مرة في السنة، طبقًا لمرسوم — بينما كانت الكتائب تُستعرض بصحبة قادتهم مرة كل ستة أشهر. وكان النظام المتبع معهم غاية في الصرامة وانعدام الشفقة وذلك لاسترضاء هؤلاء (وثمة الكثير من هؤلاء) الذين يخشون تجنيد الغوغاء. فقد كانت عقوبة الهروب من التجنيد هي الموت، أما بالنسبة للتخلف عن حضور التدريبات أو

الاستعراضات العسكرية التي كانت تُجرى في الساحة المحلية فقد كان الأمر يقتصر على عقوبات أقل شدة. وإذا بدت هذه القوانين غاية في الصرامة، فثمة بعض المزايا التي سهلت عملية التجنيد إذ كان من ينضم إلى ميليشيا مكيافيللي يتمتع بإعفاء تلقائي من أي ديون تحت السداد أو من أي تهمة جنائية.

كابد مكيافيللي العديد من الصعوبات أثناء تجميع رجال مليشيته، فمن جهة كان الطقس في الأسابيع القلائل الأولى من عام ١٥٠٦م غاية في البرودة حتى إن الأنهار تجمدت، وكانت مباريات «الكاليتشيو» calcio، وهي شكل بدائي وعنيف من أشكال كرة القدم؛ تُلعب فوق سطح نهر أرنو. وأما من جهة أخرى، وهو الأمر الأشد وطأة؛ فقد اكتشف مكيافيللي أن أهالي موجيلو وكازنتينو ليس لديهم إلا أقل القليل من مشاعر الوطنية والانتماء تجاه فلورنسا، ولهذا فهم ليس لديهم رغبة أكيدة في أن يُعِدوا العدة ليحاربوا من أجلها، والأدهى من ذلك أنهم لا يُكنون قدرًا كبيرًا من مشاعر الحب تجاه بعضهم حيث كانت هذه المنطقة تعج بالضغينة والكراهية والانتقام؛ وكذا اكتشف أن القرويين في بتروجنانو يحتقرون نظراءهم من كامبانا المجاورة، والعكس صحيح، مثل هذا الحقد حدا بهم إلى رفض الخدمة معًا في نفس الكتيبة. ولم تستطع الحوافز المالية الضعيفة أن تخلق مجندين متحمسين، فقد كان من المقرر أن مجلس السيادة، اليابس الكف كعهده دائمًا، سيدفع لكل واحد من هؤلاء المحاربين ثلاث دوكات في الشهر في حال انصرافهم عن بيوتهم ومزارعهم في وقت الحرب، في حين أنهم لا يتقاضون أي مقابل على الإطلاق عن الجهود المبذولة في المسيرات والتدريبات العسكرية المنعقدة في أيام الاحتفالات.

مع ذلك تمكن مكيافيللي بقدراته وكفاءته من تجميع عدد من الجنود يكفي لإجراء تدريب عسكري في فلورنسا في منتصف

فبراير/شباط، ونُقل أربعمائة مزارع من موجيلو إلى المدينة يرتدون صدريات بيضاء، وجوارب ذات اللونين الأحمر والأبيض، وقبعات بيضاء، ودروعًا صدرية من الحديد، ثم ساروا عبر ساحة قصر مجلس السيادة حاملين بنادق ورماحًا. كان الفلورنسيون متلهفين لرؤية قوات المحاربين الفلاحين إذ كتب أحدهم: «نُظر إلى هذا الأمر على أنه أفضل صنيع حدث لفلورنسا على الإطلاق». وبعد مرور أسابيع قليلة كتب الكردينال سودريني رسالة تهنئة إلى صديقه يقول فيها: «يجب عليك أن تشعر بالفخر إذ وُلد مثل هذا الشيء النبيل على يديك، فأرجو أن تصونه إلى أن تصل به إلى الغاية المرجوة.»

وفي أبريل/نيسان، ألحق مكيافيللي دون ميتشلوتو Don Michelotto السيئ السمعة كرئيس لمليشيته، وهو يعد تعيينًا غاية في المنطقية بالنظر إلى الدور الفعال الذي أداه هذا الإسباني في تنظيم مليشيا سيزار بورجيا وإدارتها في رومانيا قبيل أعوام قليلة. بيد أن وصول أشر أتباع بورجيا على الإطلاق قد أحدث بعض البلبلة، فقد وصفه أحد الفلورنسيين بأنه «وحش ظالم» وبأنه «عدو اللّه والإنسان»؛ إذ خلف وراءه بحق دربًا مروعًا من العنف والقتل. تخصص دون ميتشلوتو في الشنق؛ فإلى جانب فيتلوزو فيتلي وأوليفرتو دا فيرمو، لفظ الكثيرون أنفاسهم الأخيرة وحبله حول رقابهم، وكان من بين ضحاياه ألفونسو الذي كان ينتمي إلى منطقة أراجون، وهو الزوج الثاني للوكرزيا بورجيا Lucrezia Borgia، وكذلك فرانشيسكو تروشيه Francesco Troche سكرتير البابا ألكسندر السادس. وبعد فتح بورجيا لمدينة كاميرينو، شنق دون ميتشلوتو حاكمها جايلو سيزار دا فارنو Giulio Cesare da Varano وصغاره الثلاثة، وقد وصل به الأمر إلى خنق صانع أحذية في فورلي عندما طلب ثمنًا باهظًا — من وجهة نظر دون ميتشلوتو — لحذاء عالي الساق. وحينما قام بالهجوم على فوسامبرونه

باسم بورجيا في أكتوبر/تشرين الأول عام ١٥٠٢م، كانت سمعته تثير جزع وهلع الناس إلى درجة أن العديد من الناس قاموا بالانتحار مؤثرين ذلك على الوقوع في براثنه، كما ورد في الأساطير.

وعليه، فهذا هو الرجل الذي استقرت عليه أحلام مكيافيللي فيما يتعلق بحرية فلورنسا وأمنها ورخائها، وكانت الأوامر التي أعطيت لدون ميتشلوتو هي أن يطوف بالأراضي الفلورنسية ويقوم بنشر الأمن من خلال تطهير كازينتينو من اللصوص والمتمردين وغيرهم من مثيري الشغب والمتاعب. ولم يكن من المستغرب أن يُقبِل دون ميتشلوتو على هذه المهمة بحماس بالغ، إذ شرع بمعية مجموعة مكونة من مائة وخمسين مرتزقًا في حرق منازل المشتبه فيهم من اللصوص، وعلى الفور أُرغم مجلس السيادة على أن يأمره بأن يرخي قبضة يديه. ومع ذلك فجهوده وجهود مكيافيللي بالأخص بعثت الرضا في النفوس؛ وبنهاية الصيف كان هناك خمسمائة من رجال المليشيا يحاربون في أراضي بيزا.

الفصل التاسع

حالما اعتلى البابا يوليوس الثاني السلطة في عام ١٥٠٣م، لُقب بلقب البابا «المروع» أو «المفزع» Il Papa Terribile، فقد كان شخصية مخيفة بحق، كتب عنه سفير البندقية قائلًا: «يتعذر على المرء أن يصف مدى قوته وعنفه وصعوبة ترويضه، فكلٌّ من جسده وروحه يأخذ طبيعة جسد وروح المارد، ويُقاس كل شيء لديه، سواء أكانت مشروعاته أم انفعالاته؛ بمقياس ضخم.» انعكس المقياس العملاق لطموحه على مثل تلك المشروعات، مثل: إعادة بناء كنيسة سان بيتر (التي وضع حجر أساسها في غضون أسبوع الآلام عام ١٥٠٦م)، وتكليف مايكل أنجلو بنحت قبره الذي كان نصبًا تذكاريًّا يبلغ ارتفاعه خمسين قدمًا وكان من المفترض أن يشتمل على أربعين تمثالًا من الرخام بالحجم الطبيعي.

وبنفس القدر، كان لدى يوليوس خطط عظيمة لتعزيز شأن الكنيسة ونفوذها، وكان من أول أعماله فور دخوله الفاتيكان إصدار مرسوم بابوي يعلن فيه لمغتصبي أراضي الكنيسة عن حقوقها التي لا يمكن لأحد أن ينتزعها، وقد عنى بالأخص رومانيا وكذلك مدينتي بولونيا وبيروجيا. وقد تمكن في غضون عامين من إنشاء صندوق مالي ضخم للإنفاق على الحروب يحوي مبلغًا يقدر بحوالي أربعمائة ألف دوكة

وذلك بفضل ترشيد نفقات عائلته وبيع العديد من ممتلكات الكنيسة، وقد عزم أن يشتري بهذا المبلغ قوات لخوض مغامرة عسكرية هامة، إذ رجى أن يشتري بجزء من هذا المال خدمات قائد من المرتزقة يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، ويُدعى ماركانتونيو كولونا Marcantonio Colonna، البطل الذي خاض معركة جاريليانو، والذي كان قد تزوج حديثًا من لوكرزيا، ابنة أخت يوليوس. لكن ثمة عقبة واحدة صغيرة وهي أن كولونا كان متعاقدًا بالفعل مع جمهورية فلورنسا، وكان مجلس السيادة يرفض الاستغناء عن خدماته، فقد ساعد في الحملات التي لا تنتهي على بيزا، وعليه في صيف عام ١٥٠٦م قررورا أن يرسلوا مبعوثًا إلى روما ليصدَّ البابا ويكسب المزيد من الوقت، ومن ثم، أُلزم مكيافيللي بأن يوقف عمله مع ميليشيته ويسافر إلى بلاط البابا المروع الثاني.

وحدث أن يوليوس ارتحل من روما من أجل مغامرته العسكرية في نفس الوقت الذي غادر فيه مكيافيللي فلورنسا، وأعلن البابا في السابع عشر من أغسطس/آب عن عزمه على قيادة جيشه بنفسه في حملته ضد نواب رومانيا، فصاح لويس الثاني عشر فور علمه بالأمر قائلًا: «لا بد أن البابا قد أفرط في احتساء الخمر!» لكن البابا اتسم بالقدرة على الإيفاء بالكلمات التي تخرج من فمه. وفي السادس والعشرين من أغسطس/آب غادر روما بصحبة خمسمائة من الجنود المدججين بالسلاح وعدة ألوف من الجنود السويسريين الحاملين الرماح، وكان بصحبة الحملة أيضًا ستة وعشرون كردينال، والكثيرون من المسئولين في الفاتيكان، والمهندس المعماري دوناتو برامانتي Donato Bramante، وجوقة المنشدين في كنيسة سيستين Sistine Chapel، وكان يتقدم الموكب القربان المقدس الذي طُبعت عليه مشاهد من رحلة الصلب والقيامة، وانضم مكيافيللي إلى هذه الحملة الغريبة في مدينة

نيبي Nepi التي تبعد عشرين ميلًا شمال روما، وكان يراقب تطور الأحداث بارتياب متواصل.

وبعث مكيافيللي إلى مجلس السيادة قائلًا: «لا يعتقد أحد أن البابا سيتمكن من تحقيق بغيته.» مع ذلك تحدى يوليوس مرارًا وتكرارًا تكهنات الشكاكين، وكان هدفه الأول هو بيروجيا، المدينة التي تقع في إقليم أومبريا والتي تحكمها عائلة باليوني، تلك المدينة الغارقة في الخيانة وإراقة الدماء. شهد آل باليوني، قبل ست سنوات، مجزرة وحشية عُرفت باسم «الزفاف الدموي» عندما ذبح جريفونيتو باليوني Grifonetto Baglioni البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا هو وأتباعه أفرادًا من عائلتهم عقب مرور أسبوعين فحسب على الاحتفال بزفافهم، فقد ذُبح العريس الصغير، أستوري باليوني Astore Baglioni، ثم قام قريب له يُدعى فيليبو باليوني Filippo Baglioni بالتهام قلبه. بعدها مباشرة قام جيانباولو باليوني، الذي كان قد قتل والده واتخذ أخته عشيقة له؛ بقتل جريفونيتو في الشارع. بيد أن جيانباولو أظهر أنه فرد سوي عند تعامله مع البابا، فقد نزل على كافة رغبات البابا بعد أن التقى به في أورفيتو في أوائل سبتمبر/أيلول، إذ سلمه الحصون والرهائن، بعدئذ شق البابا والكرادلة الذين كانوا بمعيته طريقهم إلى بيروجيا التي دخلوها غير مسلحين في الثالث عشر من سبتمبر/أيلول.

وكان مكيافيللي قد التقى بجيانباولو البغيض من قبل في عام ١٥٠٥م، وها هو الآن يشاهد في ذهول رهيب البابا وقد وضع نفسه تحت رحمة هذا الطاغية الغادر والمسلح تسليحًا جيدًا، لقد بهت من مجازفة البابا الحمقاء والواضحة للعيان التي سيطلق عليها فيما بعد «جُبن باليوني»، فقد توقع بشدة — بل وتمنى — أن يشاهد خداعًا مثيلًا للخداع الذي قام به بورجيا يومًا ما، أي عرضًا للقوة والمكر ينتهي بذبح يوليوس. رأى مكيافيللي كما كتب فيما بعد أن ثمة «فرصة

ذهبية» لقتل البابا قد سنحت لباليوني، فالقضاء على يوليوس هو «صنيع عظيم كان سيجعل من شجاعته محط إعجاب الجميع كما أنه سيخلد ذكر اسمه على الدوام.» وكان في تقدير مكيافيللي أيضًا أن أية اتهامات مشينة بهذا الصدد هي لا شيء عند مضاهاتها «بعظمة» هذا الصنيع، وعلى الرغم من تاريخ جيانباولو باليوني الذي يحفل بالعديد من أعمال الخيانة والغدر، فلم تراوده فكرة قتل البابا.[١]

وبعد انقضاء فترة طويلة من الزمان على هذا الحدث، كتب مكيافيللي عقابه الأدبي الذي يدعو لاغتيال البابا، فقد كتبه في الوقت الذي رأى فيه أن ثمة مدعاة لمقت يوليوس الذي «لا يدخر وسعًا في تدمير المسيحية» كما زعم مكيافيللي متظاهرًا بالرعب. بيد أنه، عقب هذا الحدث مباشرة صرف انتباهه عن تبرير ارتكاب عملية الاغتيال باسم العدالة إلى إحدى المعضلات السياسية. فمراقبته الدقيقة ليوليوس حدت به إلى أن يمعن في التفكير في عناصر القيادة السياسية، لقد اضطرب عام ١٥٠٣م عند سقوط سيزار بورجيا الذي بدا للعيان أنه فعل كل شيء بطريقة صائبة، والآن هو مشوش بشأن البابا الذي بدا للعيان أنه فعل كل شيء بطريقة خاطئة. إذن فأيُّ عِبرٍ يمكن أن نخرج بها من هذه التطورات غير المتوقعة لمجريات الأمور، إذا كان هناك ما يمكن الخروج به؟

وبينما لم يزل مكيافيللي في بيروجيا، بعث بخطاب مطول إلى جيوفان باتيستا سودريني Battista Soderini — ابن حامل لواء العدالة — البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وأخذ الخطاب شكل تأمل مطول — فهو ثروة مكوّنة من ألف ومائتي كلمة — حول ما دعاه «أفعال الرجال وطرقهم في صنع الأشياء»، كتب مكيافيللي قائلًا: «لقد برهن التاريخ أن التسلسل المختلف للأحداث يمكن أن ينتج عنه نهايات متشابهة، في حين أن الطرق المتماثلة للقيام بالأعمال غالبًا

ما تفضي إلى نتائج في غاية التفاوت، فعلى سبيل المثال: نزع لورنزو العظيم الأسلحة من شعب فلورنسا كي يحفظ منصبه. وعلى النقيض من ذلك، حقق جيوفاني بنتيفوليو Giovanni Bentivoglio النتيجة نفسها في بولونيا من خلال تسليح العامة.» غير أن أول ما كان يجول بخاطر مكيافيللي هو أعمال يوليوس الثاني «الذي لم تكن لديه معايير أو مقاييس يزن بها الأمور، ومع ذلك فقد حصل بتهوره وطيشه على ما يصعب الوصول إليه حتى بالتخطيط والأسلحة.»

وأعرب مكيافيللي عن حيرته بشأن تفسير هذا التفاوت بين الأفعال ونتائجها، وأقر مكيافيللي لجيوفان باتيستا قائلًا: «لماذا الأفعال المختلفة أحيانًا ما تكون ذات نتائج نافعة، وفي أحيان أخرى ذات عواقب وخيمة؟ هذا هو ما لا أعرفه، وأطوق بشدة إلى معرفته.» ثم استطرد مكيافيللي باسطًا رأيه للشاب اليافع: «أرى أنه مثلما خَلقت الطبيعة الناس بوجوه مختلفة، فهي كذلك قد خلقتهم بعقول ومخيلات مختلفة، ومن ثم يتصرف كل رجل تبعًا لفكره الخاص ومخيلته.» فثمة رجل قاسٍ بطبيعته، وبعبارة أخرى، بينما نجد رجلًا عاطفيًّا بطبيعته، نجد آخرين متهورين بالطبيعة، وفي الوقت نفسه هناك آخرون متحفظون أو حذرون، والرجل الناجح بحق هو ذلك الرجل الذي تتوافق قدراته الطبيعية مع متطلبات عصره، في حين أن ذلك الذي يتبين أنه غير قادر على استيعاب هذا الأمر، فحتما سيُخفق. وأضاف مكيافيللي: «وكل شخص يحظى بقدر كافٍ من الحكمة كي يتكيف مع العصور ونمط سير الأحداث فيها ويفهمها، فدائمًا ما سيتمتع بالحظ السعيد، أو دائمًا ما سينأى بنفسه بعيدًا عن الحظ العاثر.»

إذا كان جيوفان باتيستا توقع آنذاك أن يحظى بخطبة عصماء من مكيافيللي حول أفضل الطرق لفهم نمط سير الأحداث ومن ثم التكيف مع متطلبات العصر، فمن المؤكد أنه كان سيُحبط إحباطًا

شديدًا. لم يسع ميكافيلي إلى تفسير السلوك المتناقض لكل من لورنزو العظيم وجيوفاني بينتيفوليو من خلال دراسة الاختلافات الاجتماعية والسياسية بين فلورنسا وبولونيا على سبيل المثال، وإنما عزى أنماطًا معينة فقط من السلوك إلى تفرد بعض الرجال وإلى طبائع لا ملاذ منها، فكتب مكيافيلي قائلًا: «يعجز الرجال أن يقهروا طبائعهم الخاصة» وعليه يجب عليهم دائمًا أن يتصرفوا بالطريقة التي تمليها عليهم شخصياتهم، وبعيدًا عن كونهم قادرين على تكييف سلوكهم مع سير الأحداث، فهم لا يمكنهم تغيير «مخيلاتهم ولا طرق أدائهم للأشياء». وأردف مكيافيلي بما مفاده أن الرجال عاجزون عن تقييم متطلبات العصور ومن ثم يحددون تصرفهم تبعًا لهذه المتطلبات، فقائد متهور مثل يوليوس الثاني لا يستطيع إلا أن يسلك سلوكيات متهورة، على أنه سيظل ناجحًا — مع توافر بعض الحظ في ذات الوقت — مادام عصره يتطلب التهور والتصرفات الهوجاء، بيد أن الهزيمة ستكون هي النتيجة إذا كانت متطلبات العصر هي الحذر والحيطة.

ويبدو أن هذه النظرة الجبرية البائسة قد انتقلت إلى مكيافيلي من خلال الرسائل الأولى التي تبادلها مع بارتولميو فيزبوتشي بشأن تأثير النجوم. آنذاك، جزم فيزبوتشي له أن الرجل الحكيم لديه القدرة على انتقاء أو استبدال التسلسل الطبيعي لأحداث حياته، مغيرًا خطواته بحيث يمكن أن «يتكيف مع جميع الأحوال أيًّا كانت». وبعد مرور سنتين، رفض مكيافيلي الفكرة القائلة بأنه إذا تمكن الرجل حقًّا من اختيار الطريقة المناسبة لسير أمور حياته، فإنه من الممكن أن يسيطر الرجل الحكيم على النجوم والأقدار. بيد أن مثل ذلك الرجل الحكيم لم يُخلق بعد.» هكذا ختم مكيافيلي خطابه بنبرة تنطوي على نزعة تشاؤمية، فالأغلال التي تقيد الطبيعة البشرية لا تسمح بأي اختلاف أو تصحيح فيها.

لعل جيوفان باتيستا انتابته حالة من الذهول والإنكار لدى سماعه لهذه الافتراضات، إذ لم تكن نظرة مكيافيللي للإنسان تختلف عن نظرة المنجمين أمثال فيزبوتشي فحسب، بل إنها أيضًا كانت شديدة الاختلاف مع معظم الفكر اللاهوتي والفلسفي السائد في ذلك الوقت. لم يكن توما الإكويني سوى كاتب واحد من بين كتاب كثيرين اعتقدوا أن الرجل الحكيم قادر على توظيف العقل لمقاومة أهوائه الطبيعية. تميزت نظرة مكيافيللي للإنسان بالاختلاف الشديد مع النظرة التي عبر عنها جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا Giovanni Pico della Mirandola's ببلاغة في كتابه Oration on the Dignity of Man الذي نُشرت طبعته الأولى عام ١٤٨٦م، حاول بيكو أن يبرهن على أن الإنسان هو أكثر كائنات الخليقة إعجازًا لأنه — على عكس باقي المخلوقات — غير مقيد على الإطلاق بقوانين الطبيعة، فقد حباه اللّه الحرية والقدرة ليرسم لنفسه الحدود الخارجية لطبيعته، وصرخ بيكو قائلًا: «ياالغبطة وسعادة الإنسان، الذي أُعطي دون المخلوقات امتياز أن يحصل على ما اختاره، أو أن يكون ما أراده.»[٢] ومع ذلك أنكر مكيافيللي بشدة على الإنسان الحرية المبهجة التي ينعم بها، بل وضع الإنسان في سجن الضرورة سامحًا له بالتصرف وفقًا للأوامر التي تمليها عليه طبيعته فقط.

لم تكن هذه الفلسفة المتجهمة بل المتشائمة أكثر جاذبية من تلك التي لبيكو، إلا أنها كانت الفلسفة التي كان يركن إليها مكيافيللي كلما تأمل في «أفعال الرجال وطرقهم في صنع الأشياء»، ولم تكن وجهة نظر مكيافيللي بشأن تصلب الطبيعة البشرية هي مجرد نتيجة عابرة لحيرته تجاه النجاح غير المبرر ليوليوس الثاني في حملته على بيروجيا عام ١٥٠٦م، إذ إن وجهة النظر هذه سوف تعاود الظهور بعد ذلك بسنوات في عدد من أشهر مؤلفاته.

وبالرجوع إلى يوليوس الثاني نجد أن المطاف لم ينته بحملته العسكرية عند بيروجيا، فبعد قضاء أسبوع في المدينة ارتحل البابا وحاشيته إلى بولونيا، وهي إحدى الإقطاعيات الأخرى العاصية التي أراد البابا أن يخضعها مرة أخرى لسلطة الكنيسة، فاستشار جيوفاني بنتيفوليو منجمًا شابًّا يُدعى لوكا جوريتشو Luca Gaurico من فرط قلقه ليعرف المصير الذي ينتظره، وعندما أخفقت النجوم في التكهن بمصير الحملة، قام بنتيفوليو بوضع جوريتشو في المانكويردا Mancuerda، وهي إحدى وسائل التعذيب التي يُشد فيها حبل حول ذراعي الضحية باستخدام عتلة حتى ينفذ الحبل إلي العظام، وعندما وجدوا أن النجوم لا تزال ترفض أن تقدم له النبوءة المرضية رغم كل هذا التعذيب، خنع كل من بنتيفوليو وأولاده للقدر الذي يتعذر تجنبه، إذ هجروا المدينة مولين الأدبار إلى ميلانو، وفي العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني وصل يوليوس وجيشه للاستيلاء على بولونيا وسط احتفالات صاخبة، وحاز البابا المرعب لقبًا جديدًا وهو «البابا المحارب».

في تلك الأثناء كان مكيافيللي في رحلة عودته إلى فلورنسا بعد أن أمضى ما يقرب من شهرين في البلاط البابوي، ولعل بعض التوجس والخيفة كانا يتملكانه أثناء عودته إزاء استمرار كل من ميلشيته وشغله لوظيفته في المستشارية، إذ تلقى خطابًا من بياجيو بوناكورزي في أوائل أكتوبر/تشرين الأول يُعلمه فيه أن ألامانو سالفياتي Alasmanno Salviati، الرجل الذي أهداه كتاب «العقد الأول»، قد نعته بالخسة. قال سالفياتي: «أنا لم أعهد بأي شيء على الإطلاق إلى هذا الخسيس منذ أن أصبحت عضوًا في مجلس العشر.» كانت الكلمة التي استخدمها سالفياتي بالضبط هي الكلمة الإيطالية ribaldo التي تعني وغْدًا أو صعلوكًا لكنها تحمل في فحواها معنى «وضيع الأصل» حيث إن كلمة (ribaldo) تعني حرفيًّا في اللغة الإيطالية جندي مشاة وضيع المكانة؛

لذا، من المحتمل أنها تحمل بين طياتها تلميحًا قاسيًا إلى أصل مكيافيللي المتواضع اجتماعيًّا.

وناهيك عن أن سالفياتي كان ينتمي إلى إحدى العائلات الفلورنسية الثرية التي تعمل بالصرافة، فقد كان أيضًا أحد الأعضاء البارزين في مجموعة من النبلاء المعروفين باسم «الشرفاء» ottimati (أُخذت هذه الكنية عن الكلمة اللاتينية optimates، التي تعني «أفضل الرجال»، والتي كانت تشير إلى زمرة أرستقراطية إبان الجمهورية الرومانية الحديثة.) ولما كان الشرفاء أثرياء وبارزين اجتماعيًّا، كما هو الحال مع سالفياتي، لذا اعتقدوا أن المجلس العظيم للشعب قام بسحب السلطة من بين أيديهم مانحًا إياها للمواطنين الذين هم من طبقات اجتماعية أدنى. وفي عام ١٥٠٢م، أيد سالفياتي وأصدقاؤه بيرو سودريني (الذي ينحدر من عائلة ثرية وعريقة مثلهم) ليشغل منصب حامل لواء العدالة مدى الحياة، على أمل أن يرعى مصالحهم ويمنحهم سلطات بارزة وفعالة في الحكومة، وبحلول عام ١٥٠٦م تبخرت هذه الآمال، وتحول سالفياتي وعدد من الشرفاء ضد حامل لواء العدالة، وأُقحم مكيافيللي في هذا الشقاق الحزبي إذ كان ينظر إليه الشرفاء على أنه صديق سودريني وحليفه، وهي نظرة صائبة جدًّا، حتى إن عددًا من الشرفاء بدءوا يشيرون إليه على أنه دمية في يد سودريني.

ورغم هذا الشقاق الحزبي، فإن معارضة مشروع ميليشيا مكيافيللي قد تراجعت خلال العام الماضي، وأُعيد اختياره مستشارًا ثانيًا، ليس هذا فحسب، بل عُين أيضًا في السادس من ديسمبر/كانون الأول سكرتيرًا لهيئة قضائية جديدة عُرفت باسم «المسئولين التسع عن المعدات الحربية والمليشيا الفلورنسية»، وذلك عقب حصوله على ثمانمائة وواحد وأربعين صوتًا مقابل ثلاثمائة وسبعة عشر صوتًا في المجلس العظيم للشعب، وقد كُلفت هذه الهيئة بمهمة جمع قوات يصل عددها إلى عشرة آلاف من

رجال المليشيا وتعبئتهم بالأسلحة النارية والرماح والدروع الصدرية المصنوعة من الحديد. وعلى الفور كان مكيافيللي يعتلي الجبال ويجول في الأودية يُجنِّد المحاربين شديدي البأس لهذا المشروع الذي أثنى عليه الكردينال سودريني واصفًا إياه بأنه «هبة من اللّه».

الفصل العاشر

في ربيع عام ١٥٠٧م ما إن تراجع تهديد المغير الإسباني على إيطاليا، حتى لاح في الآفاق مغير أجنبي آخر، هو ماكسيميليان الأول Maximilian I الذي كان ينتمي إلى عائلة هابسبرج، والذي كان يرأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة منذ عام ١٤٩٣م. وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تتكون من تكتلات هائلة من الأراضي في وسط أوربا، وكان يحكمها على فترات متقطعة أفراد من أسرة هابسبرج منذ عام ١٢٧٣م. وكما ذكر الفيلسوف الفرنسي فولتير فيما بعد أنها لم تكن إمبراطورية ولا رومانية ولا حتى مقدسة. وإن كان لها حجر أساس، فهو قد وضع في يوم عيد الميلاد المجيد عام ٨٠٠م عندما قام البابا ليو الثالث بتتويج شارلمان Charlemagne باسم «الإمبراطور أغسطس» Augustus في كنيسة سان بيتر بروما، وحفاظًا على هذا التقليد، يتوج البابا كافة أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان البابا نيقولا الخامس Nicholas V قد توج فريدريك Frederick، والد ماكسيميليان، في روما عام ١٤٥٢م، ورغم أنه توفي في عام ١٤٩٣م، وكان على ماكسيميليان أن يشق طريقه من مدينة إنسبروك النمساوية إلى روما من أجل تتويجه؛ فإنه لم يشرع في الإعداد لهذه الرحلة إلى إيطاليا، المتأخرة كثيرًا عن أوانها؛ إلا في عام ١٥٠٧م.

وأثارت عبارة «خطط ماكسيميليان» الذعر في كل من فرنسا وإيطاليا، فالرحلة إلى روما سوف تحدو به إلى أن يمر عبر إقليم لومبارديا، ولسبب وجيه فقد بث ذلك الذعر في نفس الملك لويس الثاني عشر الذي فقد أخافه أن ماكسيميليان متزوج من بيانكا ماريا سفورزا Bianca Maria Sforza، ابنة جالتزو ماريا Galeazzo Maria دوق ميلانو، ومن ثم سيتذرع ماكسيميليان بحجة التتويج لدخول إيطاليا وطرد الفرنسيين من ميلانو. وخشي الفلورنسيون، لأنهم حلفاء لفرنسا؛ من أن يجدوا أنفسهم متورطين في حرب تتجاوز في ضراوتها صراعهم مع بيزا. وعليه، قرر مجلس السيادة أن يرسل مبعوثًا إلى البلاط الإمبراطوري للتحقق من مدى قدرات ماكسيميليان ونواياه، وأناط بهذه المهمة إلى مكيافيللي في التاسع عشر من يونيو/حزيران بفضل نفوذ بيرو سودريني، إلا أنه بعد مرور فترة تتجاوز الأسبوع بقليل أُلغي تكليفه بناء على أوامر من الشرفاء الذين آثروا أن يرسلوا أحد أتباعهم بدلًا من دمية سودريني الفظة، ووقع الاختيار على شاب نبيل من أصحاب الدماء الزرقاء يُدعى فرانشيسكو فيتوري Francesco Vettori.

استاء مكيافيللي للغاية من هذا الاستخفاف حتى إن أحد الأصدقاء ظل يواسيه رغم مرور شهر على هذا الموقف، لكن هذا الإلغاء سمح له على الأقل أن يمضي أغلب فصل الصيف في تعبئة مليشيته، فعلى الرغم من مرور ثمانية عشر شهرًا على رحلته الأولى إلى كازينتينو، فإنه لا يزال هناك الكثير من العمل الذي يجب إنجازه. ورغم أن دون ميتشلوتو جزم له أن الكتائب «لا تشوبها أي فوضي، وفي غاية الانضباط»، بدأت ترد إلى فلورنسا التقارير التي تفيد عكس ذلك؛ فقد سُرق النبيذ من معصرة نبيذ، وفي موقف آخر، قامت جماعة مكونة من اثني عشر رجلًا من رجال المليشيا السكارى بمثل هذه الأفعال المهينة في إحدى

الحانات، حتى إن مجلس العشر للحرية والسلام أمر بتعذيب زعيم هذه الجماعة ثم زج به في السجن. كذلك تغيب العديد من رجال المليشيا بدون إذن؛ فذات مرة قال دون ميتشلوتو عن أحد الجنود المتغيبين ممن يحملون القوس: «لسوف أطعنه في قلبه بهذا السيف.» والأدهى من ذلك أن التقارير بدأت تنهال على فلورنسا بخصوص فوضوية دون ميتشلوتو نفسه وعدم انضباطه التي شملت هجومًا مسلحًا على أحد المنازل في كاستروكارو. كتب دون ميتشلوتو، الذي يرى نفسه صالحًا، إلى مكيافيللي مدافعًا عن أفعاله قائلًا: «سوف أقف أمام اللّه وأُحاكم.» بيد إن مكيافيللي بدأ على الفور في البحث عمن يحل محل رئيس شرطته الفاسق والممقوت للغاية. وبعد مرور أشهر قلائل يُطرد دون ميتشلوتو، ثم يُقتل عقب ذلك بأشهر قليلة في إحدى المناوشات في ميلانو على يد قاتل مجهول في مشهد ربما لم يَرْثِ له إلا القليلون.

وسنحت لمكيافيللي فرصة أخرى للسفر إلى قصر ماكسيميليان في ديسمبر/كانون الأول، عندما أقنع سودريني زملاءه في مجلس السيادة بضرورة تواجد ممثل آخر إلى جانب فيتوري الذي لا يزال شابًّا صغيرًا كسولًا وعمله غير مجدٍ، وتقاريره لا تقدم إلا أقل القليل من المعلومات المطلوبة. وفي منتصف ديسمبر/كانون الأول شرع مكيافيللي في رحلته إلى بولسانو، تلك المدينة التي تقع في إقليم تيرول حيث مقر بلاط ماكسيميليان، ورغم الطرق غير الممهدة والطقس السيئ، فإنه اختار طريقًا متعرجًا يمر بمدينتي جنيف السويسرية وكونستانس الألمانية (مما أطال مسافة رحلته مئات الأميال)؛ فقد حثه فضوله الشديد وشغفه بشأن السويسريين الذين كان جنودهم المشاة هم أفضل جنود أوربا على الإطلاق (باستثناء سلوكهم المشين في بيزا) إلى أن يحول بعثته إلى بعثة لتقصي الحقائق إذ قضي أربعة أيام وسط السويسريين يراقب «كيف يعيشون وأي نوعٍ من الناس هم»، ورأى مكيافيللي

أنه إذا كانت سويسرا بلدة تجارية، فإن مدينة كونستانس مصدر للسرور والبهجة، إذ التقى فيها لبعض الوقت مع المؤلف الموسيقي الفلمنكي هينريتش إيزاك Heinrich Isaac، الذي تعرف عليه من قبل في بلاط لورنزو العظيم، إذ كان إيزاك هو عازف آلة الأرغن وقائد جوقة المنشدين الخاصة بلورنزو العظيم. وكانت الموسيقي هي إحدى الفنون القليلة التي لم يبد مكيافيللي أي تقدير لها، ومع ذلك فربما استمتع بالأغاني التي كان يؤلفها إيزاك كي تُغنى في الأجواء المفتوحة في الساحات أثناء المهرجانات — أكثر من استمتاعه بقطعه الموسيقية المعدة خصيصًا للقداسات والتراتيل، وذلك باعتباره مؤلفًا للقصائد الشعرية الماجنة.

وأخيرًا وصل مكيافيللي إلى بولسانو في الأسبوع الثاني من يناير/كانون الثاني. ولما كان الفلورنسيون مقتنعون أنه ثمة غزو وشيك الحدوث، كانت التعليمات التي أُعطيت لكل من مكيافيللي وفيتوري هي اتباع ما قد يُطلق عليه دبلوماسية خزينة النقد؛ إذ يعرضون مبالغ كبيرة من المال على ماكسيميليان نظير الحصول على وعد منه باحترام حدودهم وممتلكاتهم. وأُعطيت الصلاحيات لهما بأن يعرضوا عليه حتى خمسين ألف دوكة في حال تيقنهم تمام اليقين من أنه عاقد العزم على غزوهم. وكان من الصعب للغاية معرفة نوايا ماكسيميليان ولا سيما أنه — وهو الحاكم البالغ من العمر خمسة وأربعين عامًا — لم يكد يتعرف عليهم، ولم يتأثر مكيافيللي كثيرًا بهذا الرجل الذي كان شعاره الشخصي هو ثمرة الرمان، فصدم هذا الرجل مكيافيللي بشدة إذ كان يبدو بالمقارنة بسيزار بورجيا أو يوليوس الثاني حاكمًا في غاية التردد وعدم الكفاءة، وكتب مكيافيللي عنه إلى مجلس السيادة أنه ذلك النوع من الشخصيات التي «إذا الريح مالت مال حيث تميل.»

وأثبت ماكسيميليان سريعًا عدم جدارته، إذ شن في فبراير/شباط هجومًا على أهل البندقية قرب فيتشنتزا بعد أن ضاق ذرعًا برفضهم السماح لقواته بالمرور عبر أراضيهم. وعلى الفور أنزل البنادقة — بقيادة بارتولميو دألفيانو — الهزيمة بقواته، واستولوا على بعض من أراضيه. وفي يونيو/حزيران وقّع ماكسيميليان هدنة لمدة ثلاث سنوات بعد أن أذله البنادقة، ومن ثم زال الخطر الذي كان يتهدد الفلورنسين من الشمال بسهولة ويسر. وسيتطلب الأمر إمبراطور آخر يفوق ماكسيميليان في البأس والطموح لكي يلحق الدمار والخراب بإيطاليا.

وعاد مكيافيللي إلى فلورنسا في منتصف يونيو/حزيران عام ١٥٠٨م، ورغم ألمه الشديد من جراء إصابته بحصوات المرارة، استأنف عمله مع مليشيته على الفور تقريبًا. وكُلفت كتائبه في هذا الصيف بمهمة المشاركة في عملية إلحاق الخراب السنوية بريف بيزا المعروفة باسم جاستو guasto المشتقة من الكلمة الإيطالية guastare بمعنى يُفسد أو يخرب، إذ كانت الكتائب تساعد الفلاحين الذين يستخدمون المعاول في تخريب الحقول ومزارع الكروم، وكانوا يتمتعون بقدر هائل من الطاقة والوحشية، وكان بيرو سودريني يستحث مكيافيللي في أغسطس/آب قائلًا: «اشحذ همتهم حتى يأتوا على الأخضر واليابس في أرض العدو.»

ورام الفلورنسيون، إلى جانب القضاء على المحاصيل الزراعية، أن يجعلوا أهل بيزا يتضورون جوعًا حتى يذعنوا لهم من خلال حصار المدينة، وتعد هذه الخطة الجديدة أقل تعقيدًا إلى حد ما من مشروع قناة ليوناردو المشئوم. وأُنشأ حاجز باتجاه مجرى النهر يبدأ عند بيزا، وبالتحديد في منطقة سان بيترو في جرادو (وهي أول بقعة في إيطاليا نزل بها القديس بطرس كما يقال في الأساطير) بحيث يمنع دخول الأطعمة والمؤن الأخرى إلى المدينة من جهة الساحل. وعندما نجح أهل

بيزا في كسر الحصار من خلال قناة تُسمى «النهر الميت»، أُستعين بالمهندس المعماري أنطونيو دا سانغالو الكبير Antonio da Sangallo the Elder لبناء سد خشبي يغلقها، عندئذ عُهد إلى مكيافيللي ورجال مليشيته بحماية هذين الحاجزين من هجمات العدو، ونبه أعضاء مجلس العشر مكيافيللي قائلين: «لقد وضعنا على عاتقك مسئولية كل هذا.» وفي فبراير/شباط عام ١٥٠٩م وجد مكيافيللي نفسه يقود ألفًا من الجنود إلى مصب النهر الميت معرضًا حياته لخطر جسيم إلى درجة أن أعضاء مجلس العشر اضطربوا من أجله وحثوه على الانتقال إلى مكان أكثر أمنًا بجوار المعسكر الفلورنسي في كاشينا، فرد مكيافيللي عليهم في خطاب قائلًا: «أعرف أن المعسكر سيكون أقل خطرًا وإرهاقًا، لكني لو كنت أود أن أتجنب الخطر والعمل المرهق، لما تركت فلورنسا.»

أدت شجاعة مكيافيللي في الميدان إلى إحداث خلل وإرباك على أصعدة أخرى، وإن كان لأسباب مختلفة تمامًا، إذ كان المندوب المنوط به الإشراف على الحملة العسكرية على بيزا، نيقولو كابوني Niccolò Capponi مستاءً من انعدام التقارير التي ترد إليه من المستشار الثاني، ففي نهاية فبراير/شباط أخبر بياجيو القلوق مكيافيللي أن كابوني «تبرم وتأفف شاكيًا من أنك لم تكتب إليه قط»، ولعل كابوني البالغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا والذي كان ينتمي إلى واحدة من أكبر العائلات الفلورنسية على الإطلاق، كان يشكو مدفوعًا بعداء الشرفاء المتأصل لكل من سودريني ومكيافيللي، ومع ذلك لم يستطع بياجيو أن يفهم لماذا لا يعرف رئيسه مكيافيللي، الذي يتسم بالفصاحة الشديدة في أمور أخرى؛ كيف يسترضي أعداءه ولا يعي ضرورة القيام بذلك، فكتب بياجيو في حدة إلى مكيافيللي قائلًا: «الأشخاص الذين يتمتعون بنفوذ أكبر هم حتمًا محقون، ويجب عليك أن تُظهر لهم الاحترام، ومن ثم ينبغي عليك أن تدرب نفسك على أن تتحلى بالصبر وأن تعرف

كيف تتصرف في مثل هذه المواقف ... لذا إذا تطلب الأمر منك خطابًا أو خطابين لترضيه، فذلك لن يكلفك كثيرًا من الجهد.» لكن كما كان الحال مع أنجلو توتشي، تاجر الأوراق المستاء، وجد مكيافيللي نفسه غير راغب أو قادر على استخدام المجاملة والمداهنة ليقلل من سورة غضب أعدائه، فالمسألة فحسب هي أنه لم يكن قادرًا على استخدام التملق كوسيلة للخداع، فكتب مكيافيللي نفسه قائلًا: «يعجز الرجال عن السيطرة على طبائعهم.»

وكان الدرس الذي تعلمه مكيافيللي من خلافه مع كابوني هو أنه — كما كتب له بيرو سودريني كي يسترضيه: «في هذا العالم لا تُقابل الأعمال العظيمة والرائعة إلا بنكران الجميل.» كتب سودريني هذه الكلمات في نهاية فبراير/شباط، لكن في غضون أشهر قلائل، بدأ حصار بيزا يؤتي ثماره المدمرة. وقد أُجبر مكيافيللي على تقليل عدد رجال مليشيته إلى الثلث، إذ حان موسم الحصاد وعلى الكثير من رجاله أن يضعوا أسلحتهم جانبًا ويستهلوا العمل في الحقول، بيد أن المحاصيل لم تثمر إلا أقل القليل من الحبوب في أثناء الحصار، وبحلول الربيع كان الكثيرون في بيزا يموتون جوعًا. وأخيرًا أذعن أهل بيزا لمصيرهم الذي لا مفر منه وأرسلوا وفدًا إلى فلورنسا للتفاوض حيث وقعوا معاهدة استسلام في مطلع يونيو/حزيران واضعين حدًّا للحرب التي دامت قرابة الخمسين عامًا.

وحضر مكيافيللي الاحتفال الذي أُقيم في قصر مجلس السيادة حيث وُضع اسمه إلى جانب اسم أدرياني المستشار الأول، وبينما كانت تُوقع الوثيقة، دخلت يمامة عبر النافذة وحلقت فوق رءوس أعضاء مجلس العشر، وعندئذ ارتطمت بالحائط ثم وقعت ميتة عند أقدام الأعضاء العشر، بيد أن ظهورها ظل ينظر إليه باعتباره فألًا حسنًا، قال أحد المعاصرين لمكيافيللي: «رغم أن الكثيرين قالوا إن هذا الموقف

ليس فيه إعجاز، لكنه أمرعظيم أن تأتي اليمامة إلى العشر الذين وقعوا لتوهم الاتفاقية ... وقال رجال الدين إنها جاءت من عند اللّه.»

وسواء جاءت هذه اليمامة من عند اللّه أو من أي مكان آخر، فمثل هذه الفُئول كانت تمثل الكثير بالنسبة للعديد من الفلورنسيين، واليمامة بوجه خاص تعتبر بشيرًا مثيرًا للذكريات إذ تنبأت يمامة صناعية ذات مرة، بحظ فلورنسا في أحد الشعائر السنوية. ففي كل عيد من «أعياد القيامة»، تُطلق يمامة تعمل ميكانيكيًّا لتطير بمساعدة سلك ممدود فوق جماعة المصلين في كاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري، ويكون هناك لهب شعلة موقدة من قطع حجرية صغيرة مجلوبة من كنيسة القيامة بالقدس، ويفترض أن هذه الأداة غريبة الشكل المجنحة تشعل ألعابًا نارية في الطرف الآخر من السلك، فإذا قامت اليمامة بأداء عملها الفذ وفجرت الألعاب النارية، عندئذ سينعم الفلورنسيون بموسم حصاد وفير، أما إذا أخفقت في رحلتها فثمة أوقات عصيبة في انتظارهم.

وكانت تنتشر مثل هذه الفُئول في كل أنحاء فلورنسا ولا سيما في أوقات الأزمات. لقد كان يُعتقد بشدة أن موت لورنزو العظيم قد جرى التنبؤ به من قبل حدوثه، إذ ضربت صاعقة نارية القبة الضخمة التي أنشأها برونيلستشي Brunelleschi، مما نجم عنه سقوط قطع من الرخام كالشلال إلى الشارع، وفي نفس هذا اليوم، الخامس من أبريل/نيسان عام ١٤٩٢م تقاتل الأسدان المحتجزان في حظيرة خلف قصر مجلس السيادة — اللذان كانا يرمزان إلى حرية الجمهورية، وكان سلوكهما يخضع للفحص الدقيق باعتبارهما مفتاحًا لمعرفة أقدار المدينة — بضراوة مما أسفر عن مصرعهما، فصرخ لورنزو العظيم فور علمه بهذه الأحداث قائلًا: «ها قد انتهى عمري!» وبالفعل توفي بعدها بثلاثة أيام. وبالمثل سبق غزو إيطاليا عام ١٤٩٤م على يد

تشارلز الثامن إنذارات أطلق عليها فرانشيسكو جوتشيارديني، أحد أصدقاء مكيافيللي، «علامات سماوية»، حيث ظهرت ثلاث شموس في سماء بوليا Puglia، وتماثيل وصور مقدسة أخرى «تتصبب عرقًا على الملأ»، وبدأت النساء في ولادة مسوخ بشرية. وذكر جوتشيارديني أن الناس لم تُدهش إلا لعدم ظهور مذنبات في السماء — «إنه بحق لرسول صدوق يخبر بالتحولات التي ستجري في الممالك والدول.»

ترى ماذا كان موقف مكيافيللي تجاه هذه البشائر من صواعق ومذنبات؟ لقد كان هذا المراقب الساخر للطبيعة البشرية مُعدًّا إعدادًا تامًّا، شأنه شأن الكثيرين غيره، للاعتقاد بإمكانية التنبأ بالمستقبل باستخدام وسائل التنجيم، وطالما تداخلت ملاحظته الجلية للأحداث التاريخية مع تصورات ساذجة. كتب مكيافيللي بعد مضي عدة سنوات قائلًا: «لم يقع أي من الأحداث الهامة على الإطلاق في مدينة أو منطقة ما إلا وقد جرى التنبؤ به سواء بواسطة عرافين أو رؤى أو آيات وعجائب أو غيرها من العلامات السماوية.» لقد اعترف بعدم فهمه لماهية حدوث مثل هذه الرؤى، لكنه رجح قائلًا: «لعل الهواء المحيط بنا مليء بالأشباح المخبرة.» وتقوم هذه الأشباح، شفقة بالإنسان، بالمساعدة عن طريق تنبيه الإنسان بحلول الكوارث ويأتي هذا التحذير في صورة صواعق أو مذنبات أو ميلاد أطفال ممسوخين.[١]

وبناء على هذا الاعتقاد بالأشباح المخبرة والعلامات السماوية، حدث في يونيو/حزيران عام ١٥٠٩م أن مكيافيللي استشار أحد المنجمين كي يعرف منه أفضل لحظة لدخول المفوضين الفلورنسيين إلى بيزا، وكان هذا المنجم الذي يُدعى لاتانزيو تيدالدي Lattanzio Tedaldi طالب علم وصديقًا لمارسيليو فيتشينو Marsilio Ficino، وقد كان متخصصًا في تفسير ظهور المذنبات وإجراء الحسابات الفلكية، وجاءت إجابته دقيقة للغاية، فبعد استشارة السماء أخبر لاتانزيو مكيافيللي أن

المفوضين: «ينبغي ألا يدخلوا المدينة مهما كانت الظروف قبل الساعة السادسة والنصف صباحًا، لكن إذا كان ممكنا فليدخلوا بعد الساعة السابعة بوقت ضئيل للغاية، فستكون ساعة مبشرة لنا بالنجاح.» ونقل مكيافيللي هذه المعلومات ودخل المفوضون بيزا في الساعة المحددة آنفًا في الثامن من يونيو/حزيران بصحبة مكيافيللي — المستشار الثاني — ونخبة منتقاة من ميلشيته متقدمين جنبًا إلى جنب. وبعد مرور ساعات قلائل، وصل إلى فلورنسا رجل يمتطي جوادًا حاملًا فرع زيتون، فأُقيمت الاحتفالات الصاخبة، وأُغلقت جميع المتاجر وأُطلقت الألعاب النارية، وقُرع الجرس الذي يبلغ وزنه سبعة عشر ألف رطل في برج قصر مجلس السيادة الذي يُسمى «جرس الأسد»، والذي كان يدوِّي بشدة فوق الرءوس، وكان الابتهاج يعم كل الأرجاء حتى إن بعض الأديرة اشترت بارودًا وأطلقت الأسهم النارية. وكما عقب أغسطينو فيزبوتشي «كاد الناس أن يفقدوا صوابهم من شدة البهجة والسرور.»

وإذا كانت «عمليات مكيافيللي العظيمة والبارعة» قد قوبلت بالجحود والنكران فيما مضى منذ أشهر قلائل، فإن استسلام بيزا قد جعل الامتنان والعرفان ينهال عليه كوابل من المطر. فقد حصل على قدر كبير من الثناء على جهوده المبذولة مع المليشيا، كما كتب له مفوض عسكري فلورنسي يُدعى فيلبو كازافيستشيا Filippo Casavecchia أن جهوده كانت السبب في النصر «بدرجة كبيرة جدًّا»، وعندئذ قدم كازافيستشيا الدعوة إلى مكيافيللي بالحضور إلى ضيعته في الريف قائلًا: «لقد أحضرت لك بحرًا من سمك السلمون وخمرًا لم تذق مثلها قط.» بل حتى ألامانو سالفياتي خفف من حدة رأيه بشأنه، إذ كتب إلى مكيافيللي خطابًا وديًّا يستهله بقوله: «عزيزي نيقولو»، وقدم تحياته المليئة بالرقة والمحبة. لقد كانت أكبر لحظات مكيافيللي انتصارًا. ومع

ذلك ما زالت إلى الآن تظهر العلامات التحذيرية في السماء لهؤلاء الذين اختاروا أن يرونها.

الفصل الحادي عشر

كان عام ١٥٠٩م بداية مرحلة مظلمة في تاريخ إيطاليا كما ورد عن فرانشيسكو جوتشيارديني، إذ كتب جوتشيارديني قائلًا: «وحدث بعد ذلك أن توالت على كل أنحاء إيطاليا وعلى الإيطاليين أنفسهم أشنع الحوادث وسلاسل غير منتهية من القتل والنهب وخراب العديد من المدن، وأُطلقت القبضة العسكرية على نحو مبالغ فيه إذ لم يكن أذى الفرق العسكرية لأهلهم يقل ضراوة عن أذاهم لأعدائهم، ناهيك عن الانتهاكات الدينية حيث لم ترُاع حرمة الأماكن المقدسة التي ديست بالأقدام.» وبالطبع كان يعرف جورتشيارديني أين يشير بإصبع الاتهام: «فقد نبعت هذه الاضطرابات من الأفعال بالغة التهور ومن عجرفة مجلس شيوخ البندقية.»

وفي عام ١٥٠٩م، جعل البنادقة من أنفسهم أعداء في غاية القوة سواء داخل إيطاليا أو خارجها، فقد انتهزوا فرصة الخراب الذي حل بممتلكات سيزار بورجيا عام ١٥٠٣م واستولوا على عشرات الحصون في رومانيا ورافينا وفاينتسا وريمني، التي كان البابا يوليوس الثاني يعتبرها جميعًا حقًّا شرعيًّا للكرسي البابوي. ثم استُردت الحصون، بيد أن أهل البندقية رفضوا رد الغنائم. وعندما جاء مبعوث البندقية إلى يوليوس الثاني، نظر إليه يوليوس قائلًا: «لن

يهنأ لي بال حتى أجعلكم مرة أخرى صيادين معدمين كما كنتم من قبل.»[١]

وسريعًا سنحت الفرصة لإذلال أهل البندقية بعد ظفرهم بالنصر على قوات ماكسيميليان عام ١٥٠٨م، فرغم توقيعه معاهدة هدنة مع البندقية شرع ماكسيميليان في حبك مؤامرة ضد جمهورية البندقية مع لويس الثاني عشر ملك فرنسا الذي أراد أن يسترد لدوقية ميلانو بعض المدن مثل كريمونا وبيرغامو. وفي العاشر من ديسمبر/كانون الأول اجتمع ممثلون عن كل من: ماكسيميليان، والملك لويس الثاني عشر، والبابا، والملك فرديناند ملك أراجون، وشكلوا عصبة عرفت باسم «عصبة كانبراي» League of Cambrai، كان من المقرر أن تبدأ الحرب على البندقية في فصل الربيع طبقًا لما ورد في الشروط السرية لهذه الاتفاقية، وأظهر الفرنسيون التزامًا جديرًا بالثناء إذ أرسلوا ثلاثين ألف جندي إلى إيطاليا في منتصف أبريل/نيسان، وبعد مرور ما ينيف قليلًا على أسبوعين وبالتحديد في الرابع عشر من مايو/أيار، أوقعوا بقوات البندقية هزيمة ساحقة عند قرية أجنادلو Agnadello التي تقع بين ميلانو وبيرغامو، وعلى الفور وقعت المدن المذكورة تحديدًا في اتفاق «عصبة كانبراي» في أيدي أعداء البندقية، وبين ليلة وضحاها فقدت البندقية سيطرتها على الأراضي الإيطالية الرئيسية، وبالفعل عاد أهل البندقية مرة أخرى إلى أصلهم «صيادين معدمين».

ولم ينضم الفلورنسيون إلى عصبة كانبراي، بل نهجوا نفس النهج المعتاد لدبلوماسية خزينة النقد، إذ وافقوا على دفع مبلغ خمسين ألف دوكة على دفعتين للملك لويس الثاني عشر ومبلغ أربعين ألف دوكة على أربع دفعات لماكسيميليان. وبُعث مكيافيللي في نوفمبر/تشرين الثاني عام ١٥٠٩م إلى مدينة مانتوا التي تبعد عن فلورنسا تسعين ميلًا نحو الشمال، كي يدفع أحد الأقساط إلى ماكسيميليان، ويراقب أيضًا

القوى العسكرية للإمبراطور ويستشف نواياه وذلك بناء على تعليمات من مجلس العشر. وبعد بضعة أسابيع انتقل مكيافيلي إلى فيرونا كي يجمع المزيد من المعلومات، وكان ماكسيميليان قد أحكم سيطرته عليها بعد أن أكد أحقيته بوراثتها، لكن مكيافيلي لم يتمكن من تحقيق هدفه، إذ كتب مكيافيلي إلى لويدجي جورتشيارديني Luigi Guicciardini، الأخ الأكبر لفرانشيسكو وعضو إحدى العائلات الفلورنسية النبيلة، قائلًا: «أنا هنا في حيص بيص، لأننا لا نعرف شيئًا البتة، ولكي أظهر علامات الحياة، ما زلت أحاول ابتكار رسائل لاذعة حتى أرسلها لمجلس العشر.»

وقد كانت مثل هذه العلامات غاية في الضرورة. أخيرًا حذر بياجيو مكيافيلي قائلًا: «إن لم تكن مواظبًا على إرسال تقاريرك من قبل، فأنت في حاجة لأن تفعل هذا الآن لكي تغلق أفواه أصحاب المقاعد.» (استخدم بياجيو في خطابه كلمة Pancacce المشتقة من الكلمة الإيطالية Panca التي تعني «منصبًا» أو «أريكة») إشارة إلى نقاد مكيافيلي المتفلسفين، وهم مجموعة الشرفاء وغيرهم من الساخطين، ويُشير المصطلح بلا ريب إلى ممثلي المناطق والصناعات الذين يجلسون على «مقاعدهم» في قصر مجلس السيادة ويتحدثون بالنيابة عن المقاعد التي يجلسون عليها، ومع ذلك فمن المحتمل أن هذه الكلمة تشير أيضًا إلى قطاع أعرض من الناس ممن تتعالى همهماتهم في الساحات الفلورنسية. فالعديد من التجار الأثرياء صنعوا مقاعد خشبية ووضعوها أمام متاجرهم المواجهة للساحات، ومن ثم يمكنهم الجلوس في الهواء الطلق بعد غلق المتاجر يتسامرون ويتحاورن وينهمكون في القيل والقال. ولقد بدا أن بياجيو أراد أن ينوه باستخدام كلمة pancacce إلى أن تصرفات مكيافيلي باتت موضوع هذه المناقشات الارتجالية، فعلى الرغم من نجاح المليشيا، بدا أن هؤلاء النقاد عاقدو العزم أكثر من أي وقت مضى على الإطاحة

بدمية سودريني، ففي ديسمبر/كانون الأول أخبر بياجيو مكيافيللي قائلًا: «إن أعداءك كثيرون ولن يردعهم شيء.» إذ إنهم انتهزوا فرصة غياب مكيافيللي عن فلورنسا وشنوا حملة مجهولة المصدر للتشهير به.

وأُطلقت الطلقة الأولى في هذه الحملة خلال الأسبوع الذي سبق عيد الميلاد المجيد عندما مثُل رجل يرتدي قناعًا أمام الموثق العام ليقدم بلاغًا بأن مكيافيللي لا يصلح لمنصبه بسبب — وهنا شاب خطاب بياجيو الغموض بطريقة مثيرة للإزعاج بسبب توتره أثناء روايته للحبكة — أمور متعلقة بوالده الراحل. وقد تكون الانتهاكات التي اقترفها برناردو غير شرعية، رغم أنه يُرجح أنها ترتبط بالأمور المالية، فعلى سبيل المثال مات برناردو وهو مدين ببعض الضرائب للحكومة، ومن ثم تحمِل أهلية أبنائه لشغل المناصب العامة الكثير من علامات الاستفهام. وزعم بياجيو أن القانون يقف في صف مكيافيللي، بيد أنه قال إن المسألة «تشعبت في ألف طريق، وقد أضاف عليها مناوئوك تأويلات شريرة».

وكانت ورطة مكيافيللي هي موضوع الساعة في فلورنسا في الأسابيع الأخيرة من عام ١٥٠٩م، فقد كانت تعد بمثابة نوع من الفضائح السياسية حتى إن بياجيو ادعى أنها كانت موضوع النقاش «في كل مكان حتى في بيوت الدعارة»، وحثه بياجيو على اتخاذ الحيطة البالغة، ذاكرًا أن «طبيعة العصر» وحقيقة أن كثيرًا من الناس «هموا بالثرثرة بهذه المسألة واللغو بها في كل مكان» لهو أمر يتطلب «قدرًا كبيرًا من العون والحرص الشديد». ومرة أخرى حانت الفرصة لمكيافيللي كي يعرب بحزن عن امتعاضه، إذ تُقابل جهوده التي لا تكل بالنكران والجحود، وكذلك سنحت الفرصة لبياجيو كي يعرب عن استيائه من صديقه الذي يعجز بطبيعته عن إرضاء أعدائه.

وهكذا، بينما كاد حَبك المؤامرات ضده أن يصل إلى ذروته، تمكن مكيافيللي من أن يسرق بعض لحظات الفسق في فيرونا. كتب مكيافيللي إلى لويدجي جوتشيارديني عن معضلته الفلسفية المحبذة وهي «كيف أن إلهة الحظ تمنح البشر نتائج مختلفة رغم تشابه أعمالهم.» لكنه لم يسهب هذه المرة في خطابه في الوسائل والعواقب السياسية كما هو معروف عنه وإنما تناول مسألة الإشباع والنفور الجنسي.

كان جوتشيارديني قد كتب خطابًا إلى مكيافيللي الذي أعاد صياغته على نحو منمق إذ أشار فيه إلى مسألة كيف أن المرء «يرغب في مجامعة زوجته مرة ثانية وهو لم يكد يفرغ من مجامعتها»، وبعد ذلك استرسل مكيافيللي شارحًا لجوتشيارديني كيف أن الظروف المتشابهة أفضت في حالته إلى نتيجة مخالفة تمامًا لما أخبره به جوتشيارديني. وكانت بقية الخطاب عبارة عن رواية ماجنة لا يمكن تصديقها بسهولة عن المرأة المختصة بغسل ملابسه في فيرونا — وهي عاهرة عجوز — التي استدرجته إلى منزلها بحجة أن تريه بعض القمصان الأنيقة التي قد يرغب في شرائها، لكنها بدلًا من أن تقدم له القمصان قدمت له بضاعة مختلفة، إذ عرضت عليه امرأة «منكمشة على نفسها في أحد الأركان، محاولة التظاهر بالاحتشام عن طريق تغطية نصف رأسها ووجهها بمنشفة.» تركتنا العجوز وأصبحت بمفردي في الحجرة المظلمة مع المرأة الغامضة وهو الأمر الذي «أثارني جنسيًّا بدرجة هائلة، فضاجعتها». وبعد أن انتهيت من مضاجعتها، وددت أن ألقي نظرة على البضاعة فأخذت قطعة خشب مشتعلة من المدفأة التي في الحجرة وأشعلت بها المصباح الذي كان موجودًا فوق المدفأة.»

وبالطبع اكتشف جوتشيارديني الجزء الهزلي في هذه المزحة الفاحشة قبل أن تظهر في الخطاب الذي هذب مكيافيللي عباراته تهذيبًا رفيعًا، والذي كتبه مستخدمًا طريقة الكتابة التي كان يستخدمها الإنسانيون. فكما هو متوقع كشف المصباح عن امرأة شديدة القبح؛

فهي تعاني من بعض الصلع وذات شعر أبيض يقطن فيه القمل والحشرات، وذات عينين عمشاوين وفم معوج يسيل منه اللعاب وبلا أسنان، وكتب مكيافيللي «وهي تنضح بهذه الرائحة النتنة كلما تتنفس، حتى إن عيني وأنفي — وهما أكثر الحواس التي يدخل عن طريقها أشهى الأشياء وألذها — شعرا بهذه الرائحة النتنة تهجم عليهما، واهتاجت معدتي للغاية حتى إنها عجزت عن تحمل هذا الهجوم الوحشي.» وانتهت قصة مكيافيللي بتقيئه فوق هذه المخلوقة التعسة قبل أن يولي الأدبار.

وأحد الأمور التي يمكن أن تسترعي انتباهنا في هذه المزحة البذيئة هي أن «مكيا» كان يمتع أصدقاءه ويسليهم بحكاياته البذيئة وبظرفه المنحط. وتعزى هذه القصة إلى المكتبات العامة أو إلى متاجر بيع الكتب مثلما تعزى إلى بيوت الدعارة، فقد سبق تناولها في الروايات الكوميدية التي تدور حول النساء الداعرات، والقوادات العجائز، والأجساد الدميمة، والخدع القاسية التي كانت تسود أدب الهجاء والسخرية في عصر النهضة، بالإضافة إلى المائة قصة قصيرة المعروفة باسم «ديكاميرون» Decameron للمؤلف جيوفاني بوكاتشيو Giovanni Boccaccio. وتعد أيضًا جزءًا من تراث طويل للأدب الداعي لكراهية النساء الذي يمتد منذ عصر القصائد الست عشرة الساخرة التي كتبها الشاعر جوفينال Juvenal والتي حملت عنوان «الأهاجي» Satires مرورًا بكتاب بوكاتشيو المعنون «كورباتشيو» Corbaccio وغيرهما، ووصولًا إلى أعمال مثل تلك التي لجوناثان سويفت Jonathan Swift في قصيدته «غرفة ملابس السيدة» The Lady's Dressing Room وهي قصيدة تحكي كيف أن الروائح النتنة وغيرها من الأشياء المثيرة للاشمئزاز في جسد المرأة المتقشفة تعمل على قتل الرغبة الجنسية عند الرجل. وبغض الطرف عن فحش قصة مكيافيللي وإثارتها للسخط، فإنه يتسنى للمرء أن

يرى من خلالها قريحته المبدعة التي تمكنه من أن يرتجل الأفكار التي سيحولها — في زمان سيحظي فيه بقدر هائل من وقت الفراغ — إلى أعمال أدبية ذات تنوع خالد وجدير بالثناء.

وأنهى مكيافيلي خطابه إلى جوتشيارديني بملحوظة غريبة، أخبر فيها صديقه أنه بمجرد عودته إلى فلورنسا يأمل أن يقوم بادخار بعض المال واستثماره في مشروع صغير، كتب مكيافيلي قائلًا: «لقد فكرت في إقامة مشروع لتربية الدواجن.» وبالطبع بعثت صورة مكيافيلي وهو يرعى أسرابًا من الدواجن في نفس جوتشيارديني نفس القدر من البهجة التي بعثته قصة سيدة فيرونا القبيحة.

وحدث أن عصبة كانبراي انحلت في أوائل عام ١٥١٠م، إذ أقام يوليوس الثاني السلام مع البندقية بسبب قلقه من ازدياد الهيمنة الفرنسية على إيطاليا، وفي مارس/آذار أبرم معاهدة لمدة خمس سنوات مع الأقاليم السويسرية التي وافقت على تزويده بستة آلاف جندي لحماية مصالح الكرسي البابوي. وبعد أن تثبت «البابا المحارب» على كرسيه، اتخذ للمعركة شعارًا ملهبًا للحماس ألا وهو: «لنقاتل البرابرة»، وكان يقصد بالبرابرة أي فرد غير إيطالي، أو بالأحرى أي فرنسي، وبحلول الربيع كان جليًّا للعيان أن ثمة حملة عسكرية ضخمة — تضم البنادقة والسويسريين والكنيسة — سوف تهاجم لويس الثاني عشر عما قريب.

هذه الأعمال العدائية وشيكة الحدوث حصرت الفلورنسيين كالمعتاد في موقف يُرثى له، فقد كانت سياسات سودريني وآراؤه مناصرة للفرنسيين، ومع ذلك لم يكن سودريني، حامل لواء العدالة، راغبًا في أن يجعل من البابا عدوًّا له، وعليه قرر الفلورنسيون أن ينتهجوا نهجهم المعتاد في مثل هذه المواقف، إذ قاموا بإرسال مكيافيليا — آملين في تبرير موقفهم المملوء بالمراوغة — في يونيو/حزيران إلى بلاط الملك

لويس الثاني عشر، وحث الكردينال سودريني مكيافيللي «أن يبذل قصارى جهده كي يجعل هذا الأمير [لويس الثاني عشر] في وئام شديد مع قداسة البابا.» لقد كانت هذه المهمة جسيمة للغاية، بل تبدو مستحيلة.

وكان الوقت مناسبًا لمكيافيللي كي يترك المدينة. وكان مكيافيللي منذ أن عاد من فيرونا في أوائل يناير/تشرين الثاني منهمكًا في تجنيد المليشيا حول مدينة سان ميناتو، المدينة التي يُزرع فيها نبات الكمأة، والتي تقع في منتصف الطريق بين فلورنسا وبيزا، إلى الشمال الأقصى من منطقة فالدينيفولي. بيد أن الحملة الخبيثة ضده واصلت زحفها، ففي مايو/أيار تلقت لجنة «الثمانية للمراقبة» بلاغًا ضده من مجهول، وأغلب الظن أن هذا البلاغ قد وُضع في أحد الصناديق المعروفة باسم «الطبول» tamburi أو «ثقوب الحقيقة» buchi della verità التي كانت توضع في مواقع ملائمة على طول المدينة، وكان أحدها مثبت في الجدار الخارجي للجهة الجنوبية من قصر مجلس السيادة، وكان ليوناردو دا فينشي صديق مكيافيللي قد وقع ضحية لأحد هذه البلاغات التي تأتي من مصدر مجهول، والتي كانت تسمى تامبوراتسيوني tamburazioni إذ اتُّهم عام ١٤٧٦م بمضاجعة صبي يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، وكان الاتهام الموجه إلى مكيافيللي يدخل في نفس الإطار. فقد وُجد في أحد «ثقوب الحقيقة» هذه بلاغ يقول: «السادة أعضاء مجلس الثمانية، نحيطكم علمًا بموجب هذه الوثيقة أن نيقولو، ابن ليوناردو مكيافيللي، قد ضاجع لوكرتيا المعروفة باسم لا ركيا La Riccia في مؤخرتها، ويمكنكم التحقق من ذلك إذا قمتم باستجوابها.»

وكانت ممارسة البغاء مشروعة في فلورنسا — فبيت الدعارة المحلي كان يوجد على بعد مرمى حجر من الكاتدرائية — بيد أن ممارسة

اللواط لم تكن مشروعة. وكانت فلورنسا تشتهر بشدة بهذه «الرذيلة المقيتة» كما أطلق عليها سافونارولا، إلى درجة أن الألمان استخدموا كلمة «فلورنزر Florenzer» في لغتهم العامية للإشارة إلي الشخص اللوطي. وأُنشأ في الفترة ما بين عامي ١٤٣٢ و١٥٠٢م هيئة خاصة لتمييز اللوطيين ومحاكمتهم (إذ كانت أغلب هذه الجرائم تُقترف ضد الفتيان أكثر من النساء)، وكان يُطلق على هذه الهيئة «ضباط الليل والصائنون للأخلاق في الأديرة» وقد قامت بمحاكمة ما ينيف على عشرة آلاف رجل في غضون السبعين عامًا التي كانت قيد العمل خلالها. وقد تنوعت العقوبات تبعًا لسجل المذنب، وكانت العقوبة السائدة هي الغرامة المالية، لكن عندما كان سافونارولا في ذروة قوته كان يُعاقب المذنب لأول مرة على الملأ alla gogna حيث يُوثق في السور الخارجي لسجن بارجيلو، مقيد اليدين والرجلين، وتوضع قبعته على الأرض لكي يستعطي المال (ويتلقى التوبيخ) من المارة، وتوضع لوحة كبيرة حول رقبته تصف جريمته. ويُشد المذنب للمرة الثانية إلى عمود، أما المذنب للمرة الثالثة فكان يعدم حرقًا بعد شدِّه إلى خازوق — ومع ذلك لم يُحكم بالإعدام إلا على فرد لوطي واحد خلال سنوات هيمنة سافونارولا.[٢]

وسواء أكان مكيافيللي مُدانًا باللوطية أم لا، فهو حتمًا كان يعرف لا ركيا التي يعني اسمها «ذات الشعر المجعد»، ومن المُرجح أن تكون هي نفس العاهرة التي كانت بالقرب من جسر ألا جراتزي التي كانت تنتظره «فاتحة فرجها» بعد رحلته الأولى إلى فرنسا. على أية حال، من المحتمل أن مكيافيللي كان على اتصال منتظم بها لفترة عقد آخر من الزمان على الأقل، بل وكانت علاقتهما شديدة الحميمية إلى درجة توحي بأنها هي نفسها لم يكن لها دخل بهذا الاتهام. ولم تكن هذه البلاغات التي تأتي من مصدر مجهول سوى محاولة أخرى من أعداء

مكيافيللي لتشويه سمعته ومن ثم الحط من قدره في المستشارية. ولم يُسفر هذا الاتهام عن شيء، بيد أن إحدى العواقب التي خلفتها هذه الفضيحة هي أنها جلبت المزيد من الثرثرة «إذ كانت موضوع الساعة في كل مكان». ويخالج المرء أيضًا الشك في أن رحلة مكيافيللي القصيرة إلى بيت الدعارة لم تكن هي عين ما يدور في ذهن بياجيو عندما كان ينصح صديقه — الذي ضاق عليه الخناق — بأنه يجب عليه الحذر الشديد كي يقاوم أعداءه.

وارتحل المستشار الثاني المبتلي بالفضائح إلى فرنسا في نهاية يونيو/حزيران حيث وصل ليون في السابع من يوليو/تموز. ورغم أن روانو المرعب كان قد مات قبل ستة أسابيع، فإن المفاوضات لم تكن أقل وطأة وصعوبة من ذي قبل. واستقبل لويس الثاني عشر مكيافيللي فور وصوله كي يعرف موقف الفلورنسيين إن قامت جيوش البابا بغزو الأراضي الخاضعة للسلطة الفرنسية في إيطاليا، وهو ما يبدو حتمي الحدوث، وقدم مكيافيللي الإجابات المنمقة المعتادة التي تتفادى إعطاء رد صريح، بيد أن التقارير التي كان يبعث بها إلى مجلس العشر كانت توضح تمامًا خطورة الموقف الذي بموجبه عليهم أن يعلنوا إما ولاءهم للبابا أو للملك، وصرح مكيافيللي أن الحرب بين هاتين القوتين من منظور فلورنسا ستكون «أكبر فاجعة مروعة ممكن أن تحدث على الاطلاق.»

في النهاية رجع مكيافيللي إلى فلورنسا في أكتوبر/تشرين الأول، ولكنه أعرب أولًا عن ازدرائه لأعدائه واحتقاره لترويجهم الفضائح بظهوره في صحبة إحدى المحظيات الفرنسيات التي تُدعى جين Jeanne. ولم يكن أحد ينتظر مكيافيللي بفلورنسا سوى العاهرة ذات الشعر المجعد، إذ كتب روبرت أتشياجوالي Roberto Acciaiuoli،

السفير الفلورنسي لدى فرنسا، بظرفه المعهود: «بمجرد وصولك هناك، ربما سترى لا ركيا مرة أخرى!» ولم يكن مكيافيللي كعهده يكترث كثيرًا لآراء أعدائه.

الفصل الثاني عشر

بدأ عام ١٥١١م بهطول شديد للثلوج على كل أنحاء إيطاليا، وفي فلورنسا — المدينة التي تزخر بالكثير من الفنانين — نُحت آنذاك تمثال ضخم للأسد الجليدي الأسطوري على مقربة من برج أجراس كنيسة سانتا ماريا ديلا فيوري، بينما قام النحاتون في زاوية الشارع الذي تسكنه عائلة باتزي Canto de' Pazzi بنحت تماثيل عارية غاية في الروعة مستخدمين كتلًا من الثلج. وتواكبًا مع الروح العسكرية التي كانت تسود ذلك العصر، نحت الفنانون القلاع المنيعة من الثلوج، وارتفعت أشرعة السفن الشراعية الثلجية في الشوارع في كل أنحاء المدينة.[١]

أما مكيافيللي فكان يبني قلاعه الخاصة، فقد انخرط حديثًا في فنون وعلوم التحصين العسكري ربما متأثرًا بصديقه ليوناردو. لقد عرف أنه لا يمكن الدفاع عن حرية فلورنسا إلا برماح الميليشيا وبنادقها، وبالمثل يجب وجود عدد كاف من المعاقل في الأراضي الفلورنسية. ويبدو أنه نجح في أن يصنع من نفسه خبيرًا في إنشاء المتاريس وأبراج المعاقل سواء الموجودة بداخلها أو الناتئة فوق أسوارها. وفي يناير/كانون الثاني شق طريقه عبر الجليد إلى بيزا بمعية المهندس المعماري جيوليانو دا سانجالو Giuliano da Sangallo، الأخ الأكبر لأنطونيو الذي أقام

سدًّا خشبيًّا دافعت عنه الميليشيات دفاعًا مستميتًا قبل عامين. حظي جيوليانو البالغ من العمر سبعة وستين عامًا بخبرة كبيرة في مجال تشيد الحصون وإصلاحها في توسكانيا وأخيرًا في روما حيث شيد هو وأخوه برجًا ناتئًا في قلعة سانت أنجلو، ومن المفترض الآن أن يشرع هو ومكيافيللي في معاينة قلعة بيزا التي تسببت في إخفاق العديد من الهجمات الفلورنسية، لضمان أنها في حالة جيدة في حال ما أفضت الحرب بين يوليوس الثاني ولويس الثاني عشر إلى اندلاع الحرب في توسكانيا، ومن هناك انتقلا معًا، وبنفس التعجل، إلى مدينة أريتسو.

اقتضى الأمر أن تتم هذه المعاينات بأسرع ما يمكن، فعلى الرغم من تراكم الجليد ومرض البابا (إذ كان يوليوس قد أُصيب بحمى منذ أكتوبر/تشرين الأول الماضي)، اندلعت الحرب في آخر الأمر بين فرنسا والكنيسة، وبعد أن ترك البابا فراش المرض في بولونيا، صرح في الثاني من يناير/كانون الثاني قائلًا: «لنرى ما إذا كنت أنا الأقوى أم ملك فرنسا!» ثم قاد جيشه بنفسه عبر الثلوج الكثيفة كي يحاصر مدينة ميراندولا التي تقع تحت الحماية الفرنسية. لقد ذُهل مبعوث البندقية الذي شاهد الهجمات الناجحة أيما ذهول فقال: «إن مجيء أحد البابوات ليقود حملة عسكرية في كل هذا الجليد والمناخ البارد بعد خروجه حديثًا من المرض لهو حدث سيُذكر في التاريخ!»

ولم يملْ أهل فلورنسا كثيرًا إلى الإطراء على الأعمال البطولية للبابا، وقد نبع هذا السخط من الحادث الذي سيفضي بهم إلى ارتكاب خطأ فادح مدمر. فقد أميط اللثام منذ شهر وبالتحديد في الثاني والعشرون من ديسمبر/كانون الأول عام ١٥١٠م عن مؤامرة لاغتيال بيرو سودريني في فلورنسا، وكان الشخص الذي ينوي القيام بعملية الاغتيال شاب يُدعى برنزيفالي ديلا ستوفا Prinzivalle della Stufa، وكان هدفه هو اغتيال سودريني — حامل لواء العدالة — في قصر

مجلس السيادة، ومن ثم إخلاء الطريق أمام أبناء لورنزو العظيم حتى يتسنى لهم العودة إلى فلورنسا، وقد تمكن برنزيفالي من الهرب فور اكتشاف المؤامرة، بيد أن أعضاء مجلس العشر ادعوا أنه ذكر اسم يوليوس باعتباره أحد المخططين للمؤامرة، ورغم أن يوليوس أنكر وأعلن طهارة يديه من هذه المؤامرة، لكن لم يقتنع كافة الفلورنسيين بهذا الانكار. اتفق سودريني ومستشاروه عقب ذلك مباشرة على اتباع أحد مبادئ سافونارولا القائل بأن: «الطيور على أشكالها تقع.» بمعنى أنه لما كانت كل من فلورنسا وفرنسا متخذتين من الزنابق شعارًا لهما، فإنه يجب أن تنحاز كل منهما إلى الأخرى، ومن هنا جاء الخطأ الفادح والمدمر.

وكان لويس الثاني عشر قد شرع في استخدام أسلحة كنسية ضد البابا إذ أعلن عدد من الكرادلة المتعاطفين مع الملك — معظمهم من الإسبان أو الفرنسيين، عن عزمهم الدعوة إلى عقد مجلس عام على الرغم من أن القواعد الراسخة للقانون الكنسي تنص على أنه لا يجوز لأحد غير البابا أن يدعو إلى عقد مثل هذا المجلس. ونادرًا ما كان الكرادلة والأساقفة وغيرهم من أصحاب المقامات الرفيعة والخبراء اللاهوتيون يجتمعون في المجالس العامة لتدبر القضايا العقائدية والأمور المتعلقة بالعقاب الكنسي، وكانت القضية المحددة التي رغب هؤلاء الكرادلة في مناقشتها هي خلع البابا من كرسي البابوية في الفاتيكان وإحلال بابا آخر محله يقبل بالتواجد الفرنسي في إيطاليا. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعقد فيها مثل هذا الاجتماع الطارئ، إذ حدث من قبل عام ١٤٠٩م حينما اجتمع في مجلس بيزا اثنان وعشرون كردينالًا وثمانية عشر أسقفًا ووافقوا على خلع كل من البابا غريغوري الثاني عشر Gregory XII وبيندكت الثالث عشر Benedict XIII الإسباني المولد الذي كان يدعي أحقيته بالبابوية وذلك لصالح رئيس أساقفة ميلانو بيترو

فيلارغي Pietro Philarghi الذي ارتقي كرسي البابوية باسم البابا ألكسندر الخامس. وقد عُزل البابا يوحنا الثالث والعشرون — خليفة ألكسندر — عام ١٤١٥م في إحدى جلسات مجلس مدينة كونستانس. وكان لويس الثاني عشر وحلفاؤه يرجون أن يلقى يوليوس نفس المصير.

وفي يناير/كانون الثاني عام ١٥١١م، بينما كان البابا المحارب يشق طريقه وسط الثلوج متوجهًا صوب ميراندولا، دعا لويس مجلس السيادة الفلورنسي أن يسمح بانعقاد المجلس العام في بيزا دون كل الأماكن. وراوغ مجلس السيادة في أول الأمر عندما استولى يوليوس على ميراندولا، بيد أن مؤامرة برينزيفالي وكذلك الانتكاسات العسكرية المتتالية التي لحقت بالبابا (إذ سرعان ما استعاد الفرنسيون ميراندولا ثم استولوا على بولونيا في مايو/أيار) دفعت مجلس السيادة أخيرًا إلى الموافقة. وفي أغسطس/آب، بعد أن عاد يوليوس إلى روما مهزومًا، حدث أن مجلس العشر أصدر وثائق تضمن المرور الآمن للكرادلة الخمس الذين شقوا طريقهم إلى بيزا لحضور المجلس الذي كان من المقرر أن ينعقد في سبتمبر/أيلول.

وبسماح مجلس السيادة بانعقاد المجلس على أرض تقع في نطاق سلطتهم، يكون الفلورنسيون ابتعدوا ضمنًا عن منهج «الطريق الأوسط» المعروف عنهم وجاهروا علنًا بتحالفهم مع لويس مفضلين إياه على البابا. بيد أن الفلورنسيين لم يكادوا يفرغوا من اتخاذ هذا القرار حتى أُصيبوا بانهيار حاد في أعصابهم لأن البابا امتعض من طيش الكرادلة ومما اعتبره خيانة فلورنسا، فبدأ يهدد بوضع الجمهورية تحت الحرمان الكنسي. ويُعد هذا الحرمان بمثابة تعنيف شديد له عواقب وخيمة، إذ كان يحوي في طياته أكثر من مجرد القيمة الرمزية، إذ سيُحرم المواطنون الفلورنسيون من كافة الخدمات الكنسية، فالشخص

المشرف على الموت يُحرم من الأسرار المقدسة للكنيسة، ولا يُسمح بدفن الأموات في أي أرض مقدسة، علاوة على أن الحرمان الكنسي كان يضر بالوضع المالي بنفس قدر ضرره بالوضع الروحي، إذ إن التجار الفلورنسيين كانوا سيفقدون الحق في الحماية القانونية أينما ذهبوا في العالم المسيحي مما يُفضي إلى تجريدهم بموجب القانون من بضائعهم وأموالهم في كل أنحاء أوربا.

وعليه، دفع التهديد المزدوج بالحرب والحرمان الكنسي مجلسَ السيادة إلى التحرك، فعلى الفور أُرسل مكيافيللي كي يعترض سبيل الكرادلة المتمردين ويقنعهم بأن يعودوا أدراجهم، بدأ مكيافللي رحلته في سبتمبر/أيلول كي يعترض الكرادلة، وعقب مسيرة شاقة امتدت يومين قاطعًا ما يقرب من ثمانين ميلًا شمال فلورنسا، لحق بهم عند مدينة بورجو سان دونينو (المعروفة حاليًّا باسم فيدينتسا). وكان يتزعمهم أحد الكرادلة الإسبان يُدعى برناردينو لوبيز دي كارفاجال Bernardino López de Carvajal، يبلغ من العمر ستة وخمسين عامًا، وشرح مكيافيللي له المخاطر التي تتهدد فلورنسا، بيد أن كارفاجال — الذي كان يشتهي صراحةً ارتداء التاج البابوي — تشبث بعقد المجلس نفسه في بيزا في غضون أسبوعين، لكنه لم يَعِدْ إلا بالابتعاد عن الأراضي الفلورنسية. عندئذ اتجه مكيافيللي إلى فرنسا عندما وجد أنه عاجز عن إبعاد المتمردين عن قلب فلورنسا، إذ كلفه مجلس العشر هذه المرة بطرح القضية الفلورنسية أمام لويس الثاني عشر شخصيًّا. وعلى الرغم من ابتلاء مكيافيللي بالفضائح وسبه في البلاغات التي تأتي من مصدر مجهول، فإنه لا يزال الرجل الذي يلجأ إليه مجلسا العشر والسيادة في أحلك الأزمات.

ووصل مكيافيللي إلى البلاط الملكي في مدينة «بلوا» في الثاني والعشرين من سبتمبر/أيلول. وانعكست أهمية بعثته على السرعة التي

كان يقود بها جواده؛ فقد كان يقطع في الأسبوع الأخير من رحلته الطويلة والشاقة ستين ميلًا يوميًّا، إلا أن مكيافيللي لم يحقق في بلوا نجاحًا أكبر من ذلك الذي حققه في بورجو سان دونينو. فقد رفض لويس الثاني عشر إلغاء انعقاد المجلس لكنه وافق على إرجاء جلساته لمدة شهر آخر إلى ما بعد عيد «جميع القديسين». كان ما حققه مكيافيللي ضئيلًا للغاية لكنه على الأقل أعطى الفلورنسيين المزيد من الوقت كي يستعدوا للدفاع عن أراضيهم وأيضًا لكي يتمنوا موت البابا أو يحصلوا على نجدة من السماء.

وسرعان ما تلاشت الآمال المعقودة على احتمالية حدوث بعض التطورات الملطفة للأزمة، فقد تعافى يوليوس تمامًا من مرضه كي يصدر أوامره بوضع فلورنسا تحت الحرمان الكنسي، وذلك بعد وصول مكيافيللي إلى بلوا بيوم واحد. بدأ يوليوس عقب ذلك مباشرة بالتحدث علانية عن قتل بيرو سودريني أو خلعه من منصبه، ثم قام بمنح جيوفاني دي مديتشي Giovanni de' Medici لقب نائب البابا في بيروجيا، ليس لأي غرض سوى إثارة الاضطراب والنزاع، وكان جيوفاني دي مديتشي البالغ من العمر خمسة وثلاثين عامًا — أكبر أبناء لورنزو العظيم الباقين على قيد الحياة — كردينالًا ذا نفوذ، وهو حامل لواء آل مديتشي منذ وفاة بيرو المشئوم عام ١٥٠٣م. كان يوليوس يرغب صراحة في أن يحدث بلبلة عظيمة بين الفلورنسيين ويرسخ أقدام المديتشيين الموجودين في المدينة عن طريق تنصيب المناوئ الكبير لحكومة سودريني على حدود فلورنسا.

وفي مطلع نوفمبر/تشرين الثاني كان مكيافيللي في طريق عودته إلى فلورنسا، قبل انعقاد مجلس بيزا بأيام قلائل، وسرعان ما تبين أن هذا المجلس مجرد زوبعة في فنجان، وعلى الرغم من أن صبية الشوارع كانوا ينادون الكردينال كارجافال بلقب البابا بيرناردينو (ربما من

باب السخرية)، فإن قلة قليلة من أهل بيزا هم الذين أيدوا قضية الكرادلة، بغض الطرف عن أي أمور كنسية. وكان استقبال الكرادلة غاية في العدائية إلى درجة أن مكيافيللي أُرسل بصحبة ثلاثمائة جندي لحمايتهم من العامة، وفي خلال أسبوع طغت العدائية الشديدة لأهل بيزا على فصاحة مكيافيللي وطوافه في محاولة تهدئة الوضع، حتى إن الكردينال كارفاجال وفرقته بدءوا في حزم أمتعتهم استعدادًا للرحيل إلى ضواحي ميلانو الحليفة.

بيد أن الدمار حل بفلورنسا فعلًا، فقد علم مكيافيللي في أثناء عودته من بلوا في نوفمبر/تشرين الثاني أن يوليوس وقع معاهدة أُطلق عليها اسم «العصبة المقدسة» مع فرديناند ملك أراجون والبنادقة، ورغب البابا في أن يستغل هذا التحالف القوي كي يطرد الفرنسيين من إيطاليا تمامًا. وبينما كان هناك جيش إسباني بقيادة رامون دي كاردونا Ramón de Cardona، نائب جمهورية نابولي، تبدأ مسيرته في التحرك من جهة الشمال من روما؛ أصبح ظاهرًا أن مؤازرة سودريني للويس الثاني عشر ومجلسه المنشق لم تفلح سوى في جلب الآلاف من الإسبان الذين يحملون الرماح إلى توسكانيا. وحيال كل هذا، لم يكن من المستغرب إذن أن يجلس مكيافيللي ليكتب وصيته عندما عاد الي فلورنسا في نهاية نوفمبر/تشرين الثاني.

وإن كان مكيافيللي قد آمن بحق أن ما من حدث عظيم يحدث قط في مدينة أو إقليم دون أن تسبقه رؤى أو معجزات أو علامات سماوية، فإنه اهتم بشدة، شأنه في ذلك شأن الكثيرين، بالتقارير القادمة من رافينا في الشهور الأولى من عام ١٥١٢م، فقد أُخبر بميلاد عدد من الأطفال المسوخ في المدينة، وكان أشنع هذه المسوخ مخلوقًا، من المفترض أنه من نسل راهبة وراهب، عُرف باسم «مسخ رافينا»، وكان مسخ

رافينا يشبه الرسوم الجصية ليوم الدينونة، وقد كان له — كما ورد في التقارير — قرن في جبهته وأجنحة مثل أجنحة الخفاش وعين في ركبته اليمنى ووحمة على هيئة نسر في رجله اليسرى، وفوق كل هذا، كان مُخنثًا. وكان حاكم رافينا مذعورًا للغاية إلى درجة أنه أرسل تقريرًا يحوي وصفًا مفصلًا إلى يوليوس الثاني، محذرًا إياه من أن مثل هذا الأمر الخارق للطبيعة ينبئ بقدوم أوقات مشئومة.

وسرعان ما تحققت الأشياء المرعبة التي سبق أن أنبأ بها مسخ رافينا، ففي يوم عيد القيامة الموافق الحادي عشر من أبريل/نيسان تشابك جيش مكون من ستة عشر ألف جندي تابعين للعصبة المقدسة تحت قيادة كاردونا مع جيش مكون من ستة وعشرين ألف جندي من القوات الفرنسية في موقعة على بعد ميلين من أبواب رافينا. وكان الجيش الفرنسي تحت قيادة جاستون دي فوا Gaston de Foix، ابن أخت الملك لويس الثاني عشر، وكان فوا البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا قائدًا بارزًا، وقد اشتهر بأنه «صاعقة إيطاليا» ويُعزى ذلك إلى أنه كان يشبه بورجيا في سرعته وصعوبة التنبؤ بأفعاله، ففي فبراير/شباط حرر بولونيا التي كانت خاضعة لحصار كاردونا، ثم اتجه نحو الشمال كي يستولي على مدينة بريتشا من أيدي البنادقة. ثم غير وجهة قواته نحو الجنوب بناء على أوامر لويس الثاني عشر، حيث زحف جنوبًا صوب روما بنية واضحة لغزو المدينة وطرد البابا، وسرعان ما ستنهب قواته المدينة لأنه كان قد وعدهم «بالثراء الفاحش الذي سيعود عليهم من نهب البلاط الشرير» الخاص بالبابا يوليوس. وعندما توقف جيشه للهجوم على رافينا حيث مستودع أسلحة العصبة المقدسة، تقدم كاردونا ليعترض سبيله، فأعقب ذلك أكبر معركة دامية شهدتها الأراضي الإيطالية على الإطلاق، فقد لقي ما ينيف على نصف جيش كاردونا حتفه — ما يقرب من تسعة

آلاف رجل — بفضل مدفعية ألفونسو دا إيست، دوق فيرارا. وكانت الخسائر التي تكبدتها فرنسا أقل، لكنها كانت مُفجعة، فقد فقدت فوا نفسه.

احتفلت فلورنسا بالنصر الفرنسي في رافينا كعادتها بإشعال النيران وبأنوار الزينة وبقرع الأجراس، وبينما فرَّ الجنود الإسبان الناجون من المذبحة، إذ بدا أن الفرنسيين على مشارف الزحف على روما وطرد يوليوس ووضع نهاية للخطر المديتشي الذي يتهدد فلورنسا. بيد أن الأحداث رفضت بتعنت أن تلتزم بمجرى الأمور الذي بدا حتمي الحدوث، فبسبب الحزن الذي ألم بالقوات الفرنسية من جراء فقد فوا، لم يتحركوا للهجوم على روما، وفي آخر الأمر غيروا وجهتهم وساروا صوب الشمال بدلًا من الجنوب، فقد هب ثمانية عشر ألف جندي سويسري لإنقاذ البابا وقاموا بغزو الأراضي الفرنسية في لومبارديا، ونجا يوليوس بأعجوبة على نحو غير متوقع.

ازدادت العلاقات مع البابا توترًا عندما أرغم البابا السفير الفلورنسي في روما، في يونيو/حزيران على كتابة خطاب إلى مجلس السيادة يعرب فيه عن مدى رغبة قداسته في إقالة بيرو سودريني، وإذا رفض سودريني، سيطرده البابا جبرًا بمساعدة جيوش العصبة المقدسة، ولحق بهذا الخطاب سفير من قبل البابا يُدعى لورنزو بوتشي Lorenzo Pucci لينقل إليهم تهديدًا مشابهًا. وطُرح الأمر للنقاش في مجلس الثمانية في العاشر من يوليو/تموز، لكن كما جرت العادة لم يُتخذ أي قرار، وبعد مرور أربعة أيام، ضربت صاعقة نارية برج جرس كنيسة سانتا كروتشي مما أفضى إلى حدوث خسائر فادحة، «وقد اعتبر فألًا سيئًا» كما دوّن أحد الفلورنسيين في مذكراته. وتوالت العواصف الرعدية الشديدة في هياجها طوال هذا الصيف، وفي تشاؤم أكثر سوءًا ضربت صاعقة أخرى بوابة مدينة براتو. ولما كان البرق قد دمر الدرع الذي يحمل

زهرة الزنبقة، رمز فرنسا، ولما كانت بوابة براتو هي مدخل مدينة براتو المحاطة بالأسوار، التي تقع على بعد اثني عشر ميلًا جهة الشمال الغربي؛ فإن المعنى كان واضحًا، ألا وهو أن العقاب سينزل بفلورنسا من جهة براتو بسبب مؤازرتهم للويس الثاني عشر، وفي الحال، حدث أن جيشًا مكونًا من ثمانية آلاف جندي إسباني بدءوا في التحرك جنوبًا عبر توسكانيا صوب براتو، وانصب الأمل الوحيد للمدينة — ولفلورنسا خاصة — على مليشيا مكيافيللي.

الفصل الثالث عشر

ذات مرة، لاحظ أغسطينو فيزبوتشي توق مكيافيللي «للترحال والتجول والطواف»، ولم يُطلق مكيافيللي العنان لهذه المشاعر كي تتمادى بلا رادع قط مثلما فعل في النصف الأول من عام ١٥١٢م، وكان مكيافيللي قد أمضى هذه الشهور منذ عودته من فرنسا متنقلًا جيئة وذهابًا بين فلورنسا والريف، إلى جانب بعض الرحلات العارضة القصيرة إلى بيزا حيث جند حامية عسكرية للقلعة، ولم يكن يجند جنود مشاة فحسب، بل أيضًا فرسانًا، وكان يرجو أن يجمع العديد من وحدات الفرسان خفيفة الحركة التي تضم فرسانًا مسلحين بالرماح والأقواس بل وبالبنادق الصغيرة أيضًا، وكان من المفترض تجميع هؤلاء الرجال من الأراضي الفلورنسية أيضًا وتدريبهم على أيدي قادتهم ونشرهم عند الحاجة. وبحلول فبراير/شباط عام ١٥١٢م كان مكيافيللي قد جمع عددًا كافيًا من الجنود كي يقيم استعراضًا في ساحة قصر مجلس السيادة بمشاركة ثلاثمائة فارس.

وعلى الرغم من الأزمة الوشيكة الحدوث، فإن مكيافيللي قد تلذذ بلا شك بممارسة سلطته وبالأعمال التي أخرجت الإمكانات والمواهب الكامنة بداخله، وقلما كان مكيافيللي يشعر بأنه أكثر سعادة في غير ذلك الوقت الذي كان يعدو فيه بجواده بين الجبال الوعرة كي يستعرض

كتيبة أو يتفحص أحد المعاقل الفلورنسية، لقد كانت تعد مثل هذه المهام بالنسبة له — إلى جانب ثمارها الملموسة — بمثابة مكافأة ترضيه على نحو يفوق بكثير عمله كممثل للسياسات الفلورنسية التي تقوم على المراوغة والمماطلة. وبقدوم فصل الصيف، أينعت ثمرة جهوده المفعمة بالحيوية بين أولئك المزارعين والحجارين والعاملين في مجال تربية دود القز؛ تكوينَ جيش من أحد عشر ألف جندي من المشاة وخمسمائة فارس.

وفي أواخر فصل الصيف كان باديًا للعيان أن حماسة كتائب مكيافيللي ستتعرض لاختبار قاسٍ عما قريب، إذ أصدر ممثلو العصبة المقدسة المجتمعين في مدينة مانتاوا مرسومًا يقر بسقوط نظام الجمهورية الحاكم تحت راية بيرو سودريني وإعادة تنصيب المديتشيين. وبدأ جنود رامون دي كاردونا — الذين دفع لهم جيوليانو دي مديتشي Giuliano de' Medici، الأخ الأصغر للكردينال جيوفاني، أجورهم المتأخرة السداد — الزحف من الجنوب من بولونيا في منتصف أغسطس/آب، وانتشر الهلع في أرجاء الريف، وفي غضون أيام كان يحاصر بوابات فلورنسا موكب من المزارعين والفلاحين طوله ميل، واستدعيت لوحة المادونا من مدينة امبرونيتا لتدعم المدينة معنويًّا، بيد أن مجلس السيادة ألغى هذا سريعًا بحجة أن هذه الفترة تشوبها المخاطر الشديدة فلا يمكن نقل هذا التذكار المقدس النفيس عبر الطرق المعرضة للخطر.

وأُوفد مكيافيللي إلي مدينة فيرنزولا المعروفة بمحاجرها والتي تبعد عشرين ميلًا شمال شرق فلورنسا؛ ليعد قوة مكونة من ألفين من رجال المليشيا؛ ليستخدمها في وضع كمين للجيش المعتدي وهو يهبط من جبال الأبينيني، بيد أن جنود كاردونا سلكوا دربًا غير متوقع وتحاشوا ببراعة كتائب مكيافيللي حتى وصلوا إلى مدينة باربرينو Barberino التي لا

تبعد سوى خمسة عشر ميلًا شمال فلورنسا. وذُهل بيرو سودريني من السرعة التي يتقدم بها كاردونا، وأمر مكيافيللي أن يسرع الخطى إلى فلورنسا ويؤهب المدينة للوقفة الأخيرة، وناشد بياجيو مكيافيللي من المستشارية قائلًا: «افعل كل ما بوسعك.»

غير أن الإسبان لم يزحفوا على فلورنسا مباشرة إذ لم يحصلوا على المئونة الكافية وعجزوا عن إعادة إمداد أنفسهم بفضل التكتيك الفلورنسي الذي عمد إلى إخفاء منافذ بيع المواد الغذائية والأعلاف أو تدميرها، ولم يُترك للجنود في القرى المهجورة سوى كئوس من الخمر المسموم. وتحرك كاردونا صوب الجنوب الغربي إلى وادي بيزنتزو للحصول على المؤن لرجاله الذين أوشكوا على التضور جوعًا، ومن هناك اتجه نحو براتو، حيث كان الشؤم. وفي السادس والعشرين من أغسطس/آب، وصل رسوله إلى أبواب المدينة من الخارج مطالبًا بالاستسلام الفوري والحصول على مؤن من الطعام لجنوده، وأرسل كاردونا في ذات الوقت سفراء إلى فلورنسا مطالبين بالمزيد من المؤن، كما طالب أيضًا باستقالة سودريني وعودة آل مديتشي المنفيين — مع أنه شدد على أنهم سيعودون بوصفهم مواطنين عاديين وليسوا حكامًا.

اعتقد سودريني أنه قادر على خوض التحدي، وظن هو ومستشاروه أن جيش كاردونا الجوعان سوف يُجبر سريعًا على الفرار، علاوة على أن مخزون جنود كاردونا من المدفعية التي تؤهلهم لحصار المدينة كان شحيحًا أيضًا بنفس القدر الذي عليه مخزونهم من الخبز؛ إذ لم يكن بحوزتهم سوى مدفعين نقلوهما بصعوبة جهة الجنوب عبر الطرق الوعرة. وارتفعت معنويات الفلورنسيين انطلاقًا من الثقة الكبيرة في ميليشيا مكيافيللي التي كانت تفوق جيش كاردونا عددًا، فثمة ثمانية آلاف منها محتشدة في فلورنسا وثلاثة آلاف أُخر أُرسلوا إلى مدينة براتو بصحبة مائة من الفرسان في الخامس والعشرين من أغسطس/آب.

وفي السادس والعشرين من أغسطس/آب كتب أحد الفلورنسيين عن الجيش متفائلًا فقال: «لقد كان الجنود المسلحون متلهفين لمواجهة العدو ... وكان تركيزهم ينصب على ذبح أي رجل في جيش العدو.» بيد أن ما صدر عن رجال المليشيا في براتو كان مختلفًا اختلافًا مذهلًا، فقد كشفوا النقاب عن مدينة ضعيفة التحصين تعوزها الأسلحة والمعدات، وأُجبر الجنود ممن يحملون البنادق على تقطيع الرصاص من سطح إحدى الكنائس كي يصنعوا منه الذخيرة الحربية، وحتى آنذاك لم يكن لديهم البارود اللازم لإطلاق هذه القذائف المؤقتة.

وبينما كان جنود كاردونا محتشدين أمام أسوار مدينة براتو، قدم كاردونا لفلورنسا عرضًا ثانيًا وأخيرًا وبموجبه لم يعد من الضروري أن يتخلى سودريني عن منصبه، فكل ما أراده كاردونا هو عودة المدتشيين وتوفير الخبز لجنوده وإعطاؤه ثلاثين ألف دوكة له شخصيًّا — وهي في الواقع رشوة لكي يرحل بجنوده فور امتلاء بطونهم، ويعود المديتشيون إلى قصرهم. ولطالما شعر الفلورنسيون بالسعادة البالغة في الماضي عندما كانوا يستخدمون أموالهم لحماية حريتهم. وقام مستشارو سودريني بحثه — ولعل مكيافيللي كان من بينهم — على الرضوخ لشروط كاردونا، إلا أن حامل لواء العدالة كان لا يزال يعول على الألم الذي سيُلمُّ بالإسبان من جرّاء الجوع، وعلى قوة رجال المليشيا، وعلى «بعض الآراء العقيمة» كما ورد عن مكيافيللي. وما إن ضاق كاردونا ذرعًا حتى بدأ في قصف أسوار براتو باستخدام مدفعيه الواهنين اللذين انفجر أحدهما على الفور بمجرد استخدامه، بيد أن الآخر نجح في اليوم التالي في أن يحدث فجوة في السور، وفي تمام السادسة مساء ارتقى الإسبان درجات سلالمهم وانسلوا عبر الفجوة، حدث هذا في التاسع والعشرين من أغسطس/آب، الذي تصادف مع ذكرى قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، القديس الذي اتخذته فلورنسا شفيعًا

لها. وقد وصف فرانشيسكو جوتشياردينى الأحداث التي تلت ذلك قائلًا: «لم يعد هناك أدنى مقاومة، ولم يتبق سوى الصراخ والهروب والعنف والنهب والدماء والقتل.»

وكان الخراب الوحشي الذي حل ببراتو بمثابة فاجعة هائلة لمكيافيللي، فقد وصم رجال مليشيته الثلاثة آلاف أنفسهم بالعار عندما ألقوا بأسلحتهم وولوا الأدبار، وذكر جوتشياردينى أن الإسبان أصابهم الذهول حينما رأوا رجالًا عسكريين «يظهرون مثل هذا الجبن والقليل من المهارات»، ووصفهم فلورنسي آخر مذعور: «أصبحوا مرتعدين كالفئران.» ولقى نحو أربعة آلاف شخص داخل أسوار براتو مصرعهم، وكان نصفهم تقريبًا من رجال المليشيا والباقي من أهل براتو العُزل، وعانى آخرون أهوالًا جسامًا على أيدي رجال كاردونا. أشار مكيافيللي بنفسه إلى هذه النوعية المروعة من الجرائم وهو يرثي هذه الفاجعة الوحشية في براتو قائلًا: «ولم ينجُ أحد من مخالبهم حتى النسوة العذارى المنعزلات في الأماكن المقدسة التي عجت بأعمال الاغتصاب والنهب.»

وفشل حلم مكيافيللي فشلًا ذريعًا، فرجال المليشيا الذين هم من أبناء البلد، والذين استثمر فيهم ما ينيف على ست سنوات من الكدح والأمل، كشفوا عن كارثة تفوق كارثة القناة العقيمة وكارثة القادة المرتزقة المجردين من المبادئ الأخلاقية الذين لا يعول عليهم، فقد ثبت أن إيمانه بشجاعة الجيش الوطني وجدارة هذا الجيش بالثقة ما هو إلا وهم كبير، ودفع أهل براتو دماءهم ثمنًا له، وعلى فلورنسا أن تدفع حريتها ثمنًا له الآن.

وعندما وصلت أخبار السلب والخراب الذي حل بمدينة براتو إلى فلورنسا أحدثت «تشويشًا عظيمًا في أذهان الناس»، ولم ينزعج أحد قدر انزعاج

بيرو سودريني، فكما جاء عن جوتشيارديني، كان حامل لواء العدالة «مذعورًا ... من جراء فقده التام لسمعته ومكانته الاجتماعية»، لقد جعلته هذه الأزمة مرتبكًا وخائر القوى، وعندما اقتحمت مجموعة من مناصري المديشتين قصر مجلس السيادة، في الحادي والثلاثين من أغسطس/آب وطالبته بالاستقالة، أجهش بالبكاء وهدد بالانتحار، وكان مكيافيللي هو الرجل الذي لجأ إليه آنذاك في وقت محنته، فقد استُدعي مكيافيللي — المستشار الثاني — إلى قصر مجلس السيادة ليرتب رحلة نقل صديقه بسلام إلى المنفى. وفي اليوم التالي انطلق جوليانو دي مديشتي مزهوًّا بظفره إلى فلورنسا.

وكان جوليانو البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا قد قضى معظم منفاه في بلاط أوربينو، لقد تميز، مثل والده لورنزو، بكونه رجل بلاط من الدرجة الأولى أكثر من كونه محاربًا، وقد رسمه رافائيلو Raphael بعدها بعدة سنوات في لوحة تبرزه شابًّا نحيلًا ذا عنق طويل ولحية خفيفة، مرتديًا قبعة مزخرفة مائلة قليلًا لتعطي شكلًا أنيقًا، بالمثل فقد خلده بالداساري كاستيليوني Baldassare Castiglione في كتابه The Book of the Courtier الذي أشاد فيه «بصلاحه ونبله ولطفه». وبالرغم من أنه كان في الخامسة عشرة فقط من عمره عندما طُرد المديشتيون من فلورنسا، فإنه كان في ذلك الوقت قد تعرف على مكيافيللي الذي يُعتقد أنه قد ألف قصيدة يمدحه فيها ويُعتقد أنه كان ينتمي من قريب أو من بعيد لحاشية والده، ومن ثم كان لدى مكيافيللي بعض الأسباب التي تجعله يتوقع أنه لن يعاني كثيرًا من جراء عودة المديشيتين رغم صيته الذائع بصفته الذراع الأيمن لسودريني.

في بداية الأمر، بدا وكأن المدينة سوف تبقى في حالة سلمية مع حدوث بعض التغيرات الطفيفة في حكومتها. وفي الثالث من سبتمبر/أيلول انضمت فلورنسا إلى العصبة المقدسة، ووافقت على

عودة المديشتين بصفتهم مواطنين عاديين ودفع مبلغ أربعين ألف دوكة لكاردونا. وبعد مضي أيام قلائل، اختار مجلس السيادة شخصًا آخر ليتولى منصب حامل لواء العدالة، يُدعى جيوفانباتيستا ريدولفي Giovanbattista Ridolfi، أحد الأعضاء البارزين في مجموعة الشرفاء، كان مناوئًا لسودريني على مدار فترة طويلة من الزمان، وكان من المقرر أن تدوم فترة توليه المنصب أربعة عشر شهرًا. وبدا الأمر عند هذا الحد كما لو أن المديتشيين نجحوا في أن يحظى وجودهم بالقبول في الجمهورية التي سيظل الحكم فيها كما هو، وكتب مكيافيللي بعد فرار سودريني مباشرة قائلًا: «يعم المدينة السكون والسلام، وعُقدت الآمال على مساعدة المديتشيين حتى تنعم المدينة بوضع لا يقل مكانة عما كانت عليه في الماضي، عندما حكم والدهم لورنزو العظيم صاحب أجمل ذكرى.»

لكن دوام الحال من المحال، بسبب «الخلافات بين المواطنين» كما ذكر جوتشيارديني في ضجر، علاوة على تواجد الجنود الإسبان — أنصار المديتشيين — المثير للفتنة. وفي منتصف سبتمبر/أيلول، دبرت مجموعة من الشباب من أنصار آل مديتشي — كان من بينهم برينزيفالي ديلا ستوفا الذي كان من المفترض أن يغتال سودريني من قبل — لحدوث انقلاب عسكري سريع، ولما استاءوا من تعيين ريدولفي الذي اعتبروه شخصية في غاية الاعتدال، دخلوا هم وجوليانو مديتشي قصر مجلس السيادة ومعهم أسلحة مخبأة تحت عباءاتهم، وفور إعطائهم إشارة معينة، قرعوا الجرس العظيم الموجود في البرج المعروف باسم لا فاكا La Vacca، وهو الإنذار الذي كان يستدعي الفلورنسيين إلى الساحة على مدار قرنين من الزمان، غير أن الجنود الإسبان تدفقوا إلى الساحة أيضًا، وقُرأ مرسوم على مسامع الشعب من الدرابزين المجاور لتمثال داود الذي صنعه مايكل أنجلو، ووجد الفلورنسيون أنفسهم مجبرين — إذ

كان سلاح الإسبان ينخز في ظهورهم — على قبول حل المجلس العظيم للشعب وتأسيس مجلس حاكم يتألف من أربعين مواطنًا — جميعهم من أنصار المديتشيين — الذين ستخول إليهم السلطة المطلقة. وأضحت فلورنسا جمهورية بالاسم فحسب، فمقر السلطة الفعلية لم يصبح في قصر مجلس السيادة بل على بعد مسافة قصيرة منه في قصر آل مديتشي، وأصبح أمراء فلورنسا الجدد هم جوليانو وأخوه الأكبر الكردينال جيوفاني.

وجُرد مكيافيللي على الفور تجريدًا كليًّا من كافة صلاحياته، فقد نُزعت أسلحة ميليشيته وسُرحت، وحُلَّ كذلك مجلس التسع المسئولين عن المدفعية والميليشيات الفلورنسية. غير أنه ظل مؤقتًا في منصبه مستشارًا ثانيًا، ولم يُعرف الكثير عن أنشطته آنذاك، وفي أحد أيام شهر أكتوبر/تشرين الأول، قضى بعض الوقت في تقديم النصائح التي لم تُطلب منه للمديتشيين، إذ كتب «مذكرة إلى مناصري المديتشيين» وهي نوع من الخطاب المفتوح يحاول أن يثبت فيه أن تشويه سمعة حكم بيرو سودريني في سبيل تملق أمراء المديتشيين الجدد هو مسألة غير مجدية قد تفضي إلى عودة حكومة سودريني — وإن كان هذا غاية ما يتمناه. كما كتب خطابًا أيضًا إلى الكردينال جيوفاني (الذي كان يعرفه بلا شك أيضًا من حاشية لورنزو) كرد فعل على تعيين خمسة موظفين في نهاية سبتمبر/أيلول ليقوموا بجرد الممتلكات التي صودرت من المديتشيين عام ١٤٩٤م؛ يحذر فيه الكردينال من أن إعادة تخصيص مثل هذه الممتلكات والمقتنيات قد تسبب نفور العامة. ولم يبال الكردينال جيوفاني كثيرًا بكلامه، واسترد المديتشيون ممتلكاتهم المصادرة.

وأيًّا كان شكل علاقة مكيافيللي بجوليانو والكردينال جيوفاني في الماضي، ففي عام ١٥١٢م، لم يُكِنّ أي منهما الاستحسان للمستشار

الثاني، ويُعزى ذلك إلى أن مكيافيللي كان قد اتخذ موقفًا صارمًا ضد العائلة عام ١٥٠٨م عندما كان يجري الإعداد لزواج فيليبو ستروتزي Filippo Strozzi (الذي كان ينتمي إلى إحدى العائلات الفلورنسية البارزة) وكلاريس دي مديتشي Clarice de' Medici البالغة من العمر خمسة عشر عامًا، ابنة الراحل بيرو المشئوم، إذ نظر سودريني إلى هذا الزواج، الذي عارضه بشدة، على أنه مؤامرة يكسب المديتشيون عن طريقها مؤازرة عائلة ستروتزي ذات النفوذ كي يعودوا إلى فلورنسا. واستهجن مكيافيللي هذا الارتباط بشدة، واتخذ موقفًا متعنتًا للغاية، وحاول أن يُثبت أنه لما كان بيرو متمردًا على فلورنسا، فإن كافة أعضاء أسرته أيضًا يعتبرون متمردين بما فيهم ابنته. غير أن مجلس الثمانية للمراقبة حسم الأمر لصالح كلاريس وعُقد الزواج عام ١٥٠٩م. لذا لم ينس كل من جوليانو والكردينال جيوفاني بسهولة معارضة مكيافيللي الشعواء لعائلتهم واستهجانه الفصيح لابنة أخيهم. وحتما لاتزال الكلمات التي تفوه بها بيرو سودريني عندما ظهر جوليانو دي مديتشي في فلورنسا، ترن في أذني مكيافيللي، ففي حديث سودريني إلى المجلس العظيم للشعب في نهاية أغسطس/آب حذر من أنه إذا عاد المديتشيون إلى فلورنسا فإن حكمهم ستشوبه القسوة والميل إلى الثأر وسيتصف بالشك وبالرغبة في القصاص، فكما توقَّع، لن ينسوا ما حيوا «خروجهم إلى المنفى والطريقة الفظة التي عُوملوا بها».

ولما كان مكيافيللي قد شاهد حملة تطهير المناصب من أنصار سافونارولا عام ١٤٩٨م، كما كان حاضرًا في روما عام ١٥٠٣م عندما انتقم يوليوس الثاني من سيزار بورجيا بلا شفقة؛ لذا حتما لم يُفاجأ كثيرًا عندما جُرِّد من منصبه في المستشارية في السابع من نوفمبر/تشرين الثاني. فقد أصدر مجلس السيادة الذي يخضع للهيمنة المديتشية مرسومًا يقر بأنه ينبغي «فصله، وتجريده من منصبه، وطرده

طردًا تامًّا»، واضطلع بمهام منصبه على الفور نيقولو ميتشيلوتزي Niccolò Michelozzi، وهو أحد الموالين لآل مديتشي والوزير السابق للورنزو العظيم. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فعقب ذلك بثلاثة أيام، أي في العاشر من نوفمبر/تشرين الثاني، حُددت إقامته بالأراضي الفلورنسية، كما أُرغم على دفع كفالة قدرها ألف دوكة ذهبية، وهو ما يعد مبلغًا ضخمًا للغاية (ما يعادل تقريبًا راتبه في ثماني سنوات) مما اضطره أن يلجأ إلى بعض أصدقائه للاقتراض منهم. غير أن المديتشيين وأتباعهم لم يكتفوا بذلك، فبعد مرور أسبوع حرم من أن تطأ قدماه قصر مجلس السيادة لمدة عام.

وهكذا انتهت حياة مكيافيللي السياسية بنهاية بائسة غير متوقعة، ولعله وهو يغادر مكتبه في المستشارية للمرة الأخيرة قد توقف برهة ليتأمل مليًّا اللوحة الجصية لعجلة الحظ التي تعلو مدخل قاعة الزنابق. حقًّا لقد أدارت الإلهة المتقلبة ظهرها له.

الفصل الرابع عشر

وصل مكيافيللي إلى سن الثالثة والأربعين عام ١٥١٢م. وإذا أحصى مكيافيللي كل شيء جرت مصادرته منه، مثلما فعل المديتشيون، فإنه حتمًا كان سيشعر بأنه لم يخرج بشيء جدير بالذكر من السنوات العديدة التي قضاها في خدمة الجمهورية. لقد حُرم من دخول المبنى الذي طالما اعتبره على مدار ما يقرب من خمسة عشر عامًا منزلًا له أقرب إلى قلبه من مسكنه الفعلي الواقع على الجانب الآخر من النهر. والأدهى من ذلك أن الرجل الذي كان يعشق «الترحال والتجول والطواف» إلى درجة الإدمان أصبحت حركته الآن تقتصر على المناطق الواقعة تحت السيادة الفلورنسية دون أي منفذ يُخرج فيه طاقاته ومهاراته وطموحه، ولعل الأمر الذي يفوق كل الأمور سوءًا هو أنه فقد سمعته ومكانته الاجتماعية شأنه في ذلك شأن سودريني.

وما جعل طرد مكيافيللي أشد وطأة هو أنه لم يفقد أحد من أعضاء المستشارية منصبه سواه هو وبياجيو بوناكورزي، فحقيقة أن طرد مكيافيللي لم يكن ضمن حملة تطهيرية كاملة لقصر مجلس السيادة تشير إلى أي مدى كان غير محبوب، ليس من قبل المديتشيين ومجموعة الشرفاء فحسب، بل أيضًا من قبل العديد من رجال الأعمال

والساسة الفلورنسيين الذين نفروا منه بمرور الوقت؛ أولًا بسبب غطرسته وفظاظته، وثانيًا بسبب سلوكه المشين الذي أصبح بمثابة الوقود الذي يشعل الكثير من جلسات الثرثرة والنميمة، وأخيرًا، بسبب الإهمال الجسيم لمليشيته، التي كان يتباهى بها، في الوقت الذي كانت فيه فلورنسا في أمس الحاجة إليها، مما أثبت عدم جدوى هذا المشروع المدلل من ناحية، وبوجه عام عدم جدارته هو كقائد من ناحية أخرى. فالتهليل والثناء الذي ناله عندما قام بحماية قناة «النهر الميت» مما أفضى إلى إذلال بيزا وإذعانها عام ١٥٠٩م تحول بعد مرور ثلاثة أعوام إلى همهمات في كل الأنحاء عن حماقته وعدم كفاءته[١]. وإن كان مكيافيللي قد اعتقد في ذلك الخريف أن الأمور لا يمكن أن تئول إلى ما هو أسوأ، فهو مخطئ للأسف، ففي غضون أشهر قُبض عليه وأُلقي في السجن.

قُبض على مكيافيللي في ليلة الثامن عشر من فبراير/شباط عام ١٥١٣م، إذ كان واحدًا من بين ما يقرب من اثني عشر رجلًا اعتقلتهم لجنة المراقبة بسبب مؤامرة دُبرت لاغتيال جوليانو مديتشي، واكتُشفت المؤامرة عندما سقطت ورقة عن طريق الصدفة من أغسطينو كابوني Agostino Capponi — وهو شاب ينتمي إلى إحدى العائلات الفلورنسية البارزة ويُفترض أنه زعيم الفتنة — يدرج فيها أسماء عشرين متآمرًا. وكان الاسم السابع في قائمة كابوني هو اسم مكيافيللي. واعتُقل مكيافيللي مع كابوني وعدد آخر من أولئك الذين يُعتقد أنهم متآمرون، وأُخذ إلى سجن ستينتش وهو سجن قديم يقع بالقرب من كنيسة سانتا كروتشي. والأمر الذي اعتُبر نذير شؤم بالنسبة له، أن هذا هو نفس السجن الذي قُطعت فيه بالفأس رأس فرانشيسكو مكيافيللي Francesco Machiavelli — أحد أقاربه البعيدين فهو ابن عم والده من الدرجة الثانية — عام ١٤٥٩م بسبب معارضته لكوزيمو مديتشي،

ومن الممكن الآن أيضًا أن يقضي الفأس المديتشي على الحياة السياسية لشخص آخر من آل مكيافيللي.[٢]

وقطعًا لم يكن مكيافيللي معارضًا للاغتيال السياسي، لا سيما إذا كان هذا الاغتيال سيؤدي إلى تحرير دولة أو مدينة من حكم استبدادي، بيد أن أقل ما يمكن أن يُقال عن تورطه في مؤامرة أغسطينو كابوني هو أنه كان تورطًا ثانويًّا، فلقد كان يعرف بالفعل عددًا من المتآمرين كان من بينهم نيقولو فالوري Niccolò Valori، السفير السابق لدى فرنسا، الذي كان صديقه منذ وقت طويل، وإن حدث أن مكيافيللي قد شارك معهم في تكتم الأمر، فإنه لم يشاركهم في التنفيذ الفعلي لمؤامرتهم. وبتحقيق مجلس الثمانية للمراقبة في الأمر اعترف أحد المتآمرين، وهو صديق حميم آخر لمكيافيللي يُدعى جيوفاني فولتشي Giovanni Folchi، بأنه أبلغ مكيافيللي بشأن المؤامرة. وكان من المنطقي جدًّا الاعتقاد بأن مكيافيللي سيعضد مسألة تدبير مؤامرة ضد المديتشين ولا سيما بعد المعاملة الفظة التي لقيها على أياديهم؛ ومن ثم فالقضاء على جوليانو دي مديتشي والإطاحة بحكمه سوف يُفسح أمامه طريق العودة إلى الحكومة.

ومع ذلك لا يبدو أن مكيافيللي قد قدم أي عون أو تأييد للمتآمرين، فطبقًا لما ورد في اعتراف فولتشي فإن مكيافيللي أجابه ببساطة أن الحكومة الحالية قد تسقط عاجلًا أو آجلًا من تلقاء نفسها؛ لأن — وهنا يسدد مكيافيللي ضربة عنيفة لجوليانو دي ميديشتي — غياب شخصية مثل شخصية لورنزو العظيم يعني أنه لا يوجد أحد «يقود دفتها»[٣] وتشهد هذه الإجابة شهادة قاطعة على اعتقاد بأن خلاص فلورنسا لن يكون سوى بنصل الخناجر. مع ذلك لم تفلح هذه العبارات المحطة من قدر جوليانو في أن تدعم موقفه، وكما يبدو، أُخذ إلى غرفة التعذيب وعُلق في آلة تُدعى «سترابادو» strappado واسمها مشتق من كلمة

strappare التي تعني يمزق أو يشق، وتتضمن آلية عمل هذه الآلة تقييد ذراعي الضحية خلف ظهره بحبل ملفوف على بكرة، ثم يُسقط الضحية من ارتفاع معين بحيث ينخلع كتفه عندما يُشد الحبل بغتة بإحكام. ويبدو أن مكيافيللي قد عُذب في هذه الآلة ست مرات دون أن يعترف بأنه مذنب. كتب مكيافيللي فيما بعد أن قدرة أحشائه على التحمل جعلته «يرى أن قدرته على التحمل أكبر مما كان يعتقد من قبل.»

وبعد مرور خمسة أيام من القبض عليه، وبينما كان يرقد مصفدًا بالأغلال في زنزانته، استيقظ على صوت ضجيج خارج السجن، حيث كان يقع شمال سجن ستينتش طريق يُسمى «طريق التعساء» Via de' Malcontenti وقد سُمي هكذا لأنه الطريق الذي يُساق فيه المذنبون المدانون إلى تنفيذ حكم الإعدام فيهم. ودائمًا ما كان يصطحب المدانين في رحلتهم الكئيبة أعضاء من رابطة «الإخوان السود»، الذين يرتدون قلنسوات سوداء اللون، وقد كرس هؤلاء الإخوان أنفسهم لمواساة المدانين بإنشاد تراتيل جنائزية ووضع صور مرسومة لعملية الصلب أمام أعين المدانين. وفي صباح الثالث والعشرين من فبراير/شباط، كان ينشد الإخوان السود المزامير لاثنين من المتآمرين هم كابوني وشاب أمهق يُدعى بيتروباولو بوسكولي Pietropaolo Boscoli، وبعد نقلهم في عربة عبر طريق التعساء، قُطعت رأسا الاثنين في العاشرة صباحًا في ميدان تنفيذ حكم الإعدام المعروف باسم ميدان العدالة Pratello della Giustizia.

وفي خضم خوف مكيافيللي على حياته، لم يُظهر أي شفقة تجاه كابوني وبوسكولي، فقد كتب إلى جوليانو دي ميديشتي قائلًا: «ليموتوا الآن، لكنني أتوسل إليك أن تنعم على برحمتك.» جاءت هذه الكلمات ضمن (كلمات) قصيدة شعرية مكونة من عشرين بيتًا، وهو نوع

من «قصائد السجن» التي نظمها لاستدرار الشفقة والرحمة في الوقت الذي كان ينتظر فيه مصيره. وبعد أن يصف مكيافيللي نفسه بأنه شاعر (من المرجح أن تكون هذه محاولة لإيقاظ ذكرى أيامه في بلاط لورنزو العظيم)، يرثي المشقات التي تكبدها، مثل تلك التي عاناها من جرّاء تعذيبه ست مرات على آلة «السترابادو» ومعاناته مع الأغلال. وقال مكيافيللي: «ناهيك عن بلاياي الأخرى» وذلك قبل الاسترسال في تعديد بلاياه بالتفصيل فيما يتعلق بالرائحة النتنة التي كانت تملأ زانزانته وحجم القمل الذي تعج به، والأصوات التي تصدر عن المساجين الذين يجري تعذيبهم في الزنزانات المتاخمة. ويختم مكيافيللي قصيدته بسماعه لإنشاد الإخوان السود وبتعليقه الذي يخلو من الرحمة بشأن كابوني وبوسكولي.[٤]

وقد حدت الأبيات التي يسود عليها طابع الوحشية والأنانية في نهاية القصيدة ببعض من كتاب سيرة مكيافيللي إلى أن ينفروا منه في حيرة وجزع، والبعض الآخر يبررون ذلك بترجيح أنه كتب هذه الكلمات (كما ادعى أحدهم) «وهو في حالة مزاجية سيئة»، بل لقد تجاسر هذا الكاتب ذاته، وهو باسكال فيلاري Pasquale Villari، على أن يقول إن ميكافيللي انقاد إلى هذا الحس الشرير «اتباعًا للقافية» ومع ذلك، لا تتناول القصيدة الكثير من آراء مكيافيللي بشأن طريقة معاملة كابوني وبوسكولي قدر تناولها لطريقة المعاملة التي كان يلقاها هو نفسه في سجن ستنيش. والأمر المثير للدهشة هو أن العديد من كتاب سيرة مكيافيللي قد نظروا إلى هذه الممارسة الشعرية على أنها تسجيل دقيق لحقيقة تاريخية. في واقع الأمر، تزخر القصيدة بالمجاز الأدبي (كما هو الحال في أي قصيدة شعرية)، مما يلقي بظلال كثيرة من الشك حول القراءات الأدبية لمكيافيللي، ونظرًا لتمرسه في فن البلاغة، فهو يستخدم إطارًا متكاملًا من الفنون البلاغية — مثل التقنيات

الموضحة في بعض الأعمال ككتاب شيشرون «علم الغيب في العالم القديم» De inventione — كي يصوغ لغته وحواره بطريقة تثير مشاعر الشفقة والرحمة.

ويستهل مكيافيللي القصيدة بافتتاحية — وهي عبارة عن تضرع موجه إلى جوليانو باسمه — ويختمها بالخاتمة، وهي المناشدة الأخيرة التي يعلن فيها المتكلم أو الكاتب عن انكساره بأسلوب لبق، والتي يقول فيها مكيافيللي: «وليسمُ اسم والدك وجدك.» ويستخدم مكيافيللي على طول القصيدة العديد من الأشكال البلاغية. وطبقًا لما ورد في القصيدة، كان حجم القمل كبيرًا كبر الفراشات، وكانت الرائحة أسوأ من تلك التي في مدينة رونسيفال — إشارة إلى ساحة القتال التي أتي ذكرها في الملحمة الشعرية الفرنسية «أغنية رولاند» The Song of Roland. وكان صوت المغاليق والمفاتيح والمزاليج، كما ادعى الشاعر، كصوت جوبيتر (إله السماء والرعد) وهو يقذف الأرض بصواعقه الرعدية من قمة «مونجيبلو»، الاسم المتداول لجبل إتنا (وهو أكبر بركان نشط في أوربا)، وكما نرى فهذه ليست مجرد مبالغات معتادة وإنما هي تلميحات أدبية منمقة. ويستخدم أيضًا تصريحًا تهكميًّا، فقد أطلق على زنزانته اسم «المأوى الفاخر». أما عن البلايا التي ادعى إغفالها عندما قال «ناهيك عن بلاياي الأخرى» فما هي إلا طريقة مثالية للتوكيد باستعمال الحذف Paralipsis، وهو نوع من المجاز عرفه من مطالعته لعدة مصادر أدبية كان من بينها كتاب Rhetoric to Herennius، هذا العمل الكلاسيكي الذي اعتُقد إبان عصر النهضة أن شيشرون هو الذي كتبه، قد قدم المثل النموذجي للمتحدث أو الكاتب الذي يدعي إخفاء شيء مقيت، بينما هو في حقيقة الأمر يقوم بالتأكيد عليه: «لقد غضضت الطرف عن ابتزازك وسرقاتك.»

ولما كانت القصيدة مكتوبة باللغة الدارجة، فإنها تزخر بالأدوات الأدبية المعقدة بالإضافة إلى الأدوات البلاغية. فعلى سبيل المثال، يستغل مكيافيللي الجناس الاستهلالي ويكدس في أبيات قليلة كلمات تتجانس في حروفها الأولى مثل poeti (بمعنى شعراء)، parieti (بمعنى جدران)، pidocchi (بمعنى قمل)، paffuti (بمعنى يُطعم جيدًا)، puzzo (بمعنى نتن الرائحة). ويستخدم أيضًا القافية الداخلية، وهي نفس القافية التي استخدمها بيترارك في مقطوعاته الشعرية، والتي تأخذ كل ثمانية أبيات فيها الرويّ ABBA ABBA، بمعنى أن المقطوعة الأولى مكونة من أربعة أبيات يتطابق فيها الحرف الأخير من البيت الأول مع الحرف الأخير من البيت الرابع، ويتطابق الحرف الأخير من البيتين الثاني والثالث، ثم يكرر نفس الأمر في الأبيات الأربعة التالية. وتأخذ معظم القصيدة — مثل قصيدة بيترارك — الوزن الخماسي التفاعيل، وتتضمن عددًا من القوافي المُسطرة ببراعة، إذ يستخدم كلمة farfalle (بمعنى فراشات) مع مدينة رونسيفال Roncesvalles. وكل هذا يؤكد وصف مكيافيللي لنفسه بأنه شاعر في البيت الرابع من القصيدة أيما تبرير.

ومن ثم، لا تُعد القصيدة وصفًا أدبيًّا لحالته في السجن، ولا هي أيضًا أبيات قليلة من الارتجال العفوي لشخص في حالة مزاجية سيئة، بل إنها قطعة فنية شعرية مصاغة بأسلوب بارع حتى إن حبكتها البلاغية وتلميحاتها الأدبية تثير الجدل حول أنه كيف يمكن لشخص مصفد بالأغلال ومعذب في زنزانة قذرة أن يسطر مثل هذا العمل. وكان التعذيب يُستخدم على نطاق واسع في فلورنسا حقًّا، ولم تتضمن وسائل التعذيب آلة «السترابادو» فحسب، بل أيضًا عدة وسائل أخرى من بينها آلة المخلعة، وطريقة أخرى يُسلخ فيها أخمص القدم ثم يُحرق بفحم مشتعل. وبلا ريب، تعرض كل من كابوني وبوسكولي

للعديد من هذه الوسائل الوحشية. لكن هل كانت رواية مكيافيللي في قصيدته بشأن المرات الست التي سقط فيه من آلة الستربادو هي مجرد مقطع شعري آخر من المبالغة مثل ذلك الذي حفل بوصفه لحجم القمل وصوت المغاليق؟ فإذا نظرنا إلى واحد ممن تعرضوا للتعذيب بهذه الآلة وليكن سافونارولا على سبيل المثال، نجد أن سقطات الحبل القليلة الأولى التي عاناها سافونارولا (تعرض سافونارولا لأربع عشرة سقطة في غضون شهر عام ١٤٩٨م) قد أفضت إلى تمزيق عضلاته وخبلان عقله إلى درجة أنه لم يتسنَ بعدها الحصول منه على اعترافات ذات معنى. ووصف أحد الإخوة الآخرين الذين سُجنوا مع سافونارولا، وهو راهب دومينيكاني، الآثار المفزعة التي تركتها آلة الستربادو فيه هو نفسه فقال: «لقد تهشم كل عظمي، ولم تعد أذرعي قادرة على العمل مرة أخرى، وخاصة الذراع الأيسر الذي أصبح مخلوعًا الآن بسبب هذا التعذيب بعد المرة الثانية.»[٥] ومع ذلك أيًّا كانت طبيعة التعذيب الذي لقيه مكيافيللي وأيًّا كان مداه، فإنه أظهر بلا أدنى شك وفرة من الشجاعة بنفس وفرة مهاراته الأدبية أثناء مدة حبسه. وبالرغم من ذلك لا يُعرف هل وصلت قصيدته المنمقة جيدًا — هذا الالتماس الفصيح الذي يستدر به الرحمة — إلى جوليانو دي مديتشي أم لا، وإذا كانت قد وصلت، لا يُعرف أيضًا مدى تأثيرها عليه.

وفي غداة الحادي عشر من مارس/آذار عام ١٥١٣، استيقظ مكيافيللي في زنزانته على صوت قرع الأجراس والقصف المدوي للمدافع؛ فقد توفي البابا يوليوس الثاني في الحادي والعشرين من فبراير/شباط، بعد القبض على مكيافيللي بعدة أيام، عقب ذلك عقد مجمع لاختيار البابا الجديد، فاختِير الكردينال جيوفاني دي مديتشي الذي لا يبلغ من العمر سوى سبعة وثلاثين عامًا ليرتقي كرسي البابوية باسم البابا ليو العاشر. ولم تشهد فلورنسا من قبل أيامًا مثل الأيام الخمسة التي تلت

ذلك، حيث أُطلقت المدافع في تحيات عسكرية متواصلة، وتوهج قصر مجلس السيادة بالنيران التي أُشعلت بحرق براميل من الخمور، وكان هناك عرض عسكري لمركبات النصر عبر الشوارع حتى واجهة قصر المديتشيين. وقد كان فرح المدينة عظيمًا حتى إن النساء — اللاتي عادة ما كن يُحبسن بعيدًا عن الأنظار — ظهرن في شرفات المنازل، وعلى الفور بدأ الناس في إلقاء لافتاتهم وألواح الأرضيات الخاصة بهم ومفروشاتهم في اللهب المستعر في غمرة الجنون بالاحتفال حتى إن البعض نزعوا الأخشاب من أسقف متاجرهم. وكتب أحد الفلورنسيين المذهولين: «لقد بدا وكأن المدينة قد انقلبت رأسًا على عقب.»

ونجا مكيافيللي من المزيد من التعذيب والسجن — وربما من الإعدام أيضًا — بفضل هذا الحدث غير المتوقع. فقد أُطلق سراحه كجزء من عملية عفو عام في الحادي عشر أو الثاني عشر من مارس/آذار، بعد ما قضى قرابة ثلاثة أسابيع في السجن. وربما اعتقد مكيافيللي، شأنه شأن أي شخص آخر، وهو يعبر فوق الجسر القديم (بونتي فيكيو) إلى منزله، وسط هذا الجو المليء بجلبة المدافع والأجراس وسحب الدخان وطقطقة الحطب المحترق، أن ثمة عصرًا ذهبيًّا يشرق على فلورنسا، إذ تربع أحد أبناء فلورنسا، ابن لورنزو العظيم، على عرش الفاتيكان. ولكن ياترى، ماذا عساه أن يحمل هذا العالم الجديد إلى السجين السابق نيقولو مكيافيللي؟

كيف احتفل مكيافللي بنيله الحرية من سجن ستنيش؟ كتب مكيافيللي في خطاب مؤرخ بالثامن عشر من مارس/آذار بعث به إلى أحد الأصدقاء في روما، بأنه «وقف ليتأمل أثناء هذه الاحتفالات العامة، مستمتعًا بما تبقى من هذه الحياة.» لقد كان الاستمتاع بالحياة يعني شيئًا واحدًا بعينه في رأي مكيافيللي ألا وهو: «كل يوم نزور فيه منزل فتاة ما

كي نجدد حيويتنا.» كتب هذا وهو منتعش الفؤاد، حتى إنه كتب إلى صديقه متباهيًا بمشاهدته موكب حفاة الأقدام الخاص بلوحة المادونا التي في أومبرونيتا — والتي جُلبت إلى فلورنسا بسبب اختيار ليو العاشر — من شرفة منزل عاهرة تُدعى ساندرا دي بيرو Sandra di Pero.

وكان هذا الصديق الذي في روما هو فرانشيسكو فيتوري الذي خدم معه مكيافيللي في بلاط ماكسيميليان في الأشهر القلائل الأولى من عام ١٥٠٨م. لقد بدا فيتوري من النظرة الأولى عدوًّا لمكيافيللي بلا شك، فعائلته كانت موالية للمديتشيين (إذ كان والده سفيرًا في ظل حكم لورنزو العظيم) وقد كانت تربطه كل من صلة الدم والنسب مع بعض من كبار الشرفاء. ومع ذلك وجد مكيافيللي في فيتوري الصحبة الجذابة، فهو شخص يتمتع بحس فكاهي، ويستمتع كذلك (يمكننا أن نكتشف هذا من الإشارات العديدة المتقدة بالحماس في مراسلاته) بمجتمع العاهرات.

أطل فيتوري على عالم السياسة منذ الأيام التي ظهر فيها مع مكيافيللي في إنسبروك، ولا سيما أن أخاه باولو كان صديقًا حميمًا لجوليانو دي مديتشي، وكان فيتوري قد عُين في نهاية ديسمبر/كانون الأول عام ١٥١٢ سفيرًا لفلورنسا لدى الفاتيكان، وهي الوظيفة التي تقلدها رسميًّا في مطلع فبراير/شباط. ومنذ ذلك الحين التصق كلاهما في هذه الصحبة الحميمة، حتى إن فيتوري ترك فلورنسا ممتطيًا جوادًا كان قد استعاره من مكيافيللي، وعليه، بعد أن خرج مكيافيللي من سجنه ليبحث عن وظيفة، لجأ بطبيعة الحال إلى صديقه، لقد بعث خطابًا إلى روما طالب فيه بإلحاح من فيتوري أن يجد لأخيه توتو (الذي كان قد رُسِّمَ كاهنًا عام ١٥٠٩م، والذي كان أيضًا يلح على فيتوري بشدة كي يساعده) وظيفة ضمن العاملين مع البابا ليو العاشر.

لقد كان مكيافيللي جريئًا للغاية في ذلك الحين كي يسأل عن فرص نجاحه مع المديتشين، قال مكيافيللي: «إذا كان ممكنًا، ذكّر مولانا بي كي يلحقني هو أو أحد أفراد عائلته بخدمته بطريقة أو بأخرى، إذا كان ممكنا؛ لأنني أعتقد يقينًا أنني سوف أشرفك، وأقدم شيئًا مفيدًا لنفسي.» لقد كان هذا التماسًا مثيرًا للشفقة بل ومملوءًا يأسًا وإحباطًا من شخص انتهى به المطاف إلى مثل هذا الوضع.

لقد أقسم فيتوري أنه سوف يفعل كل ما بوسعه كي يرفع من «شأن صديقه ويجلب إليه المنفعة»، بيد أن الموقف كان في غاية الحساسية، وفي أبريل/نيسان جاهر بأنه عجز أن يجد وظيفة سواء لمكيافيللي أو لأخيه. والوعد الوحيد الذي وعد به — إذا وافاه مكيافيللي بروما — هو «أنهما بلا شك سوف يكونان برفقة إحدى الفتيات التي تقطن بالقرب من منزله ويقضيان بعض الوقت معها»، لكن هذا العرض لم يسعد قلب مكيافيللي الذي أخذت معنوياته في الهبوط. وفي منتصف أبريل/نيسان ردّ مكيافيللي في خطاب على فيتوري، وهو لا يزال تكتنفه حالة من الإحباط من الحصول على وظيفة، ولا يزال أيضًا متشككًا في أن المديتشيين يمكن أن يتجاهلوا رجلًا يحظى بهذه المواهب قائلًا: «لو أن قداسته فقط يمنحني الفرصة للعمل، فإنني لن أتوانى عن جلب المنفعة والشرف لكافة أصدقائي.» بيد أن فيتوري لم يكن راغبًا في المساعدة أو بالأحرى لم يكن بمقدوره أن يقدمها. فربما كان مكيافيللي بريئًا من التورط في مؤامرة كابوني وبوسكولي، لكنه كان شخصية غير مرغوب فيها في بلاط المديتشيين.

ومع ذلك، أضنى مكيافيللي نفسه في هذا الوقت في محاولة نيل استحسان المديتشيين. وخط مكيافيللي بقلمه الذي لا يزال مسنونًا منذ المقطوعة الشعرية التي نظمها لجوليانو دي ميديشتي قصيدة بعنوان «أنشودة النفوس المباركة»، وفي وقت من الأوقات كانت المهرجانات

وأغانيها جزءًا هامًّا من الحياة الثقافية الفلورنسية. وشهدت فترة حكم لورنزو العظيم الاحتفال بالكالندماجيو وهو مهرجان الربيع الصاخب الذي تميز بوجود المواكب والعروض والطوافات، وكان يرقص فيه المؤدون في الشوارع وهم يرتدون اللباس الوطني والأقنعة ويغنون القصائد الغزلية. وقد ألف بعضًا من هذه الأغاني هنيرش إيزاك صديق مكيافيللي، ونظم أنجلو بوليزيانو Angelo Poliziano أعظم شعراء ذلك العصر بعضًا، ولا يزال البعض الآخر من تأليف لورنزو نفسه. وتوارى مهرجان الربيع بموت لورنزو وظهور سافونارولا، ولو أنه رجع بدرجة أقل بعد عام ١٤٩٨م، وبشرت عودة المديتشيين بإعادة إحياء المهرجانات عامة ومهرجان الربيع خاصة.

وفي «أنشودة النفوس المباركة»، أخرج مكيافيللي من جعبته مهاراته الشعرية ليشيد باعتلاء ليو العاشر للعرش، ومن ثم تجاسر ورجا في أنشودته فترة مديدة من السلام، بيد أنه لم يتضح إذا كانت الأنشودة طُرحت للتغني بها علانية أم لا، وإذا حدث ذلك، فإن هؤلاء الذين اعتادوا مزاح «مكيا» — والاستخفاف الهزلي الذي يَسِم أغاني المهرجانات عامة، التي عادة ما كانت تشيد بأشياء مثل قدوم شهر مايو وجمال المرأة الفلورنسية الذي لا يُبارى — من الممكن أن يكونوا قد ذُهلوا من المقطع الشعري الذي يتسم بالجدية بل بالبؤس والشقاء، والذي يعتبر أشبه بالترانيم الجنائزية إذ ينوح فيه:

هي البلايا قاسية وموجعة
تحيط بالبؤساء
فكَرْبُهم عظيم
وداؤهم بلا دواء
عويلهم يواصل الصباح بالمساء
على بلايا لا تُعدّ

تدفعهم؛ يتنهدون في أسى
يتظلمون في صيحات عالية
وتأوهات لا تُحدّ[6]

هذه المشاعر التي تشوبها الكآبة تشير إلى أن مكيافيللي، الذي كانت آماله تخيب باطراد؛ قد سيطر عليه طابع مغاير لطابع البهجة الذي ساد تلك الفترة. ولعل عبوسه بزغ مع بزوغ ربيع عام ١٥١٣م، في بعض الأبيات المأخوذة عن عن مقطع شعري لبترارك Petrarch التي اختارها ليبعث بها ضمن أحد خطاباته إلى فيتوري، إذ تقول:

لذا، إن ضحكت أو تغنيت بين الفينة والفينة
فإني أفعلها لأنه ما من طريقة أخرى
لأنفس بها عن دموعي المريرة

وتأرخ هذا الخطاب في السادس عشر من أبريل/نيسان، أي قبل مهرجان الربيع بأسبوعين. فإذا كتب مكيافيللي «أنشودة النفوس المباركة» كي يُتغنّى بها في مهرجان عام ١٥١٣م، فإنه لم يمكث في فلورنسا حتى يسمعها وهي تُغنّى، إذ ترك مكيافيللي المدينة في نهاية أبريل/نيسان متجهًا إلى مزرعته في قرية سانت أندريا إن بركويزينا. وكان جليًّا في ذلك الوقت أن كافة جهوده لتزكية نفسه لدي المديتشيين قد باءت بالفشل. وعليه، مكث مكيافيللي هنا في الجبال التي تقع جنوب فلورنسا، ليتجرع عذابه الموحش ويذرف دموعه المريرة، فما من بادرة أمل تلوح في الآفاق.

الفصل الخامس عشر

كانت قرية سانت أندريا إن بركوزينا تقع على طريق «فيا رومانيا» القديم الذي يبعد سبعة أميال جنوب فلورنسا وميلين شمال مدينة سان كازكيانو الجبلية الحصينة، وكانت تتميز القرية في عام ١٥١٣م بوجود كنيسة صغيرة، وحانة، وبئر ماء، ومتجر لبيع اللحوم، وطاحونة، وبرج محاط بمجموعة من المنازل الصغيرة، ومنزل كبير مبني بالحجارة — وهو مسكن مكيافيلي — الذي أكسبته ملامحه المريبة اسم ألبيرجاتشيو Albergaccio، أي الخان الحقير. وكان يوجد في الناحية الأخرى من الطريق منزل صغير يقطن فيه عامل مزرعته وأسرته، وكذلك معصرة زيتون، ومخبز، وحظيرة للدواجن، ومنزل جرت تهيئته ليُستخدم في صنع الخمور. وامتد خلف هذه المجموعة الصغيرة من المباني التي تنبسط على منحدر جبلي حتى النهر، ما تبقى مما دعاه مكيافيلي «تركته الصغيرة»، وهي عبارة عن بستاتين زيتون، ومراعٍ، وكروم، وغابة من أشجار السنديان تُسمى «كافاجيو» Caffagio. وفي الأفق البعيد، كان المرء يستطيع أن يرى في مرمى بصره بوضوح من حديقة منزل مكيافيلي قبة كنيسة سانتا ماريا ديلا فيوري، إلى جانب رؤية شاهد على الضربة القاصمة التي تلقاها مكيافيلي من إلهة الحظ ألا وهو برج الجرس في قصر مجلس السيادة.

وبنهاية أبريل/نيسان، استقر مكيافيللي في هذه البيئة الجميلة والريفية في حالة من الاكتئاب وخيبة الأمل. فقد سكن في هذا المكان كما كتب لفرانشيسكو فيتوري، «لا يرى وجه إنسان.» ولم يكن هذا صحيحًا تمامًا، فقد كان بمعيته ماريتا التي تزوج بها منذ اثني عشر عامًا، والتي كانت في ذلك الحين في أشهر حملها الأخيرة في طفلهما السابع. وقد مات أحد أولادهما وهو رضيع عام ١٥٠٦م، وتبقى لهما ثلاثة أولاد (برناردو، ولودوفيكو، وجيدو) وابنتين (بريميرانا وبارتولوميا). كتب مكيافيللي إلى جيوفاني، ابن أخته الراحلة بريمافيرا، في يونيو/حزيران قائلًا: «ماريتا وجميعنا في حالة جيدة.» وأنجبت ماريتا عقب ذلك بشهر ابنتهما التي ماتت بعد الولادة مباشرة. وقد كان لهذا أثره العميق على مكيافيللي الذي كانت حالته المعنوية في غاية السوء. وكتب مكيافيللي إلى جيوفاني في مطلع شهر أغسطس/آب ليُنبئه بموت الرضيعة قائلًا: «أشعر أنني سليم من الناحية الجسدية، لكنني عليل في كافة النواحي الأخرى، ولم يعد لي رجاء في شيء إلا في أن يساعدني اللّه.» كان هذا هو الحال في صيف عام ١٥١٣م، حتى جلس على مكتبه في الألبيرجاتشيو، وشرع في التقاط ريشته وبدأ في تأليف عمل مغاير تمامًا لأبيات الشعر التي كان يكتبها لآل مديتشي. كان مكيافيللي على وشك أن يحقق أقصى استفادة ممكنة من ظروفه العصيبة.

إن التقاعد الإجباري في منزل ريفي له مزاياه، كما جاء عن بترارك، فلطالما مدح الكتّاب الرومان القدامى، مثل بلني الشاب Pliny the Younger، المنزل الذي يوجد في الريف. وقد تناول بترارك الموضوع بحماس في كتابه De vita solitaria، الذي يحاول أن يبرهن فيه أن الثقافة والتأمل يتطلبان الانسحاب من مجالس الرجال إلى حياة هادئة في سكينة الريف. لقد آثر مكيافيللي العيش في المدن والحياة المفعمة بالنشاط على نحو يفوق تقريبًا أهل الأرض جميعًا، ومع ذلك شرع

مكيافيللي في تحقيق أقصى استفادة ممكنة من حياته الهادئة في قرية سانت أندريا إن بركوزينا، كما ذكر في خطاب إلى فيتوري في العاشر من ديسمبر/كانون الأول. ومع أن وجوده هناك كان مبعثًا للضجر والانزعاج والخوف من الفقر والموت، فإنه تخلص من مخاوفه عن طريق الدراسة والكتابة عن الموضوع الذي دعاه من قبل «أفعال الرجال وطرقهم في صنع الأشياء.»

وكان الدافع وراء خطاب مكيافيللي هو خطاب كان قد تلقاه من فيتوري منذ فترة وجيزة، إذ استهل فيتوري خطابه قائلًا: «لقد عزمت على أن أصف لك حياتي في روما.» وما تلى ذلك كان عرْضًا لأحداث يوم معتاد في حياة سفير في روما، فعلى ما يبدو، كان فيتوري يقضي أيامه في دوامة من الضيافات التي تتسم بالبذخ والترف (فقد كان يتناول ثلاثة أصناف أو أربعة من الطعام في الوجبة الواحدة تُقدم في أطباق فضية)، ومقابلات مع البابا، ومحادثات مع الكرادلة، واستقبال شخصيات بارزة من خارج البلاد في بيته الفسيح بالقرب من الفاتيكان. والأمر الوحيد الذي كان يزعجه هو أنه منذ أن انتقل من منزله، «لم يعد قريبًا من الكثير من المحظيات كما كان الحال في الصيف الماضي.»

هذه الرواية المثيرة تستدعي إلى الأذهان صورة رجل يأكل الطعام بنهم أمام إنسان يتضور جوعًا، غير أن مكيافيللي لم يستَأْ لهذا. رد مكيافيللي عليه بلطف في خطابه المؤرخ بالعاشر من ديسمبر/كانون الأول قائلًا: «أود أن أخبرك أنا أيضًا عن يومي.» واسترسل مكيافيللي بعدها ليسرد له بالتفصيل كيف كانت أيامه ولياليه تمر في منفاه القسري بعيدًا عن مجالس الرجال.[١]

يستهل مكيافيللي يومه العادي، كما يصفه، قبل بزوغ الفجر، وأول ما يفعله هو إحضار الطعام لأسرته؛ ولهذا كان يقوم بإعداد

مادة لزجة — تُصنع عادة من لحاء نبات الإيلكس المتخمر — ثم يتوجه إلى الغابة حاملًا على ظهره مجموعة من أقفاص الطيور. وبعد أن يطلي هذه الشراك بمادته اللزجة، يصيد عددًا «لا يقل عن اثنين ولا يزيد عن ستة من طائر السمنة.» يتلهى مكيافيللي بعد ذلك في أمور أخرى مثل تقطيع حطب وقود المدفأة والثرثرة مع الحطابين في غابته، ثم يذهب بعدها إلى كوخ تظلله الأشجار حاملًا تحت ذراعه كتابًا لدانتي أو بترارك «أو أحد الشعراء الأقل منهما شأنًا» ليقرأ عن «مشاعرهم الغرامية» وفي ذات الوقت يتذكر بسعادة لذة الغرام الذي عاشه بنفسه. ثم يعود أدراجه إلى القرية حيث يعرج على الحانة القريبة من منزله ليلغو مع المسافرين الذين توقفوا للاستراحة، وعندئذ يحين موعد وجبة الغداء comesto، التي يتناولها مع عائلته في الألبرجاتشيو. (وكنموذج للاكتفاء الذاتي لم يكن يضع على مائدته شيئًا من غير نتاج حدائقه أو حقوله أو مراعيه.) وبعد الغداء يعود إلى الحانة ليقضي ساعات ما بعد الظهيرة مع جماعة من أبناء القرية مثل: صاحب الحانة، والجزار، والطحان، والعديد من العمال الذين يعملون في قمينة طوب مجاورة. وكانوا يلعبون لعبة الأوراق التي تسمى كريكا cricca (التي كانت محظورة في فلورنسا قبل خمسين عامًا) ولعبة التريك تراك tric-trac، وهي إحدى ألعاب الطاولة والشبيهة بلعبة النرد. وكانت المنافسة حادة للغاية في هذه الألعاب مما كان يسفر عن «آلاف من المشاجرات وعدد لانهائي من السباب والألفاظ اللاذعة.» ولم يغب عن ذهن مكيافيللي المأزق المأسوي للمستشار الثاني السابق لجمهورية فلورنسا الذي يقوم برمي زهر النرد ويحرك أقراص اللعب من جانب إلى آخر على لوحة الطاولة في حانة ريفية، فنجده يقف فجأة ليتعجب «ألا يخجل القدر من معاملتي هكذا.»

ويعود مكيافيللي إلى منزله عند الغسق بعد أن يفرغ من هذه الألعاب المثيرة للجلبة والشغب، وعندئذ فقط يستهل يومه بحق. ويقدم خطابه إلى فيتوري لمحة من السلوان الحقيقي الذي وجده في حياته التأملية. إذ يتنحى جانبًا كل من الضجر واللهو التافه، فما إن يدخل غرفة مكتبه حتى ينزع عنه ملابسه العادية المتسخة ويتسربل «بملابس البلاط الملكي والقصر»، كما في الأيام الخوالي. وبعدما يرتدي مكيافيللي هذا الزي، يدخل «بلاط القدماء الموقر» — إذ يدخل عوالم رجال مثل الإسكندر الأكبر، وزينوفون، ويوليوس قيصر — ويغذي نفسه «على هذا الطعام الذي لا يخص أحدًا سواي، ولأجله ولدتُ» كما يقول. ويتجاذب مكيافيللي أطراف الحديث مع هؤلاء الحكام القدامى، مستفهمًا منهم عن الدوافع وراء أعمالهم، وهم «يجيبونني بدافع من عطفهم الإنساني. ولا أشعر بأي نوع من الضجر طيلة أربع ساعات هي المدة المنقضية في كل مرة أفعل فيها هذا، وأنسى كل معاناتي، ولا أتوجس خيفة من الفقر ولا أهاب الموت، فأنا أطمس تمامًا هويتي فيهم.» ولكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد كما يخبر مكيافيللي فيتوري، فهو يتناول قلمه، ثم «أدوّن ما أنتفع به من حديثهم». وقد حول مكيافيللي هذه المدركات إلى «دراسة قصيرة» أسماها «حول الإمارات» On Principalities.

ويعد هذا أول مرجع معروف لعمل مكيافيللي الذي سيتحول فيما بعد إلى كتاب «الأمير»، ولعل مكيافيللي شرع في هذه الدراسة في أغسطس/آب، حينما كان مُنغمسًا في أغوار الكآبة، وقد أنهاه بأكمله تقريبًا، وذلك بفضل وقت الفراغ الجبري الذي كان يعيش فيه، وفي ذات الوقت كتب خطابه إلى فيتوري في الأسبوع الثاني من ديسمبر/كانون الأول. ورغب مكيافيللي في أن يرسل المخطوطة إلى فيتوري، كي يبدي رأيه فيها من جهة، ومن جهة أخرى، بل وفي المقام الأول، كي يقدمها إلى جوليانو دي مديتشي الذي كان ينوي أن يهديها إليه. فقد اعتقد أن

جوليانو قد يستفيد من الحكمة التي تزخر بها هذه المخطوطة، فقال: «وانطلاقًا من هذه الدراسة التي أجريتها بنفسي، والتي إذا قُرئت، فإنها ستكون البرهان على أنني دأبت على مدار خمسة عشر عامًا على دراسة فن الحكم، وعلى أنني لم أنم أو أعبث قط. وإنه لمن دواعي سرور أي فرد أن ينتفع بقدرات شخص يتمتع بهذه الخبرة الوافرة.» هكذا أنهى مكيافيللي خطابه بنبرة متفائلة.

ورد فيتوري عليه في خطاب عشية عيد الميلاد بأسلوب مهذب، سائلًا أن يرى هذه المخطوطة. وعلى الفور أرسل مكيافيللي رزمة كبيرة من الأوراق إلى روما، أما بقية المخطوطة فقد قال عنها مكيافيللي إنه لا يزال «يراجعها وينقحها»، إلا أن رد فيتوري على ما قرأه يمكن وصفه في أحسن الأحوال بأنه كان فاترًا، إذ أقر في خطاب مؤرخ بالثامن عشر من يناير/كانون الثاني أنه استمتع بما قرأه، لكنه قرر أن يرجئ إبداء رأيه بشأن ما إذا كان ينبغي تقديمه إلى جوليانو أم لا إلى حين أن يطلع على العمل بأكمله. وكان فيتوري توّاقًا أكثر إلى أن يناقش معه تجربته مع فتاة شابة تُدعى كوستانزا ابنة أحد جيرانه والتي تبلغ من العمر عشرين عامًا، فتأوه فيتوري قائلًا: «لقد أوشكت أن أصبح أسيرًا لكوستانزا» واسترسل فيتوري في حديثه قائلًا: «لسوف أتجرأ وأقول لك إن عينيك لم تقع على واحدة أكثر جمالًا أو فتنة منها.» وبعد أن ستر مكيافيللي إحباطه من خطاب صاحبه، رد عليه ببعض النصائح التي تمكنه من السيطرة على كوستانزا. فجاءت النصيحة التي يحاول هو نفسه جاهدًا أن يتبعها، وهي ذات النصيحة التي يأمل أن يقدمها للأمراء لو أتيحت له الفرصة، إذ كانت مفاهيمه عن فن الحكم لا تختلف كثيرًا عن نصيحته للنجاح في الحب، فكتب إلى فيتوري قائلًا: «واجه إلهة الحظ فورتونا مباشرة واتبع أي سبيل ترسله إليك السموات المتعاقبة

والظروف سواء عن طريق الزمن أو عن طريق البشر الموجودين بعتبة داري.»

وعلى الفور ألقت الإلهة فورتونا والسموات المتعاقبة بالمزيد من البلايا على عتبة دار مكيافيلي، فبعد مضي أشهر عدة، وبالتحديد في مايو/أيار، ألح مكيافيلي على فيتوري المتملص بأن يمنحه ردًا أمينًا بشأن ما إذا كان سيرسل العمل إلى جوليانو أم لا. ولعل فيتوري كان قد أجرى بعض الاستفسارات في روما، وعلى مضض أجاب بالنفي. ومرة أخرى خابت آمال مكيافيلي بشدة، ووصف حاله باستياء في خطاب إلى فيتوري مؤرخ بالعاشر من يونيو/حزيران قائلًا: «لقد فنيت ... لا أستطيع أن أجد أي شخص يتذكر خدماتي أو يرى أنني أصلح لشيء.» وربما ألهاه عمله في كتاب الأمير والإمارات لبضع ساعات كل مساء، معينًا إياه على أن يتجاوز مشاعر الدونية والاكتئاب، لكن بدا الأمر وكأن الكتاب لن يُستخدم في شيء. فقد وضعت الدراسة القصيرة جانبًا كي تلتقط الأتربة.

لكن يا ترى لماذا رفض فرانشيسكو فيتوري تقديم العمل إلى جوليانو دي مديتشي؟ أكان مكيافيلي شخصًا منبوذًا للغاية في بلاط آل مديتشي إلى درجة لا يمكن إغفالها في بلاطهم؟ أم أن فيتوري أدرك إمكانية حدوث نزاع من جرّاء عمل مبدع لكنه ثوري؟

وبالطبع، أدرك فيتوري على الفور أن كتاب «الأمير» هو جزء من تقليد أدبي ممتد معروف «بمرايا الأمراء». وكان كتاب On Kingship لتوما الإكويني، و The Government of Princes لجيلز الروماني Giles of Rome، اللذان يرجعان إلى القرن الثالث عشر، هما اثنين من أشهر الأمثلة لهذه النوعية من الكتب. وهي عبارة عن كتيبات تقدم الإرشاد السياسي لزعماء الدول الجدد. وعلى غرارهم يتناول كتاب

«الأمير» نفس الموضوع الذي أطلق عليه مكيافيللي اسم «فن الحكم.» وهو يقدم تعليمات عن كيفية حكم الإمارات، مع ذكر خاص لتلك الأراضي التي اكتُسبت بواسطة «سواعد الآخرين وثرواتهم.»[٢] ومما لا شك فيه أن اهتمام مكيافيللي الشديد بكيفية تعزيز السلطة المكتسبة بهذه الطريقة — كمقابل لطريقة حكم إمارة منتقلة بالوراثة — نبع من حدث عودة المديتشيين إلى فلورنسا، الذي يُعزى إلى حسن طالعهم وإلى الرماح الإسبانية. وعليه من المفترض أن يكون العمل وثيق الصلة بجوليانو دي مديتشي، إلا أن العمل يحمل ما ينيف على مجرد المصلحة القومية لفلورنسا. إذ يتجول مكيافيللي، باستخدام ثلاثين ألف كلمة، بحرية وبدراية تامة عبر الآلاف من السنين، ممحصًا أعمال حكام مثل حنبعل الشهير باسم هانيبال Hannibal، والإسكندر الأكبر، وأغاثوقليس Agathocles طاغية سيراقوسة المتوحش، وقد أدمج أيضًا العديد من الأحداث المعاصرة في التاريخ الإيطالي، بالإضافة إلى سيزار بورجيا في دور البطولة.

وتقدم الأطروحة قدرًا لا بأس به من النصائح العملية. يقترح مكيافيللي الطريقة التي ينبغي بها تنظيم المليشيا الوطنية (الذين هم أفضل بكثير من جيوش المرتزقة)، ويناقش ما إذا كانت الحصون تلعب دورًا هامًّا أم لا، ولماذا يحظر تغيير نظام الضرائب، ويوضح الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الأمير عند اختيار وزرائه، وكيف يعامل مرءوسيه. ولايستحي مكيافيللي من أن يقدم واحدة من أبشع المشورات على الإطلاق إذ يقول في لهجة تحذيرية: إذا رغب أمير جديد أن يُحكم قبضته على ممتلكاته، فعليه أن يذبح الحاكم المطرود وعائلته بأكملها. ويختتم مكيافيللي العمل باستغاثة وجدانية بعائلة مديتشي اللامعة لأن تكون مخلّصة إيطاليا — أي لتنقذها من «الأعمال الوحشية والبربرية ومن الاعتداءات» التي يقوم بها الغزاة الأجانب.

ورغم كثرة الدراسات السابقة التي تتناول موضوع حكومة الأمراء، فإن مكيافيللي ابتكر شيئًا جديد تمامًا، فمع أن موضوع كتابه «يتحدث كثيرًا عن أمور سبق الحديث عنها»، فهو يشير إلى أن المؤلفين السالفين لطالما ناقشوا الأمور من منظور تجريدي وغير عملي. فمكيافيللي لا يأبه بتأثير الحجج والبراهين على الورق وإنما يكترث لمدى نفعها في البلاط الملكي، أو في ساحة المدينة، أو في ميدان القتال. ويُطالب مكيافيللي «بتقديم الأشياء على ماهيتها، كما هي في الحقيقة، وليس كما يخالها المرء.» وكانت ثمرة تقصيه هي «منظومة قواعد بديعة»، ولعل ما هال فيتوري هو ماهية بعض من هذه القواعد.

وفي قلب كتاب «الأمير» تكمن التساؤلات الفلسفية التي تصارع معها مكيافيللي في خطاباته إلى بارتولوميو فيزبوتشي عام ١٥٠٣م وفي خطاباته إلى جيوفان باتيستا سودريني بعدها بثلاث سنوات. وقد جاءت خطاباته الأولى في أعقاب رد فعله المتحير بشأن سوء حظ سيزار بورجيا وحسن طالع يوليوس الثاني اللذين يتعذر تعليلهما. لكن حينما استكان مكيافيللي بائسًا في قرية سانت أندريا إن بركوزينا عام ١٥١٣م أصبح لسؤال كيف تبطل فعل «الحظ السيء» — كيف تحلق في عالمٍ تناهضك فيه إلهة الحظ — بُعد شخصي يتعذر الفرار منه. وكان مكيافيللي يحاول أن يكتشف من أجل نفسه ومن أجل الشخص المراد إهداء الكتاب إليه أيضًا، جوليانو دي مديتشي؛ كيفية مواجهة إلهة الحظ بشدة واتباع السبيل الذي تمن به عليه السموات المتعاقبة.

ولم يكن مكيافيللي يتحدث على سبيل المجاز عندما كان يكتب عن الإلهة فورتونا. فلقد نظر مسيحيو عصر النهضة مثل دانتي إلى إلهة الحظ على أنها قوة إلهية — نسائية على وجه الخصوص — خلقها اللّه في نفس الوقت الذي خلق فيه الملائكة التي تحكم السموات. فعلى سبيل

المثال، يصف دانتي إلهة الحظ في الأنشودة السابعة من الجزء الأول من الكوميديا الإلهية المعروف باسم الجحيم بأنها «سلطانة عامة ومرشدة» من شأنها أن تقسم الحظ السيئ والحسن على نحو لا يمكن بدرجة كبيرة التنبؤ به أو تفسيره. وبالمثل، نجد بوكاتشيو Boccaccio في قصص «الديكاميرون» Decameron يولي الكثير من الاهتمام بطبيعة الإلهة فورتونا عديمة الرحمة وغريبة الأطوار. وكانت الراوية في قصصه تتحدث بلسان فلاسفة عصر النهضة فتزعم أن الإلهة فورتونا «تنظم وتعيد تنظيم» شئون الإنسان «بطريقتها المبهمة ... دون أن تتبع أي خطة واضحة.»[٢] ويعني عدم وجود خطة واضحة عند معتنقي هذا الرأي أن الإنسان أضعف من أن يواجه الإلهة فورتونا وأحمق إلى درجة أنه يثق بها. وقد كان الدرس الذي يتبعه مسيحيو عصر النهضة درسًا واضحًا: ثق في أشياء ليست من هذا العالم، بل اكنز لك كنزًا في السماء.

بيد أنه، كانت هناك نظرة مغايرة أيضًا للإلهة فورتونا. ففي عام ١٣٥٣م، ألف بترارك رسالة بعنوان: «التصدي للصالح والطالح من الطالع» De remediis utriusque fortunae، يحاول أن يبرهن فيها أن الرجال لم يكونوا مغلوبين على أمرهم قبالة الإلهة فورتونا، وعليه، بإمكانهم أن يسلحوا أنفسهم ضدها (مع أنه حرص على تحذير قرائه من أن يبنوا سعادتهم على النجاح الدنيوي). وقد تكونت هذه النظرة، التي تعد أكثر النظرات تفاؤلًا عن قدرات الإنسان؛ بواسطة عدد من الكتّاب الذين جاءوا بعد ذلك، والذين كان من بينهم الشاعر والباحث الذي ينتمي إلى نابولي، جيوفاني بونتانو Giovanni Pontano. ألف بونتانو حوالي عام ١٥٠٠م كتابًا باسم On Fortune يقول فيه إنه بالرغم من تقلب مزاج الإلهة فورتونا وخبثها، فإنه يمكن التغلب على قوتها بممارسة الأعمال التي تتسم بالشجاعة والمرونة والحكمة. لقد شدد بونتانو على أن الحكمة، وليست الإلهة فورتونا، هي التي يمكنها

أن تدير دفة حياة الإنسان بحق. وقد انتشرت هذه النظرة أيما انتشار بين الإنسانيين إلى درجة أن السير توماس مور Sir Thomas More كتب عام ١٥١٠م قصيدة بعنوان «كتاب الإلهة فورتونا» The book of Fortune التي تشكو فيها إلهة الحظ من «أعدائها الألدّاء» الذين كتبوا «الكثير من الكتب في ذمها».

وهذا «الذم» يظهر المكانة الجديدة التي يحظى بها الإنسان في نظام الكون، فلم يعد الإنسان تلك الدمية المشئومة التي تتلاعب بها تلك القوى العاتية المتقلبة المزاج، بل أصبح عاملًا مؤثرًا في سير الأحداث، قادرًا على السير ضد تيار الأحداث بل وحتى تغييره. وقد جاء هذا الاعتقاد بأن الإنسان حرٌّ في تشكيل قدره، عن كُتّاب العصور الكلاسيكية في المقام الأول — إذ إن الإنسان يمتلك القوة، مثلما كتب بيكو: «كي يحصل على ما يختاره، ويكون ما يريد أن يكونه». وتجسد اعتقاد الرومان في قدرة الإنسان على استمالة فورتونا، كما دوّن بترارك، في أنهم بنوا لها معابد أكثر مما بنوا لأيٍّ من آلهتهم الأخرى. وقد اعتقدوا أنه يمكن التودد إليها بدرجة كبيرة — مثل المرأة البشرية المخلوقة من لحم ودم — بواسطة رجل يقوم بإظهار بعض الخصال المستحبة مثل الشجاعة وسعة الحيلة. ويضع فيرجيل Virgil في الكتاب العاشر من «الإنيادة» Aeneid على لسان البطل الإيطالي تورنوس Turnus كلمات لشحذ همة الجنود قبيل المعركة تنتهي بالآتي: «تؤثر الإلهة فورتونا الرجل المغوار.» وقد أصبح هذا الشعار في زمن فيرجيل، في القرن الأول قبل الميلاد، ضربًا من ضروب الحقيقة البديهية في الأدب اليوناني. والتصرف الثابت الجأش الذي يمكنه أن يجعل إلهة الحظ تفقد توازنها ويذيب قلبها؛ تجسد في المفهوم الروماني virtus (المأخوذ من الكلمة اللاتينية vir (بمعنى «الرجل الذي يتمتع بصفات الرجولة الحقيقية»)، وهو ما يعد قيمة حضارية تكتنف في طياتها خصالًا مثل الصلابة

والجسارة والعزيمة التي لا تكل ولا تخور لمناهضة البلايا. وقد تُرجم هذا المفهوم في اللغة الإيطالية إلى مصطلح virtù، طبقًا لما ورد في زعم بترارك في رسالته «التصدي للصالح والطالح من الطالع» De remediis utriusque fortunae — أحد أكثر كتبه شعبية وانتشارًا — أن الكلمة الإيطالية virtù هي أفضل مصل للتصدي لنزوات فورتونا. غير أن الكلمة الإيطالية لا تقتضي ضمنًا الجدارة الأخلاقية للكلمة الإنجليزية «virtue» بمعنى «فضيلة» قدر ما تتضمن في فحواها القدرة الذكورية المستمدة من أصلها اللغوي الآخر من الكلمة الإنجليزية «virility»، بمعنى «الفحولة».

وبتناول مكيافيللي للمفهوم «الإنساني» للكلمة الإيطالية «virtù» في «الأمير»، فإنه يقرر بذلك أنه يمكن — على الأقل بدرجة ما — كبح زمام عجلة حظ الإلهة فورتونا أو ضبطها. فهنا في «الأمير» تتنحى جانبًا الجبرية الكئيبة التي وسمت خطابه عام ١٥٠٦م إلى جيوفاني باتيستا سودريني؛ مفسحةً الطريق لبصيص من الرؤية المتفائلة لعمل الإنسان. ولكي «لا يستبعد إرادتنا الحرة» يصل إلى معادلة «تسيطر فيها فورتونا على نصف الأشياء التي نفعلها، تاركة لنا النصف الآخر لنحكمه بأنفسنا.» وقد برزت هذه النسبة باستخدامه لاستعارتين شهيرتين يصف بهما قوة فورتونا وطرق قمعها. وربما ألهمه في أولاهما التدفق المنتظم لنهر أرنو، أو لعلها تلك الخبرات المثبطة للهمة التي اجتازها من جرّاء مشروع القناة خارج بيزا، يكتب مكيافيللي قائلًا: «أشبه الإلهة فورتونا بنهر هائج، عندما تنتابه حالة من السخط، يُغرق السهول، ويقتلع الأشجار والمباني، ويجرف التربة من مكانها ليضعها في مكان آخر.» وربما تصدى لهذا الاهتياج المدمر الذي بدا أنه لا يمكن إيقافه؛ بعض من هذه الأشياء مثل — وهنا يتحدث وكأنه خبير في مشروعات الهندسة الهيدروليكية — «إنشاء الخنادق والسدود، ومن

ثم عندما يفيض النهر، فإنها ستلتزم بدفع المياه إلى مجرى واحد، أو ستقل حدة قوتها الدافعة وخطورتها.» ولعل دورة حياة الإنسان، شأنها في ذلك شأن دورة النهر، تتغير بممارسة الإبداع وبالحيطة عندما يقتضي الأمر.

أما عن الاستعارة الثانية التي استخدمها مكيافيللي فهي تلمح إلى حقيقة أنه يُنظر دائمًا إلى فورتونا على أنها قوة أنثوية، إذ يَعتقد أنها، شأنها في ذلك شأن أي إمرأة، تردُّ بكل ما أُوتيتْ من قوة على معاملتها بطريقة فظَّة. ويرجح أنه عند التعامل مع الإلهة فورتونا، يُستحسن أن يتصرف المرء بتهور واندفاع «ذلك لأن إلهة الحظ امرأة وإذا كانت على وشك الإذعان لك، فمن الضروري أن تضربها وتقهرها.» وعلى الرغم من أن هذا التشبيه مُستهجن، فمن الجدير بالذكر أن نورد أن تفسيرات المفاهيم الفلسفية القائمة على أساس الجنس لها تاريخ طويل، وأن مكيافيللي يتحدث في أماكن أخرى عن نيل استحسان الإلهة فورتونا عن طريق الصداقة والعمل المتناغم. وفي الواقع، لم تكن فكرة تعذيب الإلهة فورتونا حتى تذعن هي فكرة مكيافيللي في المقام الأول، فقبل سبعين عامًا، في كتاب The Dream of Fortune الذي كتبه إينياس سليفاس بيتشولوميني Aeneas Silvius Piccolomini، زعمت فورتونا أنها تزدري هؤلاء «الذين يفرون منها» وتحبذ هؤلاء «الذين يجعلونها تفر منهم». والمحصلة على أية حال هي أنه يمكن للمرء أن يسيطر على فورتونا المتقلبة المزاج — وفي هذه الفكرة الفلسفية وجد المستشار الثاني السابق عزاءه، إذ تأخذ فكره بعيدًا عن منفاه المنعزل في الألبرجاتشيو.

وفي رأي فيتوري، لم يكن بين جملة هذه الأشياء شيء مقيت بعينه — ولا شيء مبتكر. فقد كان مكيافيللي يستخدم مفردات مألوفة يستخدمها الإنسانيون كي يستجلي المفاهيم والتساؤلات الفلسفية

الموجودة منذ أمد طويل. لقد تشابهت تعليلاته وأيضًا النتائج التي يتوصل إليها مع مثيلاتها عند بترارك، وبيتشولوميني Piccolomini، وبونتانو Pontano. غير أن ثمة جزءًا بالغ الأهمية في «الأمير»، يتسم بنفاذ البصيرة في مسألة طريقة حكم البلاد، لم يره فيتوري قط في أي من هذه الأعمال، ألا وهو «منظومة قواعده المبتكرة» — التي هي أطروحة تقلب الأخلاقيات السياسية رأسًا على عقب، والتي يبدو أنها صدمت فيتوري طارحة إياه في حالة من الصمت المتحفظ الطويل.

عادة ما تضمنت «مرايا الأمراء» في عصر النهضة أقسامًا حول قواعد التصرف الأخلاقي، فأدرج جيلز الذي ينتمي إلى مدينة روما، تلميذ توما الإكويني، في الجزء الأول من كتابه «حكومة الأمراء» الذي كتبه حوالي عام ١٢٨٠م؛ أدرج الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الحاكم والرذائل التي يجب أن يحيد عنها. وحوت قائمته التي يمكن إلى حد ما التنبؤ بها عدم الحنث بالقسم، ومراعاة القوانين، وإظهار الرحمة والسماحة، وفي الوقت عينه تحاشي البذخ والترف والجشع وشتى الرذائل الأخرى. بيد أن مكيافيللي رأي أن هذه الأخلاقيات التقليدية هي في الواقع غير ذات جدوى في العالم الوحشي للسياسة الإيطالية. يكتب مكيافيللي: «إن الهوة بين ما ينبغي أن يعيشه المرء وبين ما يعيشه بالفعل لهي واسعة للغاية، إلى درجة أن المرء الذي يغفل الإنجازات التي تمت من أجل أن يرى ما ينبغي عمله، فإنه يتحرك نحو دمار ذاته بدلًا من الحفاظ عليها.» فالوصفات الزائفة المعنية بحفظ القَسَم وإظهار الرحمة هي جميعها جديرة بالثناء على الورق فقط، لكن الرجل الذي ينقل هذه القواعد الأخلاقية إلى الساحة السياسية يجد نفسه عرضة للفضيحة والخطر. ويقدم مكيافيللي بُعدًا جديدًا للأخلاقيات السياسية ألا وهو: «الحقيقة التي تقر بأن الإنسان الذي يرغب في التصرف أن يتصرف بنزاهة في جميع طرقه، حتمًا سيشعر بالحسرة بين الكثير من

الأشرار. ومن ثم إذا أراد الأمير أن يحافظ على حكمه، يجب ألا يُعد لأن يكون فاضلًا، وأن يستغل هذا، أو لا يستغله حسبما يريد.» فالخصال التي يحسبها العالم فضائل، تقود القائد إلى الدمار، بينما تلك التي يراها رذائل فهي تفضي إلى الأمان والرخاء. فالقيادة الجيدة تتطلب أميرًا «يعرف كيف يفعل الشر.»

ويقدم مكيافيللي عددًا من العبر التي تبين أن مراعاة المعايير الأخلاقية التقليدية يمكنها أن تحكم على القائد بالهلاك، إذ يلحظ أن الكرم قد يبدو من الخصال المستحبة التي ينبغي أن يتحلى بها الأمير، بيد أن الاشتهار بالسخاء لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق المصروفات الباهظة التي تستنزف الموارد المالية للدولة وتؤدي إلى الامتعاض والكراهية في آخر الأمر. ومن ناحية أخرى، فمع أنه عادة ما يُنظر إلى الشح على أنه رذيلة، فإنه يقود بالفعل إلى تعزيز قوة الدولة. ويبرهن مكيافيللي على كلامه بضرب مثل لويس الثاني عشر، ملك فرنسا، الذي مكنه «شحه الذي دام طويلًا» من الإبقاء على الضرائب منخفضة، مع أن جيوشه كانت تتألف من أعداد ضخمة من الجنود.

ويظهر مثلٌ أكثر إرباكًا في تنقيح مكيافيللي للفضائل والرذائل السياسية في الفصل الثامن والعشرين بعنوان «لأي مدى ينبغي أن يحترم الأمير كلمته.» فيقر مكيافيللي بأنه مع استحباب أن يوفي الأمير بقَسَمِه و«أن يستقيم في تعاملاته بدلًا من اتباع الخداع والمراوغة» فإن المرء لا يمكنه أن يتجاهل الحقيقة التي تقر بأن عددًا من الأمراء حققوا نجاحات عظيمة من طريق فعل العكس تمامًا. ويذكر في هذا الصدد البابا ألكسندر السادس بالتحديد، وبلا شك ينجلي في ذهنه أيضًا البابا يوليوس الثاني الذي شاهده بأم عينيه يحنث بوعوده «بجرة قلم.» من ثم، فإن الحنث بالقَسَم ومعرفة كيفية فعل الشر بدلًا من اتباع الفضائل التي يجب أن يتحلى بها الكرادلة؛ مكّن هؤلاء البابوات من تحقيق

أهدافهم السياسية. ومع ذلك يعترف مكيافيللي أن الاشتهار بالخيانة يمكن أن يضر بالقائد. ففي عام ١٥٠٥م وبّخ جيانباولو باليوني لأنه بنقضه كلمته للفلورنسيين سينظر إليه الجميع على أنه «جواد متعثر في خطواته حتى إنه لا أحد يمتطيه خشية أن تُكسر رقبته.» ولتحاشي الاشتهار بأنه شخص يحنث بقَسَمه، فإن الأمر يتطلب نوعًا من النفاق. ووفقًا لرأي مكيافيللي، لا ينبغي علي الأمير أن يلتزم باتباع النزاهة والشفقة والكرم بحذافيرها، بل كل ما هنالك أن يتظاهر فقط بممارستها، مُستغفلًا رعيته وحلفاءه ومُقنعًا إياهم باستقامته بينما يمارس مؤامراته الخبيثة في الخفاء.

وقد برر مكيافيللي تقديمه مثل هذه النصائح غير المألوفة للأمراء، بأن الرعية أنفسهم والبشرية عامة يعيبهم القصور الأخلاقي. فلكونه دارسًا للطبيعة الإنسانية، وشاهد عيان للكثير من أعمال القسوة والجبن، وضحية لمدبري المكائد والمغتابين الذين تسببوا في طرده من منصبه، ولزجِّه عن طريق الخطأ في مؤامرة ثم تعذيبه في سجن ستينش؛ فإن مكيافيللي كان أكبر من مجرد شخص مولع بالانتقاد جلس بمرور الوقت ليكتب نقده عام ١٥١٣م. ويصر مكيافيللي على أنه من الضروري أن يعرف الأمير كيف يفعل الشر وذلك لأن الناس أنفسهم أشرار. يكتب مكيافيللي في واحدة من أكثر الفقرات بغضًا للجنس البشري أن «المرء يمكنه أن يعمم هذا على كافة البشر، فهم ناكرون للجميل، وكذبة متقلبون، ومخادعون، يتحاشون الخطر ويتلهفون للربح.» وفي رأيهم «لا تدوم أواصر الصداقة طويلًا ولا تجدي في شيء»، أما فيما يخص روابط الحب والعرفان فهي تنقطع كلما سنحت الفرصة أو كان وراء ذلك منفعة. إذن ما هو الخيار المتبقي أمام أمير يعيش في مثل هذا الكون الذي تشوبه القسوة والظلمة الأخلاقية، غير أن يتصرف بنفس القدر من الوحشية والغدر؟

وثمة تبرير آخر لمثل هذه الوصفة المثبطة للهمة هو أنها تقود إلى المجد الدنيوي والحفاظ على الدولة. زعم توما الإكويني في كتابه On Kingship أنه ناهيك عن أن هذه النهايات محمودة في حد ذاتها، فإنها دائمًا ما تخضع لهدف أسمى ألا وهو الثواب الأبدي في الآخرة، والتي تعد بالنسبة للروح أكثر أهمية من الدولة. من ثم، كان رد الفعل الذي طرأ على أذهان المسيحيين تجاه هذا النوع من السلوك الجائر الذي يحاجج عنه مكيافيللي في «الأمير»؛ هو العذاب الأبدي الذي سيلقاه فَعَلَةُ الإثم، فقد كانت عاقبة حنث جويدو دا مونتفلترو بالقسم، كما ورد عن دانتي في الكوميديا الإلهية، هي إلقاؤه في الوادي الثامن من الجحيم. ومع ذلك لم يكن لدي مكيافيللي ما يقوله بشأن العقاب في الآخرة، فتفسيره الوحشي والوقح لعبارة «كيف تفعل الشر» في سياق يتسم باللامبالاة والاستخفاف بالعقيدة المسيحية؛ كان له الفضل في اكساب مكيافيللي مثل هذه السمعة المشينة في آخر الأمر. وكما كتب المؤرخ الإنجليزي اللورد ماكولي Lord Macaulay عام ١٨٢٧م، إنه من المستحيل أن تقرأ كتاب «الأمير» دون أن ينتابك «الفزع والذهول»، وقد ذكر أن «مثل هذا العرض الشرير ... ومثل هذه الوحشية الفاترة والمتسمة بحسن التمييز والدقة، لهما من أعمال شيطان وليس أكثر الرجال فسقًا.»

ومن المحتمل أن فرانشيسكو فيتوري لم ير العمل بمثل هذه الوحشية والفسق كما رآه الكثير من القراء فيما بعد. غير أنه خلص إلى أن مما لا يدع مجالًا للشك أن أكثر الادعاءات إثارة للنزاع في كتاب «الأمير»؛ لن تنجح في أن تجعل من مؤلفه شخصًا مرغوبًا فيه في البلاط المديتشي، فهذا الدفاع البيّن عن النفاق وخلو السياسة من الأخلاقيات لا يُجدي إلا في أيدي أعداء الحكم المديتشي، وما أكثرهم في فلورنسا في عام ١٥١٤م. أثمة شيء أكثر وقاحة من تقديم «دليل للطغاة» — كما

سيُرى عاجلًا في الكتاب — إلى أحد أعضاء العائلة التي كانت تحاول أن تدحض الصيت الذائع عنها بأنها سارقة للحريات الفلورنسية؟

وقد حث فيتوري مكيافيللي على أن ينسى الطموحات الدنيوية — مستخدمًا العبارات التي استخدمها مكيافيللي في «الأمير» من باب السخرية — وأن يستسلم لقسوة وتقلب فورتونا. لقد زعم أنه قرأ بنفسه كتاب بونتانو On Fortune، ووصف رسالته (على نحو غير دقيق) باعتباره أحد الكتب «التي يوضح فيها المؤلف أنه لا الموهبة ولا الفراسة ولا الجلد ولا أيًّا من الفضائل الأخرى تكون ذات طائل على الإطلاق بدون مساعدة الإلهة فورتونا.» ويعارض فيتوري بشدة الفقرة المتفائلة في «الأمير» فيما يتعلق بضرب فورتونا ضربًا مبرحًا حتى الإذعان. لقد رأي أن صديقه كان يخدع نفسه من فرط الحزن عندما اعتقد أنه بإمكانه إيقاف عجلتها. لقد كتب إلى مكيافيللي يخبره أنه لا يمكن فعل أي شيء حيال ذلك إلا أن نقبل ما قُدِّر لنا، «وأنت بالأخص … ينبغي أن تقبل نصيبك.»

ولم تكن هذه النصيحة نافعة، فحينما كتب فيتوري هذه الكلمات، أقلع مكيافيللي عن آماله في العودة إلى السلطة، ليس هذا فحسب، بل أيضًا عن دراسته حول أفعال الرجال وطرقهم في صنع الأشياء. كتب مكيافيللي إلى فيتوري في صيف ١٥١٤م قائلًا: «لم أعد أُسر بقراءة أعمال القدماء أو بمناقشة تلك التي للمعاصرين.» والآن، وبعد أن استُنفزت جهود مكيافيللي، بدأ يعتقد هو أيضًا أنه حتى الرجل الذي يتحلى بالفحولة ليس بمقدوره أن يسود، بمجرد أن تدير الإلهة فورتونا ظهرها له.

الفصل السادس عشر

لم يكن سبب هجر مكيافيللي لحياته البحثية هو إحباطه لدى رد الفعل تجاه «الأمير» فحسب، بل ثمة سبب سعيد أيضًا، إذ وقع في الحب، فراح يخبر فرانشيسكو فيتوري في صيف عام ١٥١٤م أن الإلهة فورتونا أخيرًا ابتسمت له قائلًا: «وبينما كنت في الريف، التقيت بمخلوقة غاية في الجمال، غاية في الرقة، غاية في النبل — في طبيعتها وحالها — لا يستطيع مدحي ولا حبي لها أن يوفيها حق قدرها.»

بيد أن هوية هذه المخلوقة الفاتنة النبيلة غير معروفة يقينًا. ويبدو أنها ليست عاهرة مثل لاريكيا أو جيني وإنما امرأة هجرها زوجها، وهي أخت لرجل من أهل الريف يُدعى نيقولو تافاني Niccolò Tafani، وقد هرب جيوفاني، زوج أخت تافاني، إلى روما ومعه مهر زوجته، مما دفع تافاني أن يلتمس مساعدة مكيافيللي من أجل العثور على ذلك الوغد. وقد قدم مكيافيللي المساعدة بأن التمس بدوره مساعدة فيتوري — وفي تلك الأثناء وجد مكيافيللي نفسه وقد وقع في «شباك ذهبية نسجتها الإلهة فينوس» وقد جعلته العلاقة يحيا في حالة نادرة من الطمأنينة. وقد أخبر فيتوري قائلًا: «حتى وإن مررت بعناء شديد، فإنني أشعر بلذة غامرة بسبب البهجة التي يجلبها لي ذلك الوجه الرقيق النادر الوجود، وبسبب أنني نحيت جانبًا كل ذكريات أحزاني.»

ولا يوجد ما يدلل على رد فعل ماريتا الحادة المزاج والمتقلبة تجاه هذا العبث الأخير من جانب زوجها، إن كانت قد علمت عنه بالفعل. لكن الاثنا عشر عامًا من الزواج جعلتها حتمًا تعتاد الطرق التي يتبعها رجل مدمن «للتجول والطواف».

وربما وضع مكيافيللي كربه جانبًا، لكنه لم يُقلع تمامًا عن المناقشات السياسية. فقد تسلم خطابًا في ديسمبر/كانون الأول من فيتوري يلتمس فيه نصيحته بشأن أفضل الطرق التي قد تمكن ليو العاشر من الحفاظ على سلطة الكنيسة ومكانتها في خضم المناخ السياسي الحالي. وجه فيتوري مكيافيللي قائلًا: «أينبغي أن يتحالف البابا مع الفرنسيين في محاولتهم استعادة ميلانو، أم أن من الأفضل أن يناصر الإمبراطور وإسبانيا؟ تمعن في كافة الاحتمالات. أعلمُ أنك تحظى بمثل هذا الذكاء إلى درجة أنه بالرغم من مرور عامين على تركك الساحة السياسية، فأنا أعتقد أنك لم تنسَ الحرفة.» حقًّا لم ينس مكيافيللي، فقد رد بخطاب مؤلف من ثلاث آلاف وخمسمائة كلمة، قدم فيه لصديقه النافع من حكمته وخبرته الجديرين بالاعتبار. استهل مكيافيللي خطابه قائلًا: «لا أرى أنه كانت هناك قضية أكثر أهمية من هذه القضية على مدار العشرين سنة الماضية.» ثم عرض مكيافيللي بعد ذلك مزايا وعيوب كلا التحالفين، ووقف في النهاية في صف التحالف الفرنسي. وبعد مرور عشرة أيام، عندما لم يتسلم ردًّا من روما، بعث مكيافيللي إلى فيتوري بخطاب آخر حول نفس الموضوع مؤلف من ألف ومائتي كلمة، قائلًا: «لقد هيجت قريحتي الإبداعية.»

وقد هاجت أيضًا آمال مكيافيللي، فقد اعترف لفيتوري أنه إذا عزمت الإلهة فورتونا أن تجعل الميدشتيين يوظفونه، «سواء في بعض الشئون في فلورنسا أو بالخارج» فإنه سيشعر بالسعادة والرضا اللذين طالما انتظرهما. وقدم فيتوري الخطابين — كما رجا مكيافيللي ذلك بلا أدنى

شك — إلى كل من ليو العاشر وابن عمه جيوليو دي مديتشي Giulio de' Medici، رئيس أساقفة فلورنسا وابن شقيق لورنزو العظيم، البالغ من العمر ستة وثلاثين عامًا. وطبقًا لما ورد عن فيتوري «ذُهل الرجلان من فطنته وأثنيا على حكمه السديد» ومع ذلك «لم يقدما لمكيافيللي أي شيء سوى الكلمات.» ولم تقدم الفاتيكان أي عروض للتوظيف، والشيء الوحيد الذي وصل من روما بواسطة فيتوري هو لفة من خيوط الغزل الزرقاء، التي كان مكيافيللي قد طلبها لصنع جورب لمحبوبته.

ومع ذلك، لم ينضب ينبوع الأمل عند مكيافيللي إلى الأبد، ففي أوائل عام ١٥١٥م بزغ في الآفاق بصيص من الأمل بفضل باولو، شقيق فيتوري، إذ لما كان ليو العاشر عاقدًا العزم على تعيين جوليانو دي مديتشي حاكمًا لرومانيا، ولما كان باولو فيتوري صديقًا حميمًا لجوليانو دي مديتشي، فقد كان من المؤكد أن باولو سيُنصب حاكمًا لإحدى مدن الإمارة الجديدة، وفي مثل هذه الحالة بدا من المؤكد أن مكيافيللي أيضًا سوف ينال أخيرًا شيئًا ما. وبدأ كل من باولو ومكيافيللي في عقد اللقاءات لإجراء المناقشات في فلورنسا، إذ كان مكيافيللي يقدم النصائح حول كيفية حكم الإمارة الجديدة، فنصح باولو بأن يحذو حذو سيزار بورجيا — الذي «ينبغي علي أن أحاكيه في كل المواقف» — وأن يركز على توحيد أراضي رومانيا في دولة واحدة. دهش باولو من هذا الإرشاد، بيد أن آمال مكيافيللي خابت مرة أخرى عندما لم يعارض اقتراح إلحاقه بالخدمة سوى مطران فلورنسا ليس إلا. فما أن سمع بخطط باولو لتعيين مكيافيللي حتى أخبر أمانة البابوية بصرامة «بألا يستعينوا بنيقولو في أي أمر على الإطلاق.» وربما قُدرت نصيحة مكيافيللي، ما لم تكن قد استُقبلت بحفاوة، بيد أنه لم يكن بلا ريب موضع ثقة في أعين المديتشيين.

كتب مكيافيللي في يأس وقنوط بعد مرور عدة أشهر إلى جيوفاني ابن أخته قائلًا: «لقد أصبحت بلا نفع لنفسي ولعائلتي ولأصدقائي، لأن قدري الكئيب أراد لي ذلك.» ومع ذلك امتص مكيافيللي هذه الضربة الأخيرة من الإلهة فورتونا، ثم بدأ كرجل يتحلى بصفات الرجولة الحقيقية، يفكر في طرق أخرى لمواجهة بلاياه، فأخبر مكيافيللي جيوفاني قائلًا: «لسوف أنتظر حتى تحين الفرصة المواتية، لعلي أكون مستعدًا متى جاءت فورتونا الطيبة حتى أُحكم قبضتي عليها.» وعلى الرغم من كثرة الصد الفظ والواضح، فهو لا يزال يأمل أن تكون له علاقة مع المديتشيين. وكان مكيافيللي يعود بين الفينة والفينة في خلال الأشهر التي تلت ذلك ليلتفت إلى بحثه الصغير حول الأمراء والإمارات.

إن آل مديتشي الذين لم يثمر تودد مكيافيللي الدائم إليهم أي نجاح؛ لم يرث أحد منهم ولو أقل القليل من صفات لورنزو العظيم. فقد ورث ليو العاشر عن والده حبه للعظمة وللعيش الرغد (فمن المعتقد أنه علّق بعد اختياره للبابوية قائلًا: «دعونا نتمتع بالبابوية، ما دام اللّه قد منحنا إياها»)، لكنه لم يرث أيًّا من حس أبيه الفني أو مهاراته الدبلوماسية. أما عن جوليانو الذي يعاني مرض الزهري، فقد فشل في إنجاز أي شيء جدير بالاعتبار بمفرده، بينما ابن عمهم، رئيس الأساقفة، بالرغم من تمتعه بالذكاء والاجتهاد فإنه مشوب بالتردد المدمر. وفي نهاية عام ١٥١٥م لقيت الآمال الخائبة في عودة آل مديتشي إلى أمجاد لورنزو العظيم أبشع صورها عندما عاد ليو إلى فلورنسا ليزورها في وسط احتفالات منمقة للغاية، وكان الاحتفال يتضمن رمزًا «للعصر الذهبي» عبارة عن صبي مغطى من رأسه إلى أخمص قدميه بدهان من ذهب — مما أفضى إلى تدمير بشرة الصبي وموته بعدها بثلاثة أيام.

ولعل أكثر أعضاء العائلة عجزًا هو لورنزو، ابن بيرو الراحل المشئوم، ولم يكن لورنزو دي بيرو دي مديتشي يشبه جده الذائع الصيت سوى في اسمه. وقد نحت مايكل أنجلو لوحة للورنزو الشاب (الذي وُلد عام ١٤٩٢م) تجعل منه نموذجًا لحياة التأمل، إذ كان يرتدي زي المحارب القديم، ويجلس في غرفة المقدسات الجديدة في كنيسة سان لورنزو، مستغرقًا في حلم من أحلام اليقظة الهادئة، بينما ترقد الشخصيات المستعارة التي تمثل الفجر والغسق عند قدميه المنتعلتين حذاءً. ومن الصعب على المرء أن يجد صورة كهذه في تعبيرها عن عدم المصداقية بينها وبين موضوعها؛ فقد كان لورنزو بحق شخصًا مغرورًا، وأخرق، ومشاكسًا، وأبله منغمسًا في الملذات، ولم يتمتع بأي لحظة تأمل فلسفية هادئة في حياته قط. ومع ذلك فهو البهلوان الذي انعقدت عليه آمال مكيافيللي في رقي حياته عام ١٥١٥م بل وانعقدت عليه أيضًا آماله لإيطاليا كلها.

وزعم مكيافيللي في مطلع عام ١٥١٤م أنه قد أعجب بالشاب لورنزو دي مديتشي، فكتب عنه في خطاب إلى فيتوري أنه «غمر المدينة بأكملها بالآمال الكبار، ويبدو أن كل الناس بدءوا يرون فيه الذكرى المحبوبة لجده.» وكان هذا الإطراء غريبًا على المسامع للغاية، إذ كان مكيافيللي من بين القلة القليلة من الناس في فلورنسا الذين أطروا على لورنزو، الذي كان يفعل عكس ذلك تمامًا سواء فيما يتعلق بغمر المدينة بالآمال الكبار أو بذكرى جده المحبوب، فقد جعل نفسه غير محبوب حقًّا في عام ١٥١٤م، وذلك بعدم الظهور على الإطلاق بين العامة إلا بصحبة حارس مسلح، علاوة على اغتصاب سلطات العديد من الموظفين المدنيين. وقد ارتكب حماقة أيضًا عندما أطلق لحيته على غرار الإسبان، وأصر على أن يخلع الناس قباعتهم قبل التحدث إليه. ودُونت العديد من الشكاوي عن سلوكه المغرور والمستبد حتى إن أحد

أقاربه — وهو رئيس الأساقفة — كتب إليه خطابًا شديد اللهجة يحثه على أن يكيف نفسه تبعًا لرغبات المواطنين.

بيد أن هذا النداء وقع على آذان صماء، فبالرغم من افتقاره إلى النجاح والخبرة في ميدان المعركة، فقد اختير لورنزو ليشغل منصب «قائد الحرب» Capitano della Guerra في ربيع عام ١٥١٥م، وبذلك أصبح القائد العسكري للجمهورية، ومن ثم يتقاضى راتبًا مرتفعًا للغاية يصل إلى خمسة وثلاثين ألف فلورين في السنة. ومع أنه من المفترض أن يتلقى أوامره من مجلس السيادة، شعر الكثيرون في فلورنسا أنه يعد نفسه في تلك الأثناء كي يحظى بالسلطة المطلقة. وعلى أية حال، هو لا يزال يتصنع التعالي ويهمل الأخذ بمشورة المواطنين، علاوة على أنه لم يستحِ من أن يعلن على الملأ أنه ينظر إلى فلورنسا على أنها كبحيرة راكدة منعزلة عن الحياة مقارنة بروما وبلاط الملك ليو العاشر. وقد أعلن عن رغبته في الحصول على دوقية ميلانو لنفسه (وهي مسألة يستحيل تحقيقها) ثم بعدئذ على أوربينو (وهي مسألة أكثر واقعية). وبحلول عام ١٥١٦م، لم ينفر منه الشعب فحسب، بل أيضًا مجموعة الشرفاء الذين كان معظمهم موالين للمديتشيين. وفي أبريل/نيسان من هذا العام أصبح شخصية ممقوتة للغاية، لدرجة أن شائعات عمت مختلف الأرجاء، وسط تمنيات بأن تكون هذه الشائعات حقيقية؛ أن ملك فرنسا الجديد، فرانسوا الأول، كان يستعد لغزو فلورنسا وإعادة كل من بيرو سودريني والمجلس العظيم للشعب.

عزم مكيافيللي أن يهدي كتاب «الأمير» في ذات هذه اللحظة غير المؤاتية والغريبة إلى لورنزو المحتقر والأخرق وليس إلى جوليانو دي مديتشي — الذي مات من جراء إصابته بمرض الزهري في مارس/آذار ١٥١٦م. وفي وقت ما في النصف الأول من عام ١٥١٦م، كتب مكيافيللي خطاب إهداءٍ إلى «العظيم لورنزو دي مديتشي» يشرح فيه كيف أنه

تمنى أن يقرأ الشاب هذا البحث «بإمعان» ويضعه في حسبانه حتى يتسنى له أن «يصل إلى الرفعة التي تعده بها الإلهة فورتونا ويبشره بها الكثير من خصاله.» إن مطالبة لورنزو دي مديتشي «بإمعان النظر» لهي محاولة مؤسفة لخداع الذات. ومع أن مكيافيللي اعتاد صد آل مديتشي، فإنه اندهش من هذا السلوك المتعجرف الذي أكسب لورنزو مثل هذه السمعة البشعة، إذ قدم الرسالة إلى لورنزو في نفس الوقت الذي أهدى فيه شخص آخر إلى لورنزو، صاحب العظمة، كلبين من كلاب الصيد، ومن المرجح أن يكون لورنزو قد أعرب لهذا الشخص عن شكره بحرارة وامتنان يفوق بكثير جدًّا ما أظهره تجاه رسالة مكيافيللي. وغادر مكيافيللي، كما ورد في القصة، وهو «في حالة امتعاض وقنوط شديد مخبرًا زملاءه بأنه ليس بالرجل الذي يتآمر على الأمراء، وإنما حتمًا ستحدث المؤامرات لو أنهم ظلوا على نهجهم الذي يسيرون عليه.» وسوف يتضح أن كلماته تنبئ بصدق عن المستقبل.

ومع أن مكيافيللي كان لا يزال يقضي معظم السنة في مزرعته في قرية سانت أندريا إن بيركوزينا، فثمة أسباب عدة دفعته في صيف عام ١٥١٧م إلى القيام بزيارات متكررة إلى فلورنسا، فالكثير منها بغرض متعته، إذ أصبح عضوًا في مجموعة تضم عددًا من علية القوم الذين أصبحوا أكثر قربًا له من لاعبي الأوراق في الحانة الموجودة بجانب الألبرجاتشيو.

وكانت حدائق قصر روتشيلاي Palazzo Rucellai التي تقع بالقرب من بوابة أل براتو، تعد الموضعَ الذي شهد أفضل المناقشات الفكرية والسياسية في فلورنسا على مدار الخمس والعشرين سنة الماضية. وأصبحت عائلة روتشيلاي واحدة من أغنى عائلات فلورنسا على مدار القرن الماضي، وكان مصدر ثروتها، وكذلك اسمها، هو نوع

من نباتات الآشنة يُسمى أورتشيلة orcella، الذي ينمو في اليونان وجزر الكناري، وقد استخدمه أحد أسلافه وهو تاجر قماش في صنع صبغة ذات لون أرجواني ضارب إلى الحمرة، تسمى أورتشيلو oricello. واستخدم عضو من العائلة يُدعى برناردو — وهو من بادر بإجراء المناقشات — نصيبه من ثروة العائلة في تجميع القطع الفنية الأثرية ليزين بها واجهة كنيسة سانتا ماريا نوفيلا، وفي الظفر بفرصة الزواج من أخت لورنزو العظيم، نانينيا Nannina. وفي إثر موت لورنزو عام ١٤٩٢م، استضافت حدائق قصره الأكاديمية الأفلاطونية التي كانت تتضمن مجموعة من الفلاسفة والشعراء والإنسانيين الذين كانوا يتجمعون أساسًا في فيلا دي كارجي خارج فلورنسا. وبعد عام ١٥٠٢م أصبحت هذه الحدائق التي عُرفت في ذاك الوقت باسم أورتي أوريتشيلاري Orti Oricellari، مقرًّا لتجمع الزمرة المناهضة لحكومة سودريني. وأصبح برناردو روتشيلاي وأصدقاؤه من مجموعة الشرفاء موالين للمديتشيين، حتى إن برناردو ساعد في تمويل عملية عودة المديتشيين إلى منصبهم عام ١٥١٢م، إذ أقرض جوليانو المال الذي دفعه لرامونا دي كاردونا.

ثم أضحى الأورتي أوريتشيلاري، لمدة تنيف على العقد، مكانًا يُحظر دخول دمية بيرو سودريني، مكيافيللي، إليه — فقد كان مكيافيللي ممقوتًا بشدة في هذا المكان. ولكن بعد موت برناردو عام ١٥١٤م، وبعدما واصل لورنزو دي مديتشي تخريب شعبيته بتصرفاته الاستبدادية، تغيرت الطباع السياسية للكثير من رواد الأورتي أوريتشيلاري. وبمرور الوقت أصبح مكيافيللي زائرًا منتظمًا في عام ١٥١٧م، وأضحى الأورتي أوريتشيلاري مأوى لمناوئي آل مديتشي — مع أنه ينبغي الأخذ في الاعتبار أن الكثير من الأعضاء مثل فيليبو دي نيرلي Filippo de' Nerli، أحد أعضاء مجلس السيادة عام ١٥١٧م

ظلوا موالين للمديتشيين. بيد أن وجود مكيافيللي بين التماثيل العتيقة والبساتين المشذبة في قصر روتشيلاي لا يشير إلى توقه للصحبة الفكرية فحسب، بل أيضًا تحرره من الغشاوة التي تغطي عينيه بخصوص الحكم المديتشي.

وحتمًا وجد مكيافيللي الصحبة الفكرية بين الشباب في الأورتي أوريتشيلاي، فقد أطلق على هؤلاء الزملاء الرواد «أصدقاء الظهيرة» — ربما كمقابل لتعبير «أصدقاء منتصف الليل» وهم الرفقاء الذين كان يقامر معهم والعاهرات اللائي كان يعاشرهن. وبالطبع وجد مكيافيللي في الأورتي أوريتشيلاي التحفيز الفلسفي والتفاعل الاجتماعي الذي يتسم بالمودة ودماثة الخلق اللذين يفتقدهما منذ طرده من منصبه قبل خمس سنوات. وكان المضيف هو كوزيمو رويتشيلاي Cosimo Rucellai ابن شقيق ليوناردو، وهو شاب مصاب بشلل حاد بسبب داء المفاصل، ومصاب أيضًا بالزهري إلى درجة أنه كان يُحمل إلى الحدائق كي يشرف على المناقشات — التي يبدو أنه كان يديرها بفطنة ومهارة — من سرير مصنوع على شكل مهد الطفل. وكان من بين الأعضاء أيضًا باحث في الكتاب المقدس يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا يُدعى أنطونيو بروتشيليو Antonio Brucioli (فيما بعد استرعت ترجماته للعهدين القديم والجديد بشدة أنظار محاكم التفتيش الكاثوليكية Inquisition)، وكاتب مسرحيات يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا، وأحد الأتباع السابقين لسافونارولا (الذي سيصبح فيما بعد مؤرخ فلورنسا) يُدعى جاكوبو ناردي Jacopo Nardi. ومن الأعضاء الذين أصبح مكيافيللي مقربًا إليهم إلى جانب كوزيمو، شاعر مشهور يُدعى لويدجي ألمانيي Luigi Alamanni، وشاب صغير من أسرة فلورنسية عريقة يُدعى زانوبي بونديلمونتي Zanobi Buondelmonti. وقد تجمع كل هؤلاء في المقام الأول ليناقشوا الفلسفة والتاريخ والأدب

وفن إدارة الدولة. لكن، لما كان ناردي يؤلف أغاني المهرجانات شأنه شأن مكيافيللي، فبلا شك كان يُخصص بعض الوقت للعزف على الربابة والتنفيث عن طاقاتهم بإنشاد الأغاني.

وبينما رفض المديتشيون بازدراء أفكار مكيافيللي السياسية ونصائحه، كان يتلهف أعضاء الأورتي أوريتشيلاي لسماع حديثه. وبعد انضمامه إليهم بدأ مكيافيللي على الفور يقرأ على مسامعهم مقاطع من بحث كان يؤلفه على نحو متقطع على مدار الأربع أو الخمس سنوات الماضية، وهو شرح لكتاب كان يعرفه ويبهره للغاية هو كتاب «تاريخ روما» الذي كتبه ليفي — وهو نفس العمل الذي اقتناه والده برناردو عام ١٤٧٥م مقابل تجميع قائمة بأسماء الأماكن للمطبعة التي طبعته. بدأ ليفي في كتابة رائعته الأدبية التي هي أضخم أعماله على الإطلاق نحو عام ٢٩ قبل الميلاد ليصل العمل إلى مائة واثنين وأربعين كتابًا (لم يتبق لنا منها إلا خمسة وثلاثون كتابًا فقط) وغطت هذه الكتب تاريخ روما القديمة بأكمله منذ تأسيسها بعد سقوط مدينة طروادة، غير أنها لا تعد مجرد تأريخ صريح للأحداث إذ يستهلها ليفي كالآتي: «لم توجد بلد على الإطلاق أعظم أو أعرق من بلدنا أو أغنى بالمواطنين الصالحين والأعمال النبيلة منها.» ويزعم ليفي أيضًا في تمهيده أن دراسة التاريخ «هي أفضل دواء للذهن المعتل» لأنها من الممكن أن تقدم له «كلًّا من العبر والتحذيرات، إذ تقدم الأمور الرائعة للاقتداء بها، والأمور الوضيعة كي نتجنبها تمامًا.»

ويتفق مكيافيللي في الرأي مع ليفي في كلا الأمرين. لجأ مكيافيللي إلى وصف ليفي لتاريخ روما البارز كي يستخلص منه الدروس التي يمكن الاستفادة بها ثم يطبقها على الوضع السياسي الواهن لفلورنسا آنذاك. فكر مكيافيللي أنه إذا أمكن فهم الأسباب الكامنة وراء نجاح الجمهورية الرومانية فهمًا صحيحًا، فمن ثم يمكن تكرار تلك الانتصارات

القديمة. وإن كان كتاب «الأمير» يدور حول كيف يمكن الحصول على الإمارة وحكمها والمحافظة عليها، فإن عمله الجديد — بعنوان Discourses on the First Ten Decades of Livy — يهتم بكيفية تأسيس جمهورية مزدهرة والحفاظ عليها. ولم يزل مكيافيللي يتفحص آلية عمل السلطة، إنما هذه المرة من منظور حكومة شعبية وليس من منظور حكومة الأمراء. فحتمًا جعله انقضاء خمس سنوات على الحكم المديتشي الأوليغاركي في فلورنسا يتوق بشدة، مثل زملائه في الأورتي أوريتشيلاري، إلى وجود نموذج حكومي جمهوري أكثر نقاءً.

وهكذا، يعد انهماك مكيافيللي الشديد في «المطارحات» بمنزلة حرية سياسية. ولما كان مكيافيللي يحاول أن يُثبت أن البلدان لا يمكن أن تنتعش اقتصاديًّا وعسكريًّا إلا إذا نعمت بحكومة شعبية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هو كيف يمكن اكتساب مثل هذه الحرية وصونها. ويعتقد ليفي نفسه أن المساعي الحميدة للإلهة فورتونا كانت دائمًا تلعب دورًا أساسيًّا، لكن مكيافيللي كان يؤكد على أن الحرية تعتمد في المقام الأول على مدى تحلي الشعب بصفات الرجولة الحقيقية. ويكشف نموذج الجمهورية الرومانية أنه يجب تنحية المصالح الشخصية للأفراد جانبًا، وتفضيل الالتزامات الوطنية من أجل تحقيق الصالح العام. ويتساءل مكيافيللي بنبرة صارمة على غرار ما يفعله في كتاب «الأمير» قائلًا: كيف يمكن لمثل هذه الرجولة أن تتوطد في سكان مدينة ما بينما معظم أهلها «أكثر نزوعًا إلى الشر منهم إلى الخير؟»[١]

وللإجابة على هذا السؤال المُحير، يُجري مكيافيللي دراسة دقيقة على تاريخ الجمهورية الرومانية ومؤسساتها، فينتبه إلى الدور الذي لعبته القيادة الجيدة، والقوانين التعسفية، والدِّين المُلهم (إذ يروق له بالأخص القَسَم الروماني الحاسم والقرابين الدموية)، والحكومة

المختلطة التي ضمت كلًّا من النبلاء والعامة. وعلى مدار مناقشته المطولة يمتزج الثناء على روما القديمة برثاء الأمجاد المفقودة والتفجع على شئون الدولة — الفساد، والعبودية، والعجز العسكري — في إيطاليا المعاصرة. ثم عندئذ يسلط مكيافيللي الضوء بشدة على عيوب فلورنسا، إذ يرى أن هذه المدينة ملعونة منذ نشأتها، ويذكر في عبارات قاسية في الفصل الأول من الباب الأول أن المدن التي أسسها الآخرون (ويشير إلى أن فلورنسا بناها الأباطرة الرومان) «نادرًا ما تحرز تقدمًا عظيمًا»، وعليه لا يمكن أن تُحصى أبدًا بين «الممالك» الرائدة. ويناقش مكيافيللي في أماكن أخرى من «المطارحات» فكرة أن المدن التي تبدأ حياتها بهذه الحالة من الخنوع لقوة أخرى سوف تجد أنه «ليس صعبًا فحسب بل مستحيلًا أيضًا» أن تجد مخرجًا للحصول على حريتها ثم صونها. إن عظمة فلورنسا وحريتها قد قُضي عليهما في المهد.

وبالضرورة أدهش اهتمام مكيافيللي بالحكومة الشعبية وليست حكومة الأمراء — الحكومة التي تتألف من عدد كبير من الناس وليست تلك التي تتألف من عدد صغير — في كتاب «المطارحات» الكثيرين من أعضاء الأورتي أوريتشيلاي الذين عرفوه بوصفه مؤلفًا لكتاب «الأمير». ومع ذلك لا يزال الكثير من الأفكار المطروحة في هذه الرسالة يبدو مألوفًا لقراء عمله السابق، إذ لا يزال مكيافيللي يثني على استخدام الخديعة في وقت الحرب موضحًا أنه مهما بدا الأمر كأنه غش مقيت، «فإنه يعتبر جديرًا بالثناء في وقت الحرب بل ويجلب معه الشهرة.» وتظهر إحدى العبر الأخرى المألوفة عندما يكتب عن التدابير المشددة التي يجب اتخاذها لحماية الجمهورية من الأعداء فيقول: «عندما يتعلق الأمر تمامًا بأمن بلد المرء، فإنه يجب ألا يكون هناك أدنى اعتبار على الإطلاق لما هو عادل أو غير عادل، أو لما هو رحيم أو وحشي، أو لما هو جدير بالثناء أو مشين.» الشيء الوحيد الذي يجب أخذه بعين الاعتبار

هو ذلك الذي ينقذ الدولة ويصون حريتها. وبلا ريب تأثرت وجهة نظر مكيافيللي في هذا الصدد بما حدث في فلورنسا في ظل حكومة بيرو سوديريني عام ١٥١٢م، إذ يستهجن مكيافيللي طريقة سودريني في اعتماده على «حلمه وصلاحه» واحترامه للقوانين بدلًا من اتخاذ تدابير غير مألوفة — أو حتى تدابير عنيفة وظالمة — كي ينقذ نفسه وكي يحمي فلورنسا من المديتشيين.

وقطعًا تأثر مستمعو مكيافيللي في الأورتي أوريتشيلاي «بالمطارحات»، فهو عمل رائع بلا نزاع، يتحرك فيه مكيافيللي بثقة وانسيابية من الفحص الدقيق لأمور تكاد العين لا تراها إلى المسح البانورامي الشامل للأمور والأحداث. وكان نثر مكيافيللي المسطر ببراعة الذي ينم عن سعة المعرفة ويتسم بالتحريض والحماس؛ لا يهدف إلى شيء سوى تفسير القوانين العامة لفن الحكم. فهو يسعى إلى هذا الهدف بعدة طرق، من بينها طرح الفرضية ثم إخضاع هذه الفرضية للتجريب — وعليه فهو يقدم نموذجًا مبكرًا للمنطق الاستدلالي الذي أرسى بعد فترة وجيزة أساس المنهج العلمي. ويفوق هذا العمل كتاب «الأمير» في تقديم الشهادة على أن مكيافيللي كان يقوم على مدار الخمسة عشر عامًا التي عمل في غضونها في الحكومة بدراسة دقيقة ومتواصلة لفن الحكم.

ولكن، على الرغم من الملاحظات الذكية والمناقشات البارعة، فثمة تناقض غريب من نوعه في لب العمل بأكمله، إذ يذكر مكيافيللي في مقدمة الباب الأول أنه يأمل أن يصحبه قراؤه في دراسة جادة للماضي لكي يحاكوا أفضل القدامى الذين يمكن اتخاذهم قدوة يقتدون بها. ويؤكد لنا مكيافيللي أن المحاكاة ممكنة لأن الطبيعة البشرية لا تتغير عبر القرون شأنها في ذلك شأن حركة الشمس وتكوين العناصر، وعليه يمكن لإيطاليو القرن السادس عشر، من الناحية النظرية، أن ينهجوا

نفس نهج القدامى — تمامًا بنفس صفات الرجولة الحقيقية، غير أن المحاكاة تقتضي ضمنًا الاختيار الواعي. وفي واقع الأمر نجد أن مكيافيللي تشكك كثيرًا في مسألة ما إذا كان من الممكن للبشر أن يمتلكوا حرية اختيار الطريقة التي يتصرفون بها أم لا.

وترد الفقرة المحورية للكتاب في الباب الثالث وبالتحديد في الفصل التاسع تحت عنوان: «كيف يجب أن يتغير الرجل بتغير الأزمنة إذا ما أراد أن ينعم دائمًا بالحظ الطيب». وموضوع التغير بتغير الأزمنة هو موضوع مألوف منذ كتاب «الأمير»، إذ يأتي النجاح إلى الشخص «الذي يكيف سياسته مع الزمن الذي يعيش فيه.» لكن هنا في «المطارحات» نجد أن مجادلات مكيافيللي صارت صدى لملاحظاته التي ذكرها لجيوفاني باتيستا سودريني بصدد أفعال الرجال وطرقهم في صنع الأشياء. يكتب مكيافيللي: «وضعت نصب عيني مرارًا أن دواعي الحظوظ الطيبة والسيئة للرجال تعتمد على الطريقة التي يتعاملون بها مع الأزمنة.» فيرى مكيافيللي أن بعض الرجال يتعاملون «بهمجية» والبعض الآخر «بترو وحيطة». وقد تلقى كل من الطريقتين النجاح بناء على المتغيرات البالغة الأهمية — وهي حدوث ظروف تاريخية بعينها. والحنكة الحقيقية هي في معرفة متى يتعامل المرء بتهور ومتى يستخدم التروي والحيطة.

ومع ذلك، كما هو الحال في خطابه إلى جيوفاني باتيستا عام ١٥٠٦م، ينظر مكيافيللي بنظرة متشائمة جدًّا، إذ يرى أنه ما من أحد يقدر على اجتياز عملية الاختيار هذه بحق. ويطرح مكيافيللي حالتين حديثتين، إحداهما لبيرو سودريني والأخرى ليوليوس الثاني. فينوه مكيافيللي إلى أن الأول قد تحرك «بطيبة وصبر» في كافة شئونه (ربما يثير هذا الادعاء استعجاب واستنكار أهل بيزا الذين تضوروا جوعًا في غضون حصار سودريني لمدينتهم عام ١٥٠٩م). ونجح سودريني

عندما كان زمنه يتطلب اتباع هذه السياسة، «لكن بعدئذ عندما حل بعدها مباشرة زمان كان يتطلب منه أن يتخلص من صبره وتواضعه، لم يتمكن سودريني من فعل ذلك، ومن ثم فقد سقط هو ومدينته.» ومن ناحية أخرى، تعامل يوليوس الثاني «بعجلة وعنف»، وإذ به يجد النجاح في خططه لأن زمنه كان يتطلب مثل هذا النوع من السلوك، أما إذا كان زمنه يتطلب الصبر والتواضع، «فحتمًا كان سيفشل لأنه لم يغير طريقته أو قواعد سلوكه.»

ويُعزى عدم عدول أي من سودريني ويوليوس عن طريقته أو سلوكه إلى سببين: أولهما أنه يصعب على شخص حقق نجاحًا عظيمًا عن طريق التهور والاندفاع أن يكترث لمشورة هؤلاء الذين ينبهونه أن يتصرف بطريقة مختلفة. لكن ثمة عقبة هائلة أيضًا، ألا وهي «أننا لا يمكننا أن نقاوم الشيء الذي تدفعنا الطبيعة نحوه» كما عبر مكيافيللي. ويعني قانون الحتمية هذا أن يوليوس سيتصرف دائمًا باندفاع واهتياج، وسودريني سيتصرف على نحو ثابت بصبر وتواضع. وهكذا يستحيل على أي منهما أن يتصرف بخلاف ذلك — إذ يستحيل على سودريني أن يتصرف مثل يوليوس والعكس صحيح. وكما عبر مكيافيللي عن المشكلة لجيوفاني باتيستا في عام ١٥٠٦م قائلًا: «الرجال غير قادرين على التحكم في طبائعهم.» وبغض النظر عن مدى قدرة الحكام على أن يتعلموا من دروس التاريخ وأن يأقلموا أنفسهم باتزان مع طبائع العصور، فإنهم أضعف من أن يتغيروا مع تقلب الأزمنة.

ويعتبر هذا الجدال المتشائم حول الطبيعة الإنسانية بمثابة جدال غريب على أن يجريه مكيافيللي، إذ يبدو أنه يطيح بالغرض الأساسي من دراسات مثل «الأمير»، و«المطارحات». فالمقصود من هذه الأعمال أن تقدم توجيهات سياسية للقادة، كي تبيِّن لهم الطريقة التي يتعين

عليهم بواسطتها أن يجدوا النجاح عن طريق تغير اتجاهاتهم وأفكارهم. بيد أن مكيافيللي يحاول أن يبرهن أنه ليس بمقدور أحد أن يُجري هذه التغيرات الضرورية، إذ إنه يرى كافة الرجال خاضعين أمام طبائعهم. لكن إذا لم يستطع الأمير أن يغير من طبيعته ومن ثم طريقة تصرفه — إذا لم يكن لديه خيار في قرارته السياسية — عندئذ ما هي الفائدة من إهدار الكثير من الحبر في كتابة الحكم والنصائح؟ تقتضي كتابات مكيافيللي ضمنًا أن الرجال يتمتعون بحرية التصرف، وأن دراسة التاريخ سوف تعلمهم أفضل السياسات من ناحية، ومن ناحية أخرى، ينكر عليهم هذه الحرية جاعلًا إياهم دمى قليلة الحيلة في أيدى طبائعهم الذاتية، وهم محكوم عليهم حتمًا بالفشل حالما انفصلوا عن مقتضيات زمانهم.

وتقترن أيضًا «مطارحات» مكيافيللي بشكوك قاطعة حول قدرة الإنسان على مواجهة الإلهة فورتونا. كتب مكيافيللي في كتاب «الأمير» أنه من الممكن التصدي للإلهة فورتونا عن طريق ممارسة الأعمال التي هي من شيم الرجال الحقيقين، لكن بمرور الوقت عندما أشرف على كتابة «المطارحات»، أضحى جليًّا أن الإلهة فورتونا تضيق ذرعًا بأي معارضة. إذ نجد عنوان الفصل التاسع والعشرين من الباب الثاني يحظر ذلك صراحة (ويستفيض في حظره): «الإلهة فورتونا تعمي أذهان الرجال عندما لا تريدهم أن يعارضوا خططها.» وهنا يعلن مكيافيللي أنه «يمكن للرجال أن يساعدوا الإلهة فورتونا لكنه لا يمكنهم أن يخذلوها، يمكنهم أن ينفذوا تصميماتها لا أن يدمروها.» ومع ذلك لا يعد هذا بمنزلة دعوة للإحباط، إذ يُتابع مكيافيللي موضحًا أنه يمكن للرجال أن يأملوا دائمًا في أن ترق لهم يومًا ما الإلهة فورتونا التي تكون طرقها ملتوية وغير معروفة. أما الرجل الذي يتمتع بصفات الرجولة الحقيقية المذكور في كتاب «الأمير»، والذي يتصدى للإلهة فورتونا بل

ويلكمها بقبضتي يديه، فإنه يتحول في «المطارحات» إلى شخص ملاذه الوحيد الانتظار والأمل. وهكذا نستشعر في هذه الأسطر المثبطة للهمة أن الرجل المغتم الذي يعيش في الألبرجاتشيو ينتظر بلهفة النداء الذي لا يأتي أبدًا.

الفصل السابع عشر

كتب مكيافيللي بنهاية عام ١٥١٧م خطابًا مطولًا إلى لويدجي ألماني البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، أحد أصدقائه في الأورتي أوريتشيلاي الذي ذهب حديثًا إلى روما؛ يخبره فيه عن قراءته للملحمة الشعرية التي كتبها لودوفيكو أريوستو Ludovico Ariosto بعنوان «أورلاندو الساخط» Orlando Furioso التي نُشرت أول أربعين أنشودة منها في ربيع عام ١٥١٦م. ومن المحتمل أن يكون مكيافيللي قد تقابل مع أريوستو، شاعر بلاط مدينة فيرارا، منذ عدة سنوات، إما في روما أو على الأرجح في فلورنسا حيث أقام فيها أريوستو لمدة ستة أشهر في مارس/آذار عام ١٥١٣م. وقد أقام الشاعر في غضون هذه المدة في نُزل قديم — كان يسكنه فرسان القديس يوحنا الذين تغير اسمهم فيما بعد إلى «فرسان مالطة» — في الطرف الجنوبي من جسر بونتي فيكيو، على بعد عدة ياردات فقط من منزل مكيافيللي.

وكان مكيافيللي قد أفاض في مدحه لعمل أريوستو، فقد أخبر ألماني قائلًا: «إن القصيدة بأكملها رائعة وبها عدة فقرات بديعة للغاية،» سائلًا إياه أن ينقل إطرائه إلى المؤلف الشاعر. بيد أن مكيافيللي أخذ عليه مأخذًا واحدًا صغيرًا، ألا وهو أن قصيدة أريوستو الممتدة تُشيد بعدد من الرسامين المعاصرين — الذين كان من بينهم مايكل أنجلو

(الذي يصفه الشاعر بأنه «إله أكثر من كونه إنسان»)، وليوناردو، ورفائيلو، وتيتيان — وكذلك شعراء ومؤلفون مثل بيترو بيمبو، وبالدساري كاستيليوني، بل وحتى لويدجي ألماني نفسه[1]، ومع ذلك لم يكن هناك أي ذكر لاسم مكيافيللي. لقد استاء مكيافيللي — أو تظاهر بالاستياء — لهذا الإغفال البائن، فكتب مكيافيللي إلى ألماني قائلًا: «لقد أغفلني وكأنني حثالة، إذ لم يذكرني بين العديد من الشعراء الذين ذكرهم.»

ولعل أريوستو أُصيب بضرب من ضروب الدهشة حينما رأى مكيافيللي يعتبر نفسه شاعرًا. ومن المؤكد أيضًا أنه لم يقتنع بصدق هذا الزعم، وخاصة أن تنقيحاته التالية وإضافاته لقصيدته ذات الثلاثمائة ألف كلمة (ظهرت طبعات جديدة للقصيدة في عامي ١٥٢١، و١٥٣٦م) لم يُذكر فيها أيضًا اسم مكيافيللي بين أسماء شعراء إيطاليا العظام. وبحلول عام ١٥١٧م، على الرغم من تراجع آمال مكيافيللي في رقي حياته تحت مظلة المديتشيين، بدأ يعزز طموحاته الأدبية، فلم يكتب الشعر فحسب، بل كتب أيضًا قصة قصيرة والعديد من المسرحيات، التي شكلت نتاجًا أدبيًّا غزيرًا للغاية إذ إنه وعلى أغلب الظن كان يضع آنذاك لمساته الأخيرة «للمطارحات».

وكانت أولى زيارات مكيافيللي للأورتي أوريتشيلاي قد تزامنت مع محاولاته لكتابة قصيدة كوميدية بعنوان «الحمار» التي كثيرًا ما يُطلق عليها عن طريق الخطأ اسم قصيدة «الحمار الذهبي»، والتي ألفها بحماس مستخدمًا القافية الثلاثية، وهو نفس الوزن الذي استخدمه دانتي في «الكوميديا الإلهية». وكان مصدر إلهام مكيافيللي في هذا العمل التهكمي في بعض النواحي هو رواية «الحمار الذهبي» للكاتب لوكيوس أبوليوس Lucius Apuleius، وهي رواية لاتينية ماجنة تحكي عن شاب يتسبب شغفه المفرط بالسحر في تغير هيئته إلى حمار، وكذلك

فقد تأثر إلى حد ما بأسطورة سيرس Circe، الساحرة التي مسخت بعض الرجال إلى حيوانات. وربما قرأ مكيافيللي على مسامع أصدقائه في الأورتي أوريتشيلاي بعض الفقرات من قصيدة «الحمار». ولو فعل ذلك، لبدت القصيدة مألوفة لهؤلاء الذين أنصتوا أيضًا إلى «مطارحاته».

وتبدأ القصيدة بمكيافيللي وهو يحوّل شفقته على ذاته بسبب سوء حظه إلى شخصية شعرية كوميدية، ففي الأبيات الاستهلالية يشبه الراوي نفسه بالحمار ويغني بلسان الحمار، مشيرًا إلى أنه اعتاد التأفف والذم ونكران الجميل، ومن ثم يتوقع «عدم تقاضي أي أجر أو مجازاة أو تعويض» لقاء جهوده. بعدئذ يطرح مكيافيللي مثلًا غريبًا لكنه موحٍ للغاية، وهو قصة لشاب فلورنسي يعاني من علة غريبة الأطوار، «وهي بالتحديد، أنه يركض في الشوارع دون اكتراث أو انتباه للمكان أو للوقت.» واستشار الوالد المكلوم لهذا الشاب حكماء كثيرين، فاقترحوا استخدام أنواع متعددة من العلاج، آلت جميعها إلى لا شيء. وأخيرًا يشرع أحد الأطباء المشعوذين في علاج الشاب، إذ يسحب منه دمًا ويضع أطيابًا متنوعة تحت أنفه، ويقترح المشعوذ أيضًا نظامًا صارمًا، لا يُسمح بمقتضاه للشاب أن يخرج قط إلى الشارع بمفرده أو دون قيود. وبدا أن مفعول العلاج بدأ العمل، وفي يوم ما، سُمح للشاب المريض أن يخرج من البيت بصحبة إخوته، وعندما وصل الشاب إلى شارع دي مارتيلي Via de' Martelli الذي تمكن أن يرى منه الامتداد الفسيح والمغوي لشارع لارجا Via Larga، «وما إن رأى الشارع المستقيم والعريض، حتى انتصب شعر رأسه، ولم يستطع الشاب أن يمنع نفسه من العودة إلى لذته القديمة.»

وبينما يهرول الشاب دون اكتراث وبأقصى سرعته نحو شارع فيا لارجا، إذ ينجلي المغزى من القصة أمام أعين قراء مكيافيللي، ألا وهو أن «ذهن الإنسان الذي ينكب دائمًا وأبدًا على ما هو فطري له، لا

يستطيع أن يقدم الحماية من العادات أو الطبيعة.» إنه نفس المغزى وراء الجبرية التي طرحها مكيافيللي على جيوفاني باتيستا سودريني منذ عدة سنوات، ثم شدد عليه بعدئذ في «المطارحات».

ويترك مكيافيللي نهاية القصيدة مفتوحة، وقد كان من الصعب وهي بهذه الحالة غير المصقولة أن ترقى إلى أن تنال استحسان أريوستو، غير أن القصيدة تعد لافتة للنظر بسبب تعليقاتها البائسة والكئيبة فيما يخص الوضع البشري. وعادة ما يصر الفلاسفة وعلماء اللاهوت على التمييز المطلق بين الإنسان والحيوان. ونرى أن دانتي انضم إلى تقليد موغل في القدم عندما قال في الباب الثالث من «المأدبة» Il Convivio إن البشر وحدهم هم من يمتلكون نفسًا عاقلة. وقد سلم معظم الكتاب بأن المنطق الأعلى جعل الإنسان يقهر غرائزه الحيوانية ويشارك في الطبيعة الإلهية. فكما ورد على لسان دانتي: «ومن ثم أطلق الفلاسفة على الإنسان الحيوان الإلهي»، لكن مكيافيللي رأى أنه لا توجد أي صفة إلهية في الحيوان البشري، أي المخلوق الذي يفوق — كما يخبر راوي قصيدته عن أحد الخنازير — كافة الحيوانات في أنه أكثر عرضة للخطر، وأكثر إثارة للشفقة، وأكثر الدمى التي تعبث بها الإلهة فورتونا. أما فيما يخص التحول إلى حيوان في قصيدة «الحمار» فهو مبالغة أدبية الغرض منها محاولة إثبات أن الإنسان لا يمكنه أن يهرب أبدًا من حالته الطبيعية وهي فكرة مألوفة منذ كتاب «المطارحات».

ومن المرجح أن يكون مكيافيللي قد سطر في هذا الوقت تقريبًا (لا يُعرف لدينا التاريخ الفعلي بالتدقيق) عملًا آخر، وهو قصة قصيرة مؤلفة من ثلاثة آلاف كلمة بعنوان «أسطورة بلفاجور» Fable of Belfagor. وهي قصة ساخرة أخرى حول تحويل الإنسان إلى مسخ، وتدور حول شيطان يُدعى بلفاجور بعثه بلوتو (إله العالم السفلي) إلى الأرض كي يستقصي ما إذا كانت الزوجات هن حقًّا سبب البلايا

التي تعم الأرض كما يزعم الرجال في العالم السفلي. وربما لا تكون القصة مثيرة من حيث الثراء الأدبي بنفس قدر إثارتها لما توحيه بشأن علاقة مكيافيلي وماريتا وآرائه في الزواج بصفة عامة. وعند انطلاق بلفاجور من العالم السفلي، يذهب إلى فلورنسا، ويتزوج من امرأة من طبقة النبلاء تُدعى أونستا Onesta، وعلى الفور يجد نفسه مفلسًا بسبب بذخها وإسرافها، ويلوذ بلفاجور بعد ذلك بالفرار من الدائنين، ويلتقي مصادفة بفلاح يُدعى جياناماتيو Gianmatteo الذي يخبئه من مطارديه في كومة من الروث، ثم يهرب بلفاجور عائدًا إلى العالم السفلي بعد سلسلة من الحيل والمغامرات، إذ ينخدع هو ذاته حينما يعتقد أن أونستا قد جاءت إلى العالم السفلي كي تعيده إليها، وعندئذ يؤثر عذاب الجحيم على «الإزعاج والضجر والخطر» المصاحب «لنير الزواج.»

ويقدم مكيافيلي نظرة أكثر تفاؤلًا للزواج والعلاقات الإنسانية في مسرحية مكونة من خمسة فصول تُدعى «المرأة التي من أندروس» The Woman from Andros التي كتبها في أواخر عام ١٥١٧م أو في أوائل عام ١٥١٨م، ولا تعد هذه المسرحية الهزلية من الإبداع الكامل لقريحته الأدبية؛ إذ إنها ترجمة لمسرحية تحمل نفس الاسم للكاتب المسرحي الروماني تيرنس Terence وإن احتوت على الكثير من التنقيح وإعادة الصياغة والتحديث للمسرحية القديمة. وتتبع المسرحية النمط الهزلي المتمسك بالموروثات العريقة، إذ تدور حول شاب عاشق يُدعى بانفيلو Panfilo يريد الزواج من فتاة رغم معارضة والده، ثم ينجح في إتمام زواجه بفضل حدوث انفراج مفاجئ في الحبكة الدرامية يكشف عن الهوية الحقيقية لمحبوبته. ولأن مصدر هذه المسرحية الهزلية هو مصدر روماني، فإنها تبرز عددًا من الأفكار التي تتباين تباينًا مثيرًا للعجب مع النصائح التي يقدمها مكيافيلي في كتاب «الأمير». فعلى

سبيل المثال، تعير المسرحية اهتمامًا خاصًّا لأهمية الوفاء بالقسم، إذ ينتصر العاشق بانفيلو بفضل وفائه بوعوده لمحبوبته وكذلك وعوده لوالده. وأكثر الأمور غرابة أيضًا هو حقيقة أن المسرحية تبرهن على عدم جدوى المكائد والمؤامرات الخفية عندما باءت بالفشل مؤامرات عبد من العبيد يُدعى دافو Davo الذي وُصف «بالخسة والحقارة». ومن ثم تبرز المسرحية أن الخداع لا يجدي في حين أن الأمانة تجلب الخير والسعادة. وقد كان من غير المألوف أن تُناقَش مواطن الخلل في دسائس دافو في سياق أحد الأعمال الأدبية الكوميدية، إذ إن دافو كان يمثل الشخصية التقليدية المعروفة بلقب «العبد الماكر» dolosus servus وهو العبد الذي يجلب السعادة والنجاح لبطل المسرحية عن طريق تدبير المكائد التي تساعد البطل في تحقيق غاياته.

ومع ذلك فإن الدسائس والمؤامرات تجني ثمارًا أفضل في مسرحية أخرى ألفها مكيافيللي عام ١٥١٨م. وعلى خلاف مسرحية «المرأة التي من أندروس»، فإن مسرحية «الماندراجولا» La Mandragola المكونة من خمسة فصول، كانت بأكملها من إبداع قريحة مكيافيللي، إذ أطلق فيها العنان لفطنته المتقدة وخياله الماجن. ويستهل مكيافيللي مسرحيته باتباع نفس التقليد الموروث عن الكوميديا الرومانية، إذ يعشق شاب يُدعى كاليماكو فتاة جميلة تُدعى لوكريتزيا لكن ثمة عائقًا أمامه — غير أن العائق أمام الحبيبين لم يتمثل هذه المرة في ممانعة والد الحبيب، بل في أن المرأة الحبيبة نفسها متزوجة من محامٍ أخرق، وكذلك في رفضها هي نفسها للرذيلة. وحقيقة أن كاليماكو لن يحصل على سعادته إلا بارتكاب الزنى تكشف عن عالم أخلاقي أكثر قتامة من ذلك الذي كُشِف في مسرحية «المرأة التي من أندروس». ومع ذلك، فإنه — كما يشرح مكيافيللي في مقدمة المسرحية — إذا كانت هذه الفكرة تبدو غير جديرة بالاعتبار أو غير ملائمة، فإن الجمهور ينبغي عليه أن يتذكر

جيدًا المصير البائس الذي لقيه مؤلفها. ويرثي مكيافيللي مرة أخرى تقاعده الإجباري في قرية سانت أندريا إن بركوزينا إذ يصف مكيافيللي نفسه بالرجل الذي:

دفعوه دفعًا للتراخي
ليس من مأوى سواه
وأقام جبرًا لا كما يهوى هواه
حرموه من عمل شريفْ
وماطلوا فيما ابتغاه.[٢]

وتنطوي المسرحية أيضًا على طعن لاذع للفساد والجور السائدين في فلورنسا، المدينة التي يصفها أحد شخصيات المسرحية قائلًا: «لا يوجد شيء في هذه المدينة سوى زمرة من السفهاء، وعندما لا يملك المرء الوساطة ... فإنه يعتبر من سعداء الحظ إذا اهتم أحد بأمره.» وعلى الرغم من أن هذه الكلمات وُضعت على لسان نيتشيا Nicia، الزوج المسن الأخرق، فأغلب الظن أنها تنم عن زوال الغشاوة عن عيني مكيافيللي فيما يخص مرارته الناجمة عن الرد على جهوده المضنية بالجحود والازدراء.

وقد زود مكيافيللي حبكة هذه المسرحية بمزحة متقنة وحاذقة. إذ قام أحد أصدقاء كاليماكو، وهو وسيط زواج سابق يُدعى ليجوريو Ligurio، بإقناعه بأنه يمكنه أن يخدع نيتشيا حتي يسمح له بمضاجعة لوكريتزيا. إذ تنطوي الخدعة على أن يتظاهر كاليماكو بأنه طبيب، ثم يعرض على نيتشيا، الذي يتوق بلهفة شديدة إلى أن يكون له وريث، جرعة من شراب ثبتت فاعليته سوف يجعل لوكريتزيا حاملًا. وهذا الشراب مصنوع من جذر نبات يعرف باسم تفاح الجن mandrake، وهو نبات لا يرتبط بالخصوبة وإنما غالبًا ما يقترن بالمرض والموت إذ

إن الاسم اللاتيني له هو mandragora يعني «مضر للماشية». وثمة العديد من الأساطير التي تتعلق بهذا النبات، إحدها تذكر أن النبات ينمو تحت المشانق حيث يُعدم القتلة، وأخرى تقول إن أي شخص يجرأ على اقتلاع النبات من الأرض يموت في الحال، ومن ثم لكي يجُتث تفاح الجن، فمن الضروري أن يُربط كلب بالنبات لكي يُخرج الحيوان جذر النبات ثم يموت كما هو متوقع.

ومن الجلي أن مكيافيللي كان يألف مثل هذه الأساطير، فجرعة الماندراجولا التي قُدمت إلى نيتشيا كان لها عاقبة خطيرة، فالشخص الذي سوف يضاجع لوركيتزيا بعد أن تتناول هي الجرعة سوف يموت في غضون أسبوع، لكن ثمة حل لهذه المعضلة، فقد أخبر كاليماكو نيتشيا أنه — كما جرت التضحية بالكلب كي يحصد نبات الماندراجولا — يمكن استخدام شخص آخر كي يُخرج السم. وهذه الوسيلة سوف تمكن كاليماكو من مضاجعة لوكريتزيا، لكن يتعين على كل من نيتشيا ثم لوكريتزيا (كنوع من جعل الأمر أكثر تعقيدًا) أن يقتنعا بالتضحية بحياة شخص من المفترض أنه غير عالم بما يحدث (وهو كاليماكو) بغرض إنجاب طفل. وبالطبع اقتنع نيتشيا بسهولة، لكن من أجل الحصول على موافقة لوكريتزيا استُعين في ذلك بوالدتها وبكاهن مرتشٍ، هو الأخ تيموتيو Friar Timoteo. وتذعن لوكريتزيا في آخر الأمر، وتتجرع السم، وتنام مع كاليماكو. وبعد أن ينتهي من مضاجعتها ويعترف لها بتفاصيل المؤامرة تستلم للأمر قائلة: «لقد شاءت العناية الإلهية أن يحدث هذا.» — وهنا تأتي النهاية السعيدة — وتوافق على الاستمرار في مضاجعة كاليماكو إلى أن يموت نيتشيا اللمسن إذ سيمكنهما عندئذ أن يتزوجا.

وتزخر المسرحية بالكوميديا البذيئة وإن كانت قد صيغت بطريقة رائعة، إذ تظهر شخصية نيتشيا كمخلوق غريب من نوعه، فهو

محامٍ مسن مغرور تدفعه سذاجته إلى أن يكون ديوثًا بإرادته. وثمة مشاهد كوميدية رائعة مثل تقديم عينة من البول على خشبة المسرح، ووصف نيتشي كيف أنه تفحص بنفسه عن كثب الأعضاء التناسلية الخاصة بكاليماكو حتى يتبين خلوه من علامات مرض الجدري قبل السماح له بمضاجعة زوجته. وتمتلئ المسرحية أيضًا بالألفاظ العامية غير اللائقة، فمخزون مكيافيللي من الكلمات لا ينضب على نحو يثير العجب، إذ استخدم في المسرحية كلمة caccasangue التي تعني حرفيًّا «الغائط اللعين»، وكلمة caccastecche التي تعني حرفيًّا «عصا الغائط».

وأهم ما يميز المسرحية هو شيئان: أولهما التهكم على رجال الدين، وثانيهما تصوير كيف أنه يمكن تحقيق الغاية باستخدام أكثر الوسائل خسة، إذ يصرح الأخ تيموتيو للوكريتزيا وهو يحاول أن يقنعها بأن تحنث بقَسَم زواجها وتتسبب في موت شخص آخر قبل الأوان قائلًا: «يجب أن نضع دائمًا نصب أعيننا أن الغاية تبرر الوسيلة.» ويعقد الأخ تيموتيو، مثلما يفعل مكيافيللي في كتاب «الأمير»، العلاقة بين الفضيلة والرذيلة، محاولًا أن يبرهن أن المعايير الأخلاقية التقليدية لا تصمد دائمًا. ومن الضروري أن نلحظ أن حُجة الأخ تيموتيو قد قُدمت باستخدام قدر هائل من السفسطة — بسبب أنه لم يكن مدفوعًا إلا بدافع تحقيق الكسب المالي — مما جعل مكيافيللي يقدم محاكاة ساخرة لا تدور حول فساد رجال الدين فحسب، لكن على الأرجح أيضًا تدور حول الحجج التي ساقها في كتاب «الأمير». أو على أقل تقدير، يرجح مكيافيللي أن الاحتيال المصرح به على الساحة السياسية غير مقبول عندما يصل هذا الاحتيال إلى غرف النوم.

انتهى مكيافيللي من مسرحية «الماندراجولا» في عام ١٥١٨م، أو على الأكثر في عام ١٥١٩م. ولعل توقعات مكيافيللي من جهة نجاح

المسرحية لم تكن بالقدر الكبير نسبيًّا، فلم يكن هناك في فلورنسا (أو في أي مكان في إيطاليا) في ذلك الحين مسارح عامة. وكانت لا تزال المسرحيات الكوميدية التي كانت تُكتب في صورة سيناريو تعد من الأحداث الثقافية الثانوية مقارنة بمسرحيات الفلكلور الشعبي — على سبيل المثال — التي كانت تُؤدى في الساحات أثناء المهرجانات. وكانت تقوم الدراما الإيطالية في المقام الأول على ما كان يُعرف بمصطلح «الكوميديا المتبحرة في العلم» Commedia erudita أو «الكوميديا الباحثة»، وهي تلك الكوميديا المبنية على أعمال الكُتاب المسرحيين الرومان أمثال بلوتس وتيرنس التي كانت تؤدى باللغة اللاتينية في الجامعات والمدارس. ومع ذلك، شرع عدد قليل جدًّا من المؤلفين في الآونة الأخيرة في تحويل هذه المصادر الأصلية — كما فعل مكيافيللي في مسرحية «المرأة التي من أندروس» — إلى اللغة الإيطالية الدارجة، وتعديلها حتى تتواءم مع أوضاع الأيام الحالية والشخصيات المعاصرة. وكان بلاط مدينة فيرارا قد قدم عام ١٥٠٨م مسرحية «لا كازريا» La Cassaria للشاعر أريوستو التي تقوم على محاكاة أحد أعمال بلوتس، ثم مسرحية أخرى بعنوان «المُدّعون» The Pretenders عام ١٥٠٩م. وبعد مضي بضع سنوات، وبالتحديد عام ١٥١٣م، قدم كاتب المسرحيات الكوميدية برناردو دوفيزي دي بيبينا Bernardo Dovizi da Bibbiena مسرحية بعنوان «لا كالندارا» La Calandra والمأخوذة أيضًا عن مسرحية لبلوتس، في بلاط أوربينو أثناء احتفالات أحد المهرجانات. بيد أن هذه النوعية من المسرحيات، رغم كونها مسلية ويمكن فهمها بسهولة، كان يؤديها ممثلون غير محترفين (يوجد بينهم أطفال في بعض الأحيان) أمام عدد قليل من المشاهدين الأرستقراطيين، وعادة ما يكون ذلك في البلاط — بل وعُرضت أيضًا في الفاتيكان بعد اختيار ليو العاشر ليرتقي كرسي البابوية. وغالبًا لم

تكن تُقدم إلا كفقرة ضمن مجموعة أخرى من الفقرات، فعلى سبيل المثال، قُدمت مسرحية «المتظاهرون» في حفلة تضمنت فقرة موسيقية وعرضًا يطلق عليه اسم «مورسكا» moresca يستخدم فيه التمثيل الإيمائي (بانتومايم) والرقص. وقد شاهدتْ زمرة رفيعة المقام مسرحية لجاكوبو ناردي، صديق مكيافيللي عام ١٥١٢م، بعنوان «كوميديا الصداقة» The Comedy of Friendship إذ أضاف جاكوبو الطابع المسرحي على إحدى قصص «دي كاميرون» التي ألفها بوكاتشيو، والتي قُدمت أمام مجموعة من أعضاء مجلس السيادة.

وباختصار، لم يبدُ أن الشهرة والإلهة فورتونا قد اهتمتا باعتراض طريق أحد كتاب المسرحيات الكوميدية، على الرغم من أن مكيافيللي ربما يكون قد لاحظ كيف أن المسرحيات المنمقة بعناية، مثل تلك التي قدمها صديقه أريوستو؛ تمثل وسيلة للتودد إلى أحد رعاة الفنون ذوي النفوذ. وعلى أية حال، قام الممثلون الموجودون في الأورتي أوريتشيلاي بإجراء بروفات مسرحية «الماندرجولا» في الأسابيع الأولى من عام ١٥٢٠م، وقُدم العرض الأول أثناء المهرجان الذي أقيم في فبراير/شباط من نفس العام. وفي الواقع، لا يُعرف شيء آخر عن هذا العمل الفني، رغم أن المسرحية قُدمت على الأرجح لجمهور محدود في الهواء الطلق في الأورتي أوريتشيلاي، ولعب أدوارها ممثلون هواة، وكانت توجد فواصل موسيقية بين المشاهد، وفي الخلفية ستارة مرسوم عليها ملامح المناظر الطبيعية لمدينة فيرارا (رسمها الفنان رافائيلو طبقًا لما ورد في القصص) استخدمت من قبل في مسرحية «المُدّعون». وقد بدت إحدى عبارات كاليماكو في المشهد الافتتاحي — «هناك سبب للأمل مهما بلغ بالمرء اليأس» — معبرة للغاية، إذ إنه مع بزوغ فجر هذا العقد الجديد من الزمان، بدا أن مكيافيللي قد أصبح لديه فجأة مبررات للأمل في أن يحدث تغيير في حظه.

ولم يتحسن حظ مكيافيللي إلا عقب موت الرجل الذي أهدى له كتاب «الأمير»، لورنزو دي بيرو دي مديتشي، من جرّاء إصابته بمرض الزهري في مايو/أيار من عام ١٥١٩م، عن عمر يناهز السادسة والعشرين. ومن ذلك الحين فصاعدًا اضطلع جيوليو دي مديتشي، رئيس أساقفة فلورنسا، بإدراة شئون المدينة. ومع أنه كان قد حذر أتباعه آنفًا من «أن يوكلوا أية أعمال إلى نيقولو» فإنه عدل عن موقفه في أوائل عام ١٥٢٠م بفضل تدخل لورنزو ستروزي Lorenzo Strozzi، أحد أعضاء الأورتي أوريتشيلاي، الذي تقابل مع مكيافيللي في منتصف مارس/آذار عام ١٥٢٠م، أي بعد مرور شهر على تاريخ أول عرض لمسرحية «الماندراجولا».

وكان رئيس الأساقفة يطوف ملتمسًا بشدة الآراء حول الطريقة المثلى لإدارة حكومة فلورنسا، وعلى الأرجح كان هذا هو اللقاء الذي أناط فيه إلى مكيافيللي عمل الدراسة التي حملت فيما بعد اسم «مطارحات حول شئون فلورنسا بعد موت لورنزو» Discourse on Florentine Affairs After the Death of Lorenzo. وألف مكيافيللي هذه الدراسة في وقت غير معروف بالضبط من عام ١٥٢٠م، وقد حوت جدول أعمال حكومة تحمي النظام الجمهوري مع الاحتفاظ بالهيمنة المديتشية. وكان الاقتراح الذي قدمه مكيافيللي ينطوي على بعض التدابير مثل عودة كل من المجلس العظيم للشعب، ومنصب حامل لواء العدالة مدى الحياة. وبالطبع كانت فرص موافقة رئيس الأساقفة على مثل هذه البنود ضئيلة للغاية — لكن على الأقل انخرط مكيافيللي مرة أخرى في شئون حكومية ولو من بعيد.

وتلقى مكيافيللي أخبارًا مشجعة أيضًا بعد مرور شهر على التقائه برئيس الأساقفة، ففي نهاية أبريل/نيسان عام ١٥٢٠م، روى له باتيستا ديلا بالا Battista della Palla، أحد زملاء مكيافيللي في الأورتي أوريتشيلاي، ما دار بينه وبين البابا ليو العاشر في لقائهما الذي

تم في روما على نحو ألهب مشاعر مكيافيللي، إذ أخبر باتيستا مكيافيللي قائلًا: «لقد أسهبتُ في الحديث عن شئونك مع البابا، وفي الحقيقة، أرى أنه متعاطف معك للغاية.» كما ذكر أن البابا رأي أن يكلفك بمهمة «القيام ببعض أعمال الكتابة أو غيرها»، موضحًا أن قداسة البابا رجل دنيوي يعشق المسرح، وكان قد أمر بعرض مسرحية «لا كالندرا» La Calandra للكاتب بيبينا عام ١٥١٤م، والآن هو متشوق إلى رؤية مسرحية «الماندراجولا»، فبعد أن سمع عن النجاح الساحق الذي أحدثته المسرحية في فلورنسا (ربما سمع بهذه الأخبار من ابن عمه، رئيس الأساقفة)، أمر أن تُقدم في البلاط البابوي ويؤديها نفس الممثلين باستخدام نفس المشاهد والمناظر. وأدلى ديلا بالا بتوقعاته قائلًا: «أعتقد أنها سوف تسره أيما سرور.»

وهكذا عُرضت المسرحية في نفس العام ونالت نفس النجاح الذي حققته من قبل في فلورنسا، وفي حقيقة الأمر فإن مسألة أن البابا يمكن أن يضحك بسبب مسرحية تُعرض فيها شخصية كاهن مرتشٍ فاسد؛ تعتبر أمرًا مثيرًا للدهشة، إذ إن البابا نفسه هو من أمر في ذات الوقت من يونيو عام ١٥٢٠م بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بمارتن لوثر Martin Luther الذي هاجم «شهوة وفجور» رجال الدين المسيحي في أطروحاته الخمس والتسعين. على أية حال، ثبت في النهاية أن مسرحية «الماندراجولا» هي سر عودة مكيافيللي إلى العيش في أمان المديتشيين أكثر من أي شيء آخر. وهكذا نجد أن مسرحية بذيئة تدور حول الزنى والخداع والفساد الديني نجحت فيما لم يستطع «الأمير» أن ينجح فيه.

وكانت طموحات مكيافيللي في المجال الأدبي تسمو كثيرًا على مسرحية «الماندراجولا». إذ يبدو أن الفرصة التي واتته في «القيام ببعض أعمال الكتابة» للمديتشيين أمالت أفكاره نحو تأليف «تاريخ فلورنسا»، وهو

مشروع كبير ربما أمل مكيافيللي أن يموله المديتشيون. وحانت الفرصة كي يقدم خدماته في صيف عام ١٥٢٠م عندما أُرسل إلى مدينة لوكا كي يجبر أحد تجارها المفلسين على سداد ديونه. وكانت تعد هذه المهمة مهمة متواضعة بالنسبة لرجل سافر أربع مرات إلى بلاط الملك لويس الثاني عشر، غير أنها كانت تعد فترة راحة قصيرة أعطت مكيافيللي الفرصة أن يتدرب، إذا جاز التعبير، على قيامه بكتابة عمل تاريخي أضخم بكثير. وخلال أسابيع قلائل ألف مكيافيللي كتابًا بعنوان: «سيرة كاستركتشيو كاستركاني» Life of Castruccio Castracani، وهو عبارة عن سيرة ذاتية مكونة من عشرة آلاف كلمة لقائد من المرتزقة ذي شعر أحمر اللون ولد في مدينة لوكا في القرن الرابع عشر، وكان قد قهر الفلورنسيين عام ١٣٢٥م.

ويعتبر كتاب «سيرة كاستركتشيو كاستركاني» قراءة ممتعة مفعمة بالنوادر والأحداث. بيد أنه، لم يكن من أفضل الأمثلة على الإطلاق التي تعبر عن مهارات مكيافيللي كمؤرخ. إذ يبرز للعيان ترصيع مكيافيللي حياة كاستركتشيو بالمبالغة والتلفيق، فالتواريخ والحقائق في الكتاب قد قُدمت بقدر من اللامبالاة. فيلفق مكيافيللي على سبيل المثال، أن كاستركتشيو (الذي تعني كنيته «مُخصِي الكلاب») كان لقيطًا — وهي إحدى الحيل التي يُعتقد أنها حيُكت كي تبرز كيف أن اللبس والغموض يحيق بمولد كافة العظماء، أو كيف أنهم «عانوا أقصى درجات العذاب الذي أنزلته بهم الإلهة فورتونا.»[٢] ويمكن أن نجد في هذا العمل الكثير من الأفكار المفضلة لمكيافيللي التي تسيطر على ذهنه، ابتداء من خبث الإلهة فورتونا (إذ يقدم مكيافيللي حديثًا على لسان كاستركتشيو وهو على فراش الموت يعترف فيه أن المتحكم في شئون الإنسان هي الإلهة فورتونا وليس صفات الرجولة الحقيقية)، ومرورًا بالحاجة الملحة إلى قائد قوي ورابط الجأش، إلى الإطراء على «خدع كاستركتشيو الحاذقة»،

مثل الوقت الذي حل فيه مشكلة النزاع الفصائلي في بيستويا (المدينة التي حيرت اشتباكاتها مكيافيللي عام ١٥٠١م) عن طريق التظاهر بمصادقة كلا الجانبين ثم ذبحهما بلا شفقة.

وفي نهاية فصل الصيف، كان مكيافيللي قد أرسل مخطوطة من العمل إلى أصدقائه زانوبي بونديلمونتي ولويدجي ألماني (وكان كوزيمو روتشيلاي قد توفي قبل عام). عاود زانوبي الكتابة إلى مكيافيللي مادحًا العمل بشدة، إذ أورد أن العمل «أثنى عليه جميع أعضاء الأورتي أوريتشيلاي بلا استثناء» — غير أنه أشار إلى أن ثمة بعض الأجزاء «التي يمكن تحسينها»، ولا سيما الأقوال المأثورة التي اقتبسها عن بعض الكُتاب مثل ديوجانز لاريتوس Diogenes Laertius ونسبها عن طريق الخطأ إلى كاسترتشيو. ومع ذلك، تجاسر زانوبي وقال إن هذا «النموذج من التاريخ» يكشف عن ملاءمة مكيافيللي لبدء العمل في مشروع أكثر سموًّا وهو كتابة تاريخ فلورنسا.

وأتي هذا المشروع إلى حيز التنفيذ بعدها بفترة وجيزة، إذ عاد مكيافيللي من مدينة لوكا في منتصف سبتمبر/أيلول، وبعد شهرين كُلّف من قبل ليو العاشر ورئيس الأساقفة بتأليف كتاب جديد عن تاريخ فلورنسا، ونص عقد الكتاب على أنه ينبغي عليه أن يكتب تاريخ مدينة فلورنسا، «بداية من أي حقبة زمنية تبدو مناسبة في ناظريه، وبأية لغة تلائمه سواء اللاتينية أو التوسكانية.» وحدد العقد أن يتقاضى مكيافيللي مائة فلورين أجرًا، وهو مبلغ يقل عن راتبه السنوي كمستشار ثاني بمقدار تسع وعشرين فلورين. ورغم أن هذا المبلغ يعد صغيرًا نسبيًّا، فإن شرف المهمة يعوض ذلك، ولا يقتصر هذا الشرف على أنها تكليف من البابا فحسب، بل إنها تضع مكيافيللي أيضًا بين مصاف مؤرخي الجمهورية الفلورنسية المشاهير أمثال بوجيو براتشيليوني Poggio Bracciolini وليوناردو بروني Leonardo Bruni، وقد مُنح

الأخير إعفاءً ضريبيًّا مدى الحياة له ولأولاده، تقديرًا له لتأليفه مجموعة مكونة من اثني عشر كتابًا بعنوان «تاريخ الشعب الفلورنسي» History of the Florentine People، التي كتبها عام ١٤٢٠م.

وعلى الفور شرع مكيافيلي في بدء العمل، مستخدمًا هذه الأعمال وغيرها كمراجع له، وكان من بينها كتاب فلافيو بيوندو Flavio Biondo الذي حمل عنوان «عصور تاريخية منذ انحطاط الإمبراطورية الرومانية» Decades of History from the Decline of the Roman Empire، وهو كتاب كان قد اشتراه والده عام ١٤٨٥م. واستخدم مكيافيلي أيضًا تأريخًا كتبه بيرو مينربتي Piero Minerbetti، وكان مكيافيلي قد ألف أبياتًا شعرية قصيرة وكتبها على الغلاف الأمامي لهذا الكتاب يقول فيها:

أنت أيها المكيافيلي الذي يستمتع بي
احذر من أن تؤذيني بالمصباح
وأرجعني سريعًا حيثما كنت
واحفظني بعيدًا عن متناول الأطفال.

وتنم هذه الأبيات التي تخلو من الهم وتغلب عليها روح الفكاهة عن حدوث إشراقة في مزاج مكيافيلي المكفهر. فبعد مضي تسع سنوات من الإعياء والمعاناة، انضم مكيافيلي بعد انتظار دام طويلًا إلى نطاق خدمة المديتشيين.

الفصل الثامن عشر

قطع مكيافيلي عمله في كتابة تاريخ فلورنسا في ربيع عام ١٥٢١م، إذ امتطى جواده، كما كان الحال في الأيام الخوالي، وذهب في عمل تابع للحكومة. فقد اختاره المجلس المنوطة به شئون فلورنسا الخارجية، «مجلس الثمانية الممارسين» Otto di Pratica كي يسافر إلى مدينة كاربي على مسافة ستين ميلًا شمال فلورنسا، حيث يجتمع رهبان الأخوية الفرنسيسكانية Franciscan Order لعقد مجلسهم العمومي. فعلى الرغم من إعادة تشكيل الأخوية الفرنسيسكانية حديثًا، فإن بعض الرهبان في فلورنسا عجزوا عجزًا بيِّنًا عن أن يصلوا إلى حالات الورع والتقوى وضبط النفس المنصوص عليها في «قوانين القديس فرانسيس» Rule of Saint Francis. لذا عندما وجد مجلس الثمانية الممارسين أن بعض الإخوة قد تصرفوا بطريقة غير لائقة، قرروا أن يقضوا على تعدياتهم بفرض قيود أكثر صرامة على أديرة الرهبان الموجودة داخل الأراضي الفلورنسية. وما كان لأحد أن يتوقع أن مكيافيلي هو المبعوث الذي أُرسل لإجراء هذه المفاوضات.

ولم يغب عن ناظري مكيافيلي — الذي نظر إلى بعثته بشيء من الاستخفاف على أنها بعثة إلى «جمهورية القباقيب» — هذا التناقض الغريب الذي جعل الرجل المفضوح الذي يرتاد بيوت دعارة فلورنسا،

يبكت الرهبان الفرنسيسكان على الزلات الأخلاقية. أما من جانب الإخوة، فلا بد أنهم ذُهلوا عندما رأوا أن المبعوث الذي جاء من فلورنسا ويقف بينهم هو نفسه مؤلف مسرحية «الماندراجولا» الذي جعل من شخصية الكاهن مسار سخرية الجميع. وكان من المتوقع أن تتدهور الأحداث على مدار الأيام التالية لتصل إلى حد المهزلة بسبب أن مكيافيللي بدأ في ممارسة الحيل الماكرة بين مضيفيه الحائرين. وعندما شعر مكيافيللي بالضجر من جراء الانتظار حتى يقوم الرهبان بعملية انتقاء موظفيهم، بدأ يفكر في الطرق التي يمكنه من خلالها «أن يوقع بينهم ... إلى درجة أن يطارد بعضهم بعضًا بالقباقيب الخشبية»، كما ذكر ذلك في خطاب إلى أحد أصدقائه. وعلى الفور زج مكيافيللي بهذا الصديق، وهو فرانشيسكو جوردتشيارديني، حاكم مدينة مودينا المتاخمة، في دعابة جعلته يرسل سلسلة متوالية من الرسل إلى مقر إقامة مكيافيللي في كاربي، إذ كان من المفترض أن يصل الرسل وهم يقودون جيادهم بأقصى سرعة ويتظاهروا بأنهم يحملون الوثائق الهامة، وكان الغرض من هذا هو إعطاء الإخوة انطباعًا أن مكيافيللي يتولى مسئوليات جديرة بالاعتبار وذات شأن. بيد أن الخدعة أخذت في الإخفاق عندما ساور الشك مضيف مكيافيللي جيزموندو سانتي Gismondo Santi، أحد أعضاء المستشارية في كاربي. وقد نعم مكيافيللي بإقامة مترفة في مقر إقامة جيزموندو إذ كان يتقلب في «فراش فاخر» وينعم بطعام وفير في كل وجبة حتى إنه يكفي لإطعام «ستة كلاب وثلاثة ثعالب». وأصبح مكيافيللي متخوفًا من أن يطرده جيزموندو ليعود إلى إقامة أقل ترفًا بكثير في إحدى حانات البلدة إذا ما علم أنه خُدِع. وانتهت الدعابة بمكيافيللي وهو يكتب التماسًا ملحًّا إلى جورتشيادريني ليتوقف عن إرسال الرُسل المتطين صهوة جيادهم بأقصى سرعة.

وكان لدى مكيافيللي مهمة أخرى في كاربي، فقد أناط إليه أعضاء نقابة تجارة الصوف بمهمة إيجاد أحد الوعاظ ليقدم وعظات الصوم الكبير، وحبذا أن يكون هذا الواعظ هو الراهب الفرنسيسكاني الذي يُدعى جيوفاني جوالبرتو دا فيرنز Giovanni Gualberto da Firenze، المعروف أيضًا باسم «روفايو الثاني» Il Rovaio (وهو اسم ريح شمالية باردة، ومن ثم من المحتمل أن يشير هذا اللقب إلى أسلوب جيوفاني القاسي في الوعظ). ورأى جوتشيارديني أن مهمة صديقه متناقضة أيما تناقض، وقد سخر من مكيافيللي مخبرًا إياه بأن هذه المهمة تتشابه مع مهمة تكليف باتشيروتو Pacchierotto — وهو شخص لوطي مشهور بسمعته السيئة في فلورنسا — بأن يبحث عن عروس ليتزوجها أحد الرجال. أما بالنسبة لروفايو الثاني نفسه — «هذا الخائن روفايو»، كما كان مكيافيللي يُطلق عليه — فلم يكن في عجلة من أمره بخصوص الذهاب إلى فلورنسا، إذ كان يشكو من أن وعظاته لم يُعتد بها كثيرًا هناك. فقد ألقى من قبل وعظات في فلورنسا أمر فيها كل العاهرات بارتداء وشاح أصفر اللون حتى يمكن تمييزهن عن غيرهن من النساء، ومع ذلك، أخبرته أخته أن العاهرات في فلورنسا «يرتدين ما يحلو لهن ويهززن مؤخراتهن أكثر بكثير من ذي قبل»، كما أخبر مكيافيللي ساخطًا. وبلا ريب، شعر مكيافيللي بالراحة عندما وجد نفسه في الألبرجاتشيو بين كتبه وأوراقه بنهاية هذا الشهر.

وقطعًا أثارت رحلة مكيافيللي إلى كاربي وتناوله لموضوع الرهبان الفرنسيسكان العديد من علامات الاستفهام حول آرائه بخصوص الأديان عامة والمسيحية خاصة. لقد حذر جورتشيارديني مكيافيللي متهكمًا من أنه لا يجدر به أن يقضي الكثير من الوقت في كاربي خشية أن «ينقل هؤلاء الرهبان الورعون إليك بعضًا من ريائهم»، وقد

علق على أنه إذا تحول مكيافيللي على حين غرة إلى رجل متدين، فإن ذلك سوف يُعزى «بالأحرى إلى الشيخوخة وليس إلى الرغبة في العيش بصلاح لأنه لطالما عاش بمعتقد مخالف.» وقطعًا لم يكن مكيافيللي معارضًا للدين، لكنه كان يرى أن الدين بالنسبة له لا ينطوي إلا على قيم عرضية طارئة، فهو لم يكن يكترث لما يمكن أن يفعله الدين للنفس في الآخرة، وإنما فقط الفوائد التي يمكن أن يجنيها من الدين لصالح المجتمع على الأرض في التو واللحظة. وقد استحسن مكيافيللي في «المطارحات» مسألة أن الرومانيين القدامى قد استخدموا القَسَم وغيره من الشعائر الدينية لكي يحثوا مواطنيهم على إنجاز الأعمال البطولية ومن ثم ينقذون الجمهورية ويصونونها. غير أنه، لم يقتنع بقدر كبير بقدرات المسيحية في تحقيق نتائج مماثلة. لقد اشتكي مكيافيللي في «المطارحات» من أن معاصريه في أوروبا المسيحية كانوا أقل شجاعة وضرواة من الرومان القدامى، وهو الأمر الذي يُعزى إلى المؤثرات الباعثة على التراخي التي يبثها الدين المسيحي. ورأى أنه بينما قدر الرومانيون قيمة الحياة الدنيا ومارسوا شعيرة الذبائح الدموية — وهي الأعمال التي يعتقد مكيافيللي أنها حفزتهم في ميدان المعركة — فإن المسيحية الحالية لم تمارس الشعائر الدموية ولم تكترث للمجد الدنيوي. ورثى مكيافيللي المسيحية بقوله إنها تؤثر الرجال المتواضعين والمتأملين على رجال الإنجازات والأعمال.

وقد غض هذا التحليل النظر بطريقة لائقة عن الأحداث التي استُخدمت فيها القوى والشراسة في المسيحية مثل الحملات الصليبية، أو ما جرى مؤخرًا، فيما يتعلق بالحملات العسكرية ليوليوس الثاني، التي شهدت مسيرة البابا خلف خبز القربان المقدس. غير أنه تحليل يعكس إحباط مكيافيللي الشديد من المسيحية في أوربا التي أخفقت في أن تحاكي الأعراف الوطنية والسياسية لروما القديمة. كما يعكس

أيضًا التحرر من أوهام النفاق والفساد الذي يسود الكنيسة وبعضًا من القيادات الدينية — ولم يُرسِ هذا التحرر من الأوهام دعاماته في اللدغة التهكمية اللاذعة كما في «الماندراجولا» فحسب، بل أيضًا في توبيخ الفساد الكنسي والكشف عنه كما في أطروحات مارتن لوثر الخمس والتسعين. وتزامنت بعثة مكيافيللي إلى «جمهورية القباقيب» مع الأحداث الجسام في مدينة فورمس Worms التي تقع على ضفاف نهر الراين، إذ حدث في شهر مايو/أيار أن الإمبراطور الروماني المقدس الجديد، تشارلز الخامس، أصدر مرسومًا إمبراطوريًّا ضد مارتن لوثر، يمنع فيه كتب مارتن ويعلن أنه رجل خارج على القانون. لكن شتان بين الأفكار الفلسفية التي لمكيافيللي وبين تلك التي لمارتن لوثر، إذ إن مارتن لوثر كان يحث أتباعه على السعي من أجل الحياة الأبدية من طريق حياة التواضع والتوبة الداخلية التي رغب عنها مكيافيللي تمامًا. غير أن كل واحد منهما رأى من خلال ملاحظات متشابهة أن المسيحية قد سلكت دروبًا مؤدية إلى الهلاك.

ونشر مكيافيللي فور عودته من كاربي عملًا آخر من أعماله التي كانت تزيد بسرعة كبيرة، وكان هذا العمل هو أطروحة بعنوان «فن الحرب» — الذي كان قد انتهى من كتابته الخريف الماضي — نشره بالتحديد في السادس عشر من أغسطس/آب عام ١٥٢١م، في مطابع فيليبو دي جيوانتا Filippo di Giunta، وهو رجل فلورنسي مشهور يعمل في الطباعة ومتخصص في النصوص اليونانية. ويعد كتاب «فن الحرب» نتاجًا آخر لمناقشات مكيافيللي في الأورتي أوريتشيلاي. وقد أهداه إلى لورنزو ستروزي، زوج ابنة الراحل برناردو روتشيلاي البالغ من العمر تسعًا وثلاثين عامًا، مؤلف المسرحيتين الكوميديتين «بيزانا» Pisana، و«فلارجو» Falargo، (والأهم من ذلك) أنه هو ذات الرجل

الذي قدم مكيافيللي إلى رئيس أساقفة فلورنسا. ويشرح مكيافيللي في الإهداء أنه يكتب ما قد تعلمه عن فن الحرب لأنه لا يزال يعتقد أنه من الممكن «أن نعود بالممارسات العسكرية إلى ما كانت عليه قديمًا وأن نستعيد بعض نماذج التفوق السابق.»

بزغت فكرة كتاب «فن الحرب» في الأورتي أوريتشيلاي عام ١٥١٦م، وهو يأخذ صورة حوار، ولعله بُني عامة على محادثات جرت بالفعل. وكان أحد أهم الشخصيات الرئيسية في هذا الكتاب قائد من المرتزقة يُدعى فابريزيو كولونا Fabrizio Colonna، لقي نحبه في مارس/آذار من عام ١٥٢٠م، ومن ثم، لم يستطع أن يفند المجادلات (مثل السخرية من الاستعانة بالمرتزقة) التي وضعها مكيافيللي على لسانه. يبدأ العمل بفابريزيو وهو يعرِّج على فلورنسا في زيارة بينما كان في طريقه تاركًا لومبارديا ومتجهًا إلى ممتلكاته بالقرب من نابولي. وبعد أن ينعم بالضيافة في قصر رويتشيلاي، يتجول مع كوزيمو روتشيلاي وضيوف آخرين بين بساتين الأورتي أوريتشيلاي حيث يستطلع النباتات المتنوعة الأشكال والغريبة المنظر. ويخبره كوزيمو أنه على الرغم من أن هذه النباتات قد تبدو نادرة، فإنها كانت مألوفة جدًّا في حدائق الرومانين القدماء، وأن جده برناردو الذي أنشأ هذه الحدائق قد نهج طرقهم القديمة في الزراعة. فتأفف فابريزيو من هذا النوع من التبجيل للماضي، متفعجعًا على حقيقة أنه من بين كل أمجاد الرومانيين القدماء، فإن مثل هذه الأمور غير الهامة التي تقود إلى التراخي والانحطاط هي ما ورثه عنهم الإيطاليون المعاصرون. غير أن فابريزيو يفضل — ومكيافيللي على غراره — أن يرى روح المحارب الروماني وهي تشتعل في صدور الإيطاليين.

وعليه، تتجه المناقشات إلى الأمور العسكرية، ويصبح فابريزيو وكأنه المتحدث الرسمي عن مكيافيللي فيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي

أن تنظم بها القوات العسكرية وتُخاض بها المعارك. ومثل الكثير من أعماله، يتشبع هذا العمل بحنين إلى القوة والمجد الذي كان يومًا ما يسود الجمهورية الرومانية. ولم يكن مثيرًا للدهشة أن يقترح تكوين ميليشيا وطنية، وهي الفكرة التي كانت تستحوذ على ذهن مكيافيللي حتى إن أزمة براتو لم تستطع أن تمحوها منه. وظهرت في هذا الكتاب أيضًا بعض الأفكار الأخرى التي كانت تشغل ذهن مكيافيللي. وكان الغرض من هذا البحث أن يقوم مقام كتيب عملي للتنظيم العسكري، إذ كان فابريزيو يشدد، على سبيل المثال، على أنه ينبغي أن تكون أبعاد مخيمات الجيش بالضبط ١٣٦٠ قدمًا طولًا، وعرضها ٦٠ قدمًا، وخيامه تبعد نحو الداخل ٣٠ قدمًا. ولا يمكن أن تخفي هذه الدقة المتناهية التي تنطوي على ممارسة فعالة حقيقية أن العديد من تعليمات الكتاب كان يمكن أن تكون مدمرة في حروب القرن السادس عشر. ويقلل مكيافيللي بشدة من أهمية المدفعية، إذ يعلن ساخرًا على لسان فابريزيو أن كافة مميزات المدفعيات الثقيلة تلغيها سحب الدخان التي تؤدي إلى حجب الرؤية. وهو تكرار للجدال الذي جرى منذ سنوات قلائل في «المطارحات»، إذ إن حض مكيافيللي لإخوانه الإيطاليين على أن يحذوا حذو الرومانيين القدماء، جعله يعزف عن أن يقر بكل من سلاح المدفعية وسلاح الفرسان لمجرد أن الرومانيين القدماء إما كانوا من النادر أن يستخدموه أو أنهم لم يستخدموه على الإطلاق. ويقدم مكيافيللي مثالًا لتفوق سلاح المشاة في الحملة التي شنها كراسوس Crassus ضد أهل بارثيا Parthians عام ٥٣ قبل الميلاد — وكأن طرق الحروب القديمة لا يزال تطبيقها ممكنًا في زمان يُستخدم فيه البارود.

على أن هذه النظرة تعتبر غير منطقية بالنظر إلى أن التاريخ الحديث قد أظهر لمكيافيللي القوة المفزعة للمدافع والأسلحة النارية. وإنه لمن العار عليه أن يستخف هذا الاستخفاف الشديد باستخدام المدفعية

في الوقت الذي كان فيه ألفونسو دا إيست Alfonso d'Este يغير طريقة الحرب لتكون باستخدام نيران المدافع وهو ما كان من شأنه أن يحدث تأثيرًا فتاكًا ساهم في انتصاره في معركة رافينا. وفي حادثة تالية، أظهر الانتصار التي أحرزته فرنسا على السويسريين في معركة ماريجنانو عام ١٥١٥م، التفوق الهائل لسلاح المدفعية على سلاح المشاة، إذ لم يكن في الإمكان مضاهاة الجنود السويسريين حاملي الرماح المشهورين ببراعتهم بالمدافع الفرنسية. وما من اقتباسات للمؤلفين القدماء أمكنها أن تغفل هذه الحقيقة القوية التي لا يمكن تفنيدها.

ويؤكد الافتراض بأن طرق الرومانيين القدماء في الحرب لا تزال قابلة للتطبيق في العقود الأولى من القرن السادس عشر، على أن ثمة مشكلة مستعصية في تفكير مكيافيللي. فهو يعد مخطئًا إذ حاول أن يبرهن على صحة أقواله لمجرد أنها قديمة جرت بها العادة argumentum ad antiquitam، بموجبها تُقبل السلطة والخبرة الرومانية كأمر مسلم به بكل سهولة ويسر، بل وتُطبق على نطاق واسع. وبالطبع كان فرانشيسكو جورتشيارديني يشير إلى مكيافيللي عندما علق قائلًا: «أولئك الذين يستشهدون بالرومان في كافة الأمور يخدعون أنفسهم بشدة؛ فهم يفترضون خطأً أن دولتنا لا تزال تعيش نفس الظروف ويمكن أن تُدار بالطريقة عينها.»[1] وقد زعم مكيافيللي في مقدمة «مطارحاته» أنه كان من الممكن لرجال بلاده أن يحاكوا الرومانيين القدماء لأن الطبيعة الإنسانية ظلت كما هي دون تغيير. بل إن ثمة بعض الأشياء التي يمكن محاكاتها بسهولة ويسر دون غيرها. ففي واقع الأمر، أعادت الحضارة الإيطالية في القرن الماضي بناء نفسها وتجددت بالاستعانة بأمثلة من العصور القديمة. لكن هذا اقتصر على شيء واحد، فمثلًا: يبني مهندس معماري مثل ليون باتيستا ألبرتي Leon Battista Alberti كنيسة أو قصرًا على الطراز الروماني،

أو يكتب أريوستو مسرحيات كوميدية بالاستناد إلى مسرحيات بلوتس أو تيرنس — إضافة إلى أن القادة العسكريين يتصرفون تصرفات تعبر عن ولائهم لنماذج عمرها ألف وخمسمائة عام. لقد تطور فن الحرب والقتال تطورًا كبيرًا منذ عهد كراسس.

وكانت تأملات مكيافيللي في الحرب في محلها حقًّا، مع أنها قد تكون ضلت طريق الصواب؛ فبعد أسبوعين من طباعة كتاب «فن الحرب»، كانت جيوش البابا والإمبراطورية تحتشد لمحاربة فرنسا مجددًا. وفي شهر مايو/أيار حينما كان مكيافيللي في كاربي، أبرم ليو العاشر معاهدة سرية مع تشارلز الخامس، حفيد ماكسيميليان البالغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، تهدف إلى طرد الفرنسيين من ميلانو التي استولى عليها الملك فرانسوا الأول بعد معركة ماريجنانو الحاسمة. وفي عام ١٥٢١م، لم يكن ليو راغبًا في طرد «البرابرة» من إيطاليا قدر رغبته في حماية ممتلكات الكرسي البابوي وآل مديتشي إذا اندلعت الحرب بين فرانسوا وتشارلز، التي بدا أن وقوعها لا مفر منه. وقد حاول ليو منذ البداية أن يدخل في تحالف مع فرنسا وإنجلترا والبندقية ضد الإمبراطورية الرومانية المقدسة، لكن بعد أن استمرت المفاوضات ببطء، اقتنع ليو في ربيع عام ١٥١٢م بمداهنة تشارلز الذي منحه بياتشنسا وبارما وفيرارا علاوة على الحماية الإمبراطورية لفلورنسا.

وبدأت الأعمال الحربية في أغسطس/آب، فقامت جيوش ليو وتشارلز المختلطة بقيادة بروسبيرو Prospero، ابن عم فابريزيو كولونا، بطرد الفرنسيين من بعض ممتلكاتهم الإيطالية. وبعد مضي بضعة أشهر، وبالتحديد في نوفمبر/تشرين الثاني استولوا على ميلانو واحتلوا معظم لومبارديا، لكن ليو لم يعش طويلًا حتى ينعم بظفره، فقد وافته المنية في الأول من ديسمبر/كانون الأول، قبل عيد ميلاده

السادس والأربعين بعشرة أيام، بعد فترة حكم دامت تسع سنوات تقريبًا. ويبدو أنه توفي إثر إصابته بالملاريا، وكالمعتاد، راجت الإشاعات بموته مسمومًا.

وبطبيعة الحال، كان لموت ليو العاشر عواقبه الوخيمة الواضحة على حكم ابن عمه في فلورنسا، رئيس الأساقفة. وكان رئيس الأساقفة قائدًا أكثر فطنة وحنكة واعتدالًا مما كان عليه أي من جوليانو أو لورنزو دي بيرو، لكن مهاراته وكياسته لم تستطيعا أن تخفيا حقيقة أن حكومة فلورنسا كانت لا تزال تُدار من قصر المديتشيين وليس من قصر مجلس السيادة. ومن ثم بات هو عائلته، لأول مرة منذ ما يقرب من عقد كامل، عرضة للمخاطر بدون الحماية البابوية. فقد بدأ أعداؤه الذين كانوا يتحينون له الفرص في التحرك في أوائل عام ١٥٢٢م، وكان على رأسهم الكردينال فرانشيسكو، أخو بيرو سودريني، الذي كان أسقف فولتيرا وصديقًا حميمًا لمكيافيلي على مدار عدة سنوات. ومع توافر المال ومؤازرة ملك فرنسا، استطاع الكردينال سودريني أن يستأجر قائدًا من المرتزقة يُدعى رينزو دا سري Renzo da Ceri، وبدأ في الزحف من سيينا نحو الشمال، بهدف واضح ألا وهو خلع رئيس الأساقفة من منصبه واستئناف تأسيس جمهورية مبنية على حكومة أكثر شعبية. غير أن هذه الحملة سرعان ما تعرضت لهزيمة ساحقة بفضل بعض القوات المناصرة للمديتشيين بقيادة قائد آخر من المرتزقة يُدعى أورازيو باليوني Orazio Baglioni يبلغ من العمر تسعة وعشرين عامًا، وهو الابن غير الشرعي لجيانباولو باليوني حاكم بيروجيا.

وثمة ضربة قاصمة أخرى أطاحت بآمال الكردينال سودريني في عودة عائلته إلى الحكم إذ أميط اللثام عن محاولة لاغتيال رئيس الأساقفة في فلورنسا في أوائل يونيو/حزيران. فقد كان من المقرر أن يقوم رجلان بمحاولة الاغتيال في التاسع عشر من يونيو/حزيران

الموافق لخميس العهد، والأدهى من ذلك أن هذين الرجلين كانا يفوقان الكردينال سودريني في قربهما لمكيافيللي وهما زانوبي بونديلمونتي ولويدجي ألماني، اللذان أهدى إليهما مكيافيللي كتابه «سيرة كاسترتشيو كاستراكاني». وكان من بين المتآمرين أيضًا عدد من «أصدقاء الظهيرة» من الأورتي أوريتشيلاي. وقد تمكن كل من زانوبي ولويدجي من الفرار، غير أنه قُبض على اثنين من شركائهما اللذين أُعدما على الفور، أما الكردينال سودريني فقد زج به في سجن في روما بناء على أوامر البابا الجديد، أدريان السادس. وانتهى الفصل الأخير من هذه التراجيديا بموت الرجل الذي عُقدت عليه الآمال في تأسيس جمهورية جديدة، فبعد نفي دام عشر سنوات، مات بيرو سودريني في روما في الثالث عشر من يونيو/حزيران.

وكانت هذه المؤامرة المخفقة وعواقبها بمثابة فاجعة مروعة لمكيافيللي على المستوى الشخصي. فهي لم تُشتت زمرة الرواد الأدباء في حدائق قصر روتشيلاي فحسب، بل أيضًا مات عدد من أصدقائه المقربين والبعض الآخر نُفي. وكما كان الحال في المؤامرة التي دُبرت ضد المديتشيين عام ١٥١٣م، أُثيرت أيضًا التساؤلات والشكوك حول ما إذا كان مكيافيللي متورطًا في هذه المؤامرة أو على علم بها. فحتمًا أثار ارتباطه الوثيق بزانوبي بونديلمونتي وزعماء الفتنة الآخرين، ناهيك عن علاقته المتوترة بالمديتشيين؛ سحابة من الشكوك. غير أن كُتّاب سيرة مكيافيللي أجمعوا على براءته من أي تورط مباشر، كما برَّأته السلطات في عام ١٥٢٢م. فقد ناقش بونديلمونتي سلفًا إمكانية إشراك مكيافيللي في المؤامرة، لكنه نُصح بأن سمعة صديقه كمناوئ للمديتشيين قد تفضح الأمر برمته.

وحتى لو لم يكن مكيافيللي متورطًا في المؤامرة، فإن الأسئلة تُثار أيضًا حول ما إذا كان موافقًا عليها أم لا. فحتمًا سينتفع مكيافيللي من

نظام حكم جديد يؤسسه الكردينال سودريني، وسيكون متعاطفًا معه أكثر من تعاطفه مع حكم رئيس الأساقفة. لكن فيم عساه أن يفكر بصدد هذه المؤامرة برمتها؟ وهل كان مبرَّرًا لديه قتل رئيس أساقفة فلورنسا من أجل تأسيس حكم أكثر شعبية؟

لقد جزم روبيرتو ريدولفي Roberto Ridolfi، أبرع من كتبوا عن سيرة مكيافيللي، أن مكيافيللي نظر إلى الاغتيال السياسي على أنه «جريمة شنعاء».[٢] غير أن الدليل الملموس لكتابات مكيافيللي يطرح شهادة أكثر غموضًا. فثمة الكثير من التلميحات والإشارات إلى الاغتيال والمؤامرات في «المطارحات» التي أُهديت لزانوبي بونديلمونتي، إذ يستبيح في الفصل الثاني من الكتاب «المؤامرات الافتراضية» التي أُسست بناء عليها إحدى الحكومات الجمهورية عقب قيادة مواطنيها في ثورة للاطاحة بالحاكم الفاسد. ويكتب ميكافيللي قائلًا: «إن مثل هذه المؤامرات ينفذها أولئك الذين يتفوقون على الآخرين في النبل وعظمة الروح والغنى والمكانة الرفيعة، حتى إنهم لم يستطعوا أن يتحملوا الحياة المخزية التي يحياها أميرهم.»، وهكذا فمن الواضح أن العقوبة لا تنزل إلا بالرجال ذوي النبل والروح العظيمة لإطاحتهم بحاكم فاسد أو طاغية.

وثمة معالجة أكثر إسهابًا لهذه المسألة في إحدى فصول «المطارحات» بعنوان: «حول المؤامرات»، ويتألف هذا الفصل مما يقرب من تسعة آلاف كلمة، وهو أطول فصل في الكتاب بأكمله — مما ينوه إلى أن مكيافيللي وبعض الأصدقاء كانوا يناقشون الأمر بجدية عام ١٥١٧م. ويعتبر هذا الفصل بمنزلة دليل للمتآمرين، فهو يزخر بالاقتراحات المساعدة لمن يرغب في أن يصبح متآمرًا، إذ يصف العديد من المؤامرات السياسية ويشرح أسباب وعوامل إخفاقها. فعلى سبيل المثال يشترط مكيافيللي ألا يخبر المتآمر على الإطلاق أي شخص آخر بخططه إلا في حالة الضرورة القصوى، وعندئذ لا يبوح بذلك إلا

للأشخاص الموثوق فيهم إلى أقصى درجة. ويذكر أيضًا أنه يحظر تمامًا كتابة أي شيء على الإطلاق — فلعله تذكر أمر الورقة التي تحوي قائمة بأسماء المتآمرين والتي سقطت بلا أدنى اكتراث من أغسطينو كابوني. ومن التعليمات التي يقشعر لها البدن أنه ينبغي ألا يُترك على قيد الحياة أيٌّ من هؤلاء الذين يمكنهم الأخذ بالثأر. ويستشهد في ذلك على سبيل التحذير بحكاية قتلة جيرالمو رياريو Girolamo Riario الذين تركوا بحماقةٍ كاترينا سافورزا على قيد الحياة لتأخذ ثأرها بوحشية. ويناقش أيضًا الميزات النسبية لاستخدام السيف في القتل مقابل استخدام السم (راغبًا عن الأخير لأنه لا يمكن الاعتماد عليه).

وبالمثل تبرز ملاحظات مكيافيللي بشأن الاغتيال السياسي في كتابه «تاريخ فلورنسا»، هذا العمل الذي كان يؤلفه وقتَ مؤامرة عام ١٥٢٢م. وينطوي هذا الكتاب على وصف لاغتيال جاليزيو ماريا، والد كاترينا سافورزا، الذي مات إثر طعنه بالسكين في ميلانو عام ١٤٧٦م. ويروي مكيافيللي كيف أن المتآمرين الذين كانوا صغارًا في السن رغبوا في أن يخلصوا ميلانو من الدوق الوحشي الفاسق وأن يأسسوا حكومة شعبية. وكانت روح الجمهوري المتقدة بالحماس لدى كولا مونتانو Cola Montano، زعيم الفتنة، تعتبر في نظر مكيافيللي روحًا نبيلة إلى أقصى درجة وجديرة بالثناء، وكانت بلا جدال تبرر قتل طاغية مستبد مثل جاليزو ماريا سافورزا. وينعي مكيافيللي موت المغتالين، ويضع على لسان أحدهم — وهو جيرالمو أولجياتو Girolamo Olgiato الذي كان يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا، والذي أُعدم لاشتراكه في عملية التآمر — بعض الكلمات البطولية التي قالها قبيل موته مباشرة: «الموت أفضل جدًّا، وسيدوم ذِكري إلى الأبد، إذ ستدوم بحق ذكرى صنيعي طويلًا.»

وقد سُطرت هذه الكلمات بعد مرور مدة ليست بالطويلة على المؤامرة الفاشلة لاغتيال رئيس الأساقفة. ولا يصعب علينا أن نقرأ في توجع مكيافيللي الحزين على «هؤلاء الشباب الأشقياء» أساه على أصدقائه في الأورتي أوريتشيلاي. وقطعًا تفجع مكيافيللي على موت أصدقائه ونفي بونديلمونتي وألماني، لكنه ليس ضروريًّا أن يكون قد استنكر مؤامرتهم أو ندد بها باعتبارها جريمة.

الفصل التاسع عشر

لم تعد فلورنسا تجذب مكيافيللي كثيرًا بعد انفصام عرى الزمرة الأدبية في الأورتي أوريتشيلاي، ويبدو أنه أمضى معظم العامين التاليين في ريف سانتا أندريا إن بركوازينا، كاتبًا تاريخه ومنصرفًا لإدارة مزرعته، وكان لا يزال يضع الأشراك لصيد طائر السُّمنة (فقد أهدى إلى شقيق زوجته ثلاثين طائرًا في نهاية عام ١٥٢٢م) ويشرف على حصاد محاصيله وبيعها، وكان يتولى أيضًا شئون أخيه توتو الذي مات في يونيو/حزيران ١٥٢٢م، مضاعفًا أساه وخسارته في هذا الشهر الموحش.

ومن المخاوف الأخرى التي كانت تساور مكيافيللي سلوك ثاني أبنائه لودوفيكو الذي كان شابًّا مشاكسًا وصعب المراس؛ ففي أوائل عام ١٥٢٣م كتب مكيافيللي إلى صديقه فرانشيسكو فيتوري يندب قدر الآباء الذين ابتلوا بالأولاد، وكان يساروه أيضًا القلق بشأن عدة أشياء من بينها علاقة لودوفيكو البالغ من العمر تسعة عشر عامًا بشاب آخر، فكتب مكيافيللي يقول: «هما يلعبان معًا، ويلهوان معًا، ويتجولان معًا، ويهمس أحدهما في أذان الآخر، وينامان في نفس الفراش أيضًا.» وذُهل فيتوري حتمًا من تحول مكيافيللي الماجن والمنغمس في الشهوات إلى شخص متشدد مستنكرًا للرذائل الأخلاقية، ونظر فيتوري إلى سلوك لودوفيكو نظرة واسعة الأفق متحررة؛ إذ رأى أنه هو نفسه قد انخرط

في كثير من العلاقات الماجنة إبان شبابه، فقد ذكَّر مكيافيللي قائلًا: «ونحن نتقدم في العمر نصبح أكثر تجهمًا، إذا جاز التعبير، ويُصبح من الصعب إرضاؤنا، ولا نتذكر ما فعلناه في صبانا.»

وهكذا من المفارقات الهائلة أن نجد مؤلف مسرحية «الماندراجولا» فجأة يلعب دور الشيخ الفظ الذي يدخل في صدام مع ابنه المراهق، ولا يزال قلق مكيافيللي بشأن سلوك لودفيكو الجنسي مثيرًا للدهشة عند الأخذ في الاعتبار السلوك المتحرر لمكيافيللي نفسه، ويبدو أن مكيافيللي قد اتخذ اتجاهًا متساهلًا نحو ما عُرف في كافة أنحاء أوربا باسم «رذيلة فلورنسا»، على الأقل عندما لم يكن لودفيكو متورطًا في مثل هذا الأمر. وقد كان أحد أصدقائه المقربين في فلورنسا وهو صاحب متجر يُدعى دوناتو ديلا كورنو Donato del Corno من اللوطيين، ويبدو أن متجره — الذي كان مكيافيللي كثير التردد عليه حتى إن دوناتو أطلق عليه لقب «حشرة المتجر» — كان مجرد مكان لتصيد اللوطيين الآخرين. أما إذا كان مكيافيللي نفسه قد أقام علاقات جنسية مع ذكور فهو أمر غير مؤكد، مع أنه تعرض في فترة من فترات حياته للقيل والقال بشأن هذه المسألة؛ ففي عام ١٥٠٠م توقف أحد أعضاء مجلس العشر للحرية والسلام يُدعى أوتافيانو ريبا Ottaviano Ripa بالمستشارية، وفي غضون محادثته مع أغسطينو فيزبوتشي والعديد من رجال السكرتارية الآخرين، خمن أن مكيافيللي قد يواجه «خطرًا جسيمًا» في أثناء إقامته في فرنسا «حيث يُحاكم اللوطيون بعنف.» وعندما اعترض فيزبوتشي مُعلنًا أن شخصية مكيافيللي «لا تشوبها شائبة» رد عليه ريبا بحكاية سخيفة مفادها أن مكيافيللي قد ضاجع حصانًا من قبل، وهي إشاعة تفصح بالأحرى عن عدم وجود ما يشغل ريبا إلى جانب ميوله الساذجة (أو الخبيثة) أكثر مما تفصح عن مغامرات مكيافيللي الجنسية.

ولم يكن مكيافيللي متجهمًا ومتشددًا للدرجة التي لا يقع معها في «الشباك الذهبية» التي تنسجها الإلهة فينوس، وإن كان يبدو أن علاقته الغرامية مع زوجة نيقولو تافاني المهجورة — إذا كانت قد تطورت بالفعل — كانت منذ أمد بعيد، فإنه بدأ علاقة غرامية أخرى في أوائل عام ١٥٢٤م، هذه المرة مع مطربة تُدعى باربرا رافاكاني Barbera Raffacani. وقد التقى بها في منزل جاكوبو فالكونتي Jacopo Falconetti، الذي يعمل صانعًا للطوب والجص والذي لقب بفورناكيايو Il Fornaciaio (المشتق من كلمة فرن Fornace). وكانت عملية صنع الجص عملية مؤذية تنطوي على ضرر لصحة أي إنسان يعمل بها، وقد جنى فالكونتي مكاسب كبيرة من وراء هذا العمل — الذي أمد صناعة البناء بمكونات الملاط واشترى لنفسه فيلا مريحة وحدائق على بعد مسافة قصيرة جنوب غرب فلورنسا في منطقة سانتا ماريا إن فيرزايا Santa Maria in Verzaia. وكان فالكونتي قد خدم في وقت ما في مجلس السيادة قبل أن يقوم ببعض الانتهاكات غير المعروفة التي دفعت به بعيدًا مطرودًا من منصبه ومحرومًا من دخول فلورنسا لمدة خمس سنوات، وفي هذا المكان خارج بوابات ضيعة سان فرديانو، توارى عن الأنظار لا يمسسه سوء، حيث حقق أقصى استفادة من منفاه من خلال الترحيب بمجموعات الأصدقاء قاضين الوقت في بذخ وترف.

ودُعي مكيافيللي عام ١٥٢٤م إلى حضور هذه التجمعات، وقد مُدح مكيافيللي لأجل «الماندراجولا» وليس من أجل «الأمير» أو «المطارحات». وقد خلت مائدة فالكونتي خلوًّا تامًّا من المناظرات السياسية الرفيعة الثقافة التي كانت تعم أرجاء الأورتي أوريتشيلاي، غير أن مكيافيللي المنغمس في الملذات الحسية الذي يمكن لمعدته أن تسع «ستة كلاب وثلاثة ذئاب» استمتع بهذه التجمعات لهذا السبب ليس إلا. ففي الواقع،

يُرجح أن الشيء الذي جمع بين مكيافيللي وفالكونتي هو الطعام في المقام الأول، ويبدو أنهما قد التقيا في نادٍ غير تقليدي لتناول العشاء يُدعى «صحبة الجاروف»* وقد تجمع أعضاء هذه المجموعة المحبين للملذات منذ عام ١٥١٢م في الولائم المبهجة التي يتبارى فيها المضيفون لتقديم أشهى وألذ الطعام، وقدم أحد أعضاء هذه الجماعة وهو الرسام أندريا ديلا سارتو Andrea del Sarto ذات مرة طبقًا مشهودًا بحق؛ فقد قدم للصحبة حلوى المرزبان في شكل هيكل ثماني الأضلاع، صنعت أعمدة الهيكل من السجق، وإفريزه من المعجنات، أما زخرفة الهيكل الفسيفسائية الملونة فصنعت من حلوى الجيلي، وكان بداخل الهيكل منبر وعظ منحوت باستخدام اللحم البارد، وإنجيل مصنوع من المكرونة صفحاته مكتوبة بحب الفلفل، وجوقة للمنشدين من طيور السُّمنة المتسربلة بحلة الكهنوت البيضاء ومناقيرها مفتوحة كما لو كانت تغني، وحمامتان سمينتان في هذه الجوقة تصدحان بصوت الجهير، وستة من طائر القنبرة ليصدحوا بصوت السبرانو[١]. ولعل مكيافيللي هو الذي قدم طيور السمنة لهذه الجوقة التي يمكن التهامها، إذ إن أندريا كان قد رسم المنظر الجميل الذي اسُتخدم في «الماندراجولا» عند عرضها أمام «صحبة الجاروف» في وقت ما عام ١٥٢٣م. ومن المحتمل أن يكون فالكونتي قد حضر هذا العرض — الذي قُدم في مدينة مونتيلورو التي تقع على بعد عشرة أميال من فلورنسا — أو على الأقل سمع عنه بعدها. وكان فالكونتي يخطط في مطلع عام ١٥٢٤م لعرض المسرحية في منزله الخاص للاحتفال بانتهاء مدة نفيه، وعرض مكيافيللي أن

* استمدت هذه المجموعة اسمها من حادثة كوميدية أثناء عشاء أقيم في حديقة موسيقى أحدب اسمه فيو دانولو Feo d'Agnolo إذ قام أحد المدعوين بحمل جاروف، كان أحد العمال قد تركه، ثم ملأه بالملاط. وعندما فتح فيو فمه ليأكل قطعة من جبن الريكوتا، ألقى هذا المدعو بالملاط فيه، ومنذ لك الحين أصبح الجاروف هو رمز هذه الجماعة.

يكتب له خاصة مسرحية جديدة بدلًا من تلك، ويعطي أحد أدوار البطولة لباربرا رافكاني.

وبلا ريب كانت باربرا، التي كانت تستخدم الاسم المستعار «باربرا فيورنتينا»، عاهرة، وقد وصفها فرانشيسكو جورتشيارديني صديق مكيافيلي — نابذًا إياها في خطاب ساخر — على أنها «رفيقة مبهرجة»، وزعم أيضًا أنها «تبذل كل ما في وسعها، كما تفعل مثيلاتها، كي تَسر الجميع.» وقد كانت باربرا تصغر مكيافيلي كثيرًا في العمر، وهذا التفاوت العمري بينهما ألهم مكيافيلي بدرجة ما الحبكة الدرامية للمسرحية التي كتبها من أجل تسلية فالكونتي؛ تدور المسرحية التي حملت عنوان «سلزيا» Clizia حول رجل يُدعى نيقوماكو Nicomaco — من الواضح أنه سُمي على اسم مكيافيلي نفسه (نيقولو) — يتصارع مع ابنه سليندرو Cleandro على حب فتاة صغيرة تُدعى سلزيا، وتصور المسرحية حماقة رجل كهل يطارد فتاة صغيرة مما يوحي بأن مكيافيلي حتمًا لم يفقد حسه الفكاهي، ولعل صورة الخلاف بين الوالد وابنه تلقى الضوء على التوتر القائم في علاقة مكيافيلي نفسه بابنه لودوفيكو.

وعكف مكيافيلي على تأليف المسرحية المكونة من خمسة فصول في النصف الثاني من عام ١٥٢٤م، متممًا إياها في الميعاد المحدد للعرض في مستهل عام ١٥٢٥م — وكان في عجلة من أمره، ويُستدل على ذلك من تاريخ الانتهاء من العمل. في الواقع كان مكيافيلي يترجم ويعدل في الأحداث بنفس القدر الذي كان يؤلف به، إذ إن معظم الحبكة الدرامية مأخوذة من مسرحية هزلية لبلوتس بعنوان «كازينا» Casina، التي قُدمت لأول مرة نحو عام ١٨٥ قبل الميلاد، وقد نقل مكيافيلي مسرح الأحداث إلى فلورنسا وبالتحديد أثناء مهرجان عام ١٥٠٦م، وتبدأ المسرحية باليوم الذي يعارض فيه نيقوماكو — الذي وُصف صراحة بأنه «مسن مخبول وأعمش ويسيل لعابه وبلا أسنان» — زواج

فتاته الصغيرة التي تخضع لوصايته، البنت اليتيمة سلزيا التي عاشت مع عائلته على مدار الاثني عشر عامًا الماضية، فبعد أن يرفض أن يزوجها ابنه سليندرو المغرم بحبها، يخطط أن يزوجها خادمه المغلوب على أمره بيرو Pirro الذي لن يعترض على أن يضاجعها نيقوماكو وقتما شاء، غير أن زوجته سوفرونيا Sofronia العالمة ببواطن الأمور كانت لديها خطط أخرى، فتقوم سوفرونيا بإحباط مخططاته؛ إذ تجعل أحد الخدام الذكور يرتدي ملابس سلزيا ثم تجعله يتسلل ويحل محل سلزيا في فراش الزوجية، ويمشي نيقوماكو على أطراف أصابعه بلهفة حتى المخدع بعد أن يتجرع عقارًا قويًّا مثيرًا للشهوة الجنسية «يعيد الشباب والحيوية لرجل في التسعين من عمره». وبعد احتدام الصراع تحت الغطاء، يفزع نيقوماكو عندما يجس «شيئًا مدببًا وصلبًا» في السرير، عندئذ يلقي الخادم بالغطاء ويومئ إيماءة فظة في وجه نيقوماكو المصعوق، فينوح الرجل الهرم قائلًا: «لسوف يغطيني الخزي إلى الأبد.» وينفجر باقي شخصيات المسرحية ضحكًا على حماقته وبليته.

وتبرز المسرحية الكثير من العناصر المتشابهة مع «الماندراجولا»، بما في ذلك التلاعب بالألفاظ الفكاهية، والإشارات المتعلقة بالموضوع، ومسنٌ أخرق مضحك يُخدع ببراعة، وما يمكن أن تطلق عليه رقابة هذا العصر «محتوى ذا طابع جنسي». وفي مُجمل الأمر، لم تنجح هذه المسرحية بنفس قدر نجاح «الماندراجولا»، ويُعزى ذلك في الأغلب الأعم إلى أن مكيافيللي فضل أن يصف الأحداث — مثل المواجهة التي حدثت في المخدع بين نيقومو والخادم — على أن يبينها بوضوح على خشبة المسرح، مما نتج عنه عديد من الأحاديث المطولة من الشرح والتفسير بدلًا من التعليقات الكوميدية القصيرة التي كانت تزخر بها المسرحية السابقة. فعلى سبيل المثال، رأينا في «الماندراجولا» الجراءة في تقديم عينة من البول على خشبة المسرح، وفي «سلزيا» سمعنا عن العقار

المنعش للشهوة الجنسية النافذ المفعول لدرجة أنه يمكنه أن «ينعش كتيبة من الجنود»، لكننا لم نره قط. فثمة فرق هائل بين المسرحيتين، وقد سُخِّر هذا الفارق لأغراض درامية.

وقد قيل إن المسرحية حققت نجاحًا باهرًا إثر عرضها في فيلا فالكونتي في الثالث عشر من يناير/تشرين الثاني عام ١٥٢٥م. فقد أثارت شهرة مكيافيلي ككاتب مسرحيات «رغبة الجميع في مشاهدتها». ولم يقدم فالكونتي الدعوة لنبلاء فلورنسا فحسب، بل دعا أيضًا التجار من الطبقة المتوسطة وحتى أكثر الناس فقرًا (في سابقة جديدة). وتدفق جمع غفير — وقد تصرف البعض منهم على نحو مثير للجلبة — عبر بوابات سان فرديانو حتى يتجهوا في رحلة قصيرة إلى سانتا ماريا إن فيرزايا. ولم يتطلب الأمر الكثير من النفقات لإنجاحه، فقد مُهد جزء من حديقة فالكونتي لعمل مسرح، وأعد الديكورات الرسام باستيانو دا سانجالو Bastiano da Sangallo، ابن شقيق جيوليانو دا سانجلو Giuliano da Sangallo صديق مكيافيلي، وأحد مساعدي مايكل أنجلو في تصميمات كنيسة سيستاين، وقد رقصت الفتيات والفتيان الذين يلعبون أدورا الحوريات ورعاة الغنم على خشبة المسرح أثناء أغنية الافتتاحية «مبارك هذا اليوم السعيد» التي ألفها مكيافيلي وغنتها باربرا، كما غنت الأغنيات التي قُدمت بين الفصول. وجلب نجاح المسرحية على مكيافيلي الكثير من الثناء، فكتب صديق يعيش على بعد مسافة قصيرة من مدينة مودينا إلى مكيافيلي قائلًا: «لقد انتشرت أخبار نجاح مسرحيتك في كل الأرجاء، لقد أتقنت أنت وفورناتشيايو Fornaciaio الأمور حتى إن أخبار عربدتك قد عمت كل الأرجاء، ولا تزال تنتشر ليس في كافة أرجاء توسكانيا فحسب بل في كل مكان في لومبارديا أيضًا.» وبدأت عجلة الحظ تدور حول محور لافت للنظر للغاية، إذ إن الرجل الذي نال الشهرة بسبب مليشيته عام ١٥٠٩م، ثم ضُرب

دون غيره بالهوان والخزي عام ١٥١٢م، يحصل الآن على المجد ككاتب للمسرحيات الكوميدية المنحطة.

غير أن مكيافيللي لا يزال يعقد الآمال على نوع آخر من المجد، ففي خلال أسابيع قلائل من عرض «سلزيا» التي حققت النجاح الباهر، انتهى مكيافيللي من كتابة «تاريخ فلورنسا». فبعد أربع سنوات من العمل، جاء مكيافيللي بمجلد ضخم يتكون من مائة وسبعين ألف كلمة، يتناول ألف عام من تاريخ فلورنسا منذ غزوات البرابرة وحتى وفاة لورنزو العظيم، والآن باتت المخطوطة جاهزة لتُقدم إلى الرجل الذي أناط إليه بهذه المهمة، ومن ثم يحتاج مكيافيللي أن يسافر إلى روما.

كان البابا أدرياني السادس، الهولندي الجنسية، قد لقي نحبه في سبتمبر/أيلول عام ١٥٢٣م، بعد انقضاء عشرين شهرًا فقط على توليه المنصب، وفي الاجتماع الذي عُقد عقب ذلك لانتخاب البابا الجديد، اختير جيوليو دي مديتشي، رئيس أساقفة فلورنسا، ليرتقي كرسي البابوية باسم البابا كليمنت السابع، وعليه، تكون هذه هي المرة الثانية التي يضع فيها أحد أفراد المديتشيين التاج البابوي، وللمرة الثانية أيضًا ترتفع آمال فلورنسا في الاستفادة من التحالف مع الكنيسة.

ويعد تبوُّء كليمنت السابع لهذا المنصب ثمرة واضحة لجهود فلورنسا السياسية، ويأتي اختيار كليمنت جزئيًّا إثر مؤازرة الإمبراطور الروماني المقدس، تشارلز الخامس، الذي سانده في الوقت الذي كان يدير فيه شئون السياسة البابوية تحت قيادة ليو العاشر، وقد تزامن اختياره مع تحرك قوات الاحتلال الفرنسي العاتية المكونة من سبعة وعشرين ألف جندي إلى لومبارديا، إذ عزم فرانسوا الأول أن يعيد نزع ميلانو من القوات الإمبراطورية التي كانت تحت قيادة بروسبيرو كولونا. ولكون كليمنت متقلبًا وقلقًا بالفطرة، بدأ يتبع سياسة «الطريق

الأوسط» المترددة التي كانت تثير سخط مكيافيللي أيما إثارة عندما كان مجلس السيادة يتبعها. وهكذا شرع كليمنت في لهفة وقلق في مفاضلة القوى النسبية للقوات الفرنسية والقوات الإمبراطورية، عندئذ بدأ البابا في التنصل من تحالفه السابق مع الإمبراطور والتعامل خفية مع ملك فرنسا، ودفعه إعادة استيلاء فرنسا على ميلانو في نوفمبر/تشرين الثاني إلى الالتزام نحو فرنسا، وبعد مضي شهر وقع معاهدة سرية مع فرانسوا ضد الإمبراطور.

وقد كشف هذا التحالف منذ البداية عن كارثة مروعة؛ ففي غضون شهرين، وبالتحديد في الثالث والعشرين من فبراير/شباط ١٥٢٥م، هزم جيش الإمبراطور القوات الفرنسية هزيمة نكراء في ميدان المعركة في مدينة بافيا، إذ وقع ما يقرب من اثني عشر ألف جندي فرنسي بين القتيل والجريح وذُبح القائد الأعظم للقوات الفرنسية لويس دي لا تريمويل Louis de la Trémoïlle. وأُسر فرانسوا نفسه — وهو أول ملك يؤسر في ميدان المعركة منذ عام ١٣٥٦م، حينما أسر الإنجليز الملك جون الثاني، ملك فرنسا في معركة بواتييه، وعلى الفور غزت جيوش الإمبراطور ميلانو مرة أخرى تاركةً كليمنت تحت رحمة الإمبراطور.

وكانت هذه هي اللحظة ذاتها غير الملائمة التي قرر فيها مكيافيللي أن يسافر إلى روما كي يقدم للبابا كتاب «تاريخ فلورنسا»، غير أن أحد الأصدقاء حذره قائلًا: «الوقت غير ملائم تمامًا للقراءة أو لتلقي الهدايا.» فلم يسافر إلى روما حتى مايو/أيار، عندما أُبرمت معاهدة بين تشارلز الخامس والكنيسة، وقبل كليمنت كتاب التاريخ الذي علق عليه بما مفاده أنه من الممكن أن «يستمتع به»، وأعطى مكيافيللي مائة وعشرين فلورين — أي عشرين فلورين زيادة عن المبلغ المتفق عليه — من ماله الخاص.

ولعل البابا لم يكن ليكون سخيًّا بما في فيه الكفاية في عطائه لو كان قد قرأ الكتاب أولًا، إذ كانت معظم الكتب السابقة التي تناولت تاريخ فلورنسا، أناشيد مسهبة في مدح المدينة، طالما تشع فيها روح الوطنية المأخوذة عن كتاب ليوناردو بروني Leonardo Bruni «في مدح مدينة فلورنسا» Laudatio Florentinae urbis الذي ألفه عام ١٤٠٣م، إذ أجهش ليوناردو في التعبير عن مشاعره قائلًا: «تحفل فلورنسا بتلك الطبيعة الفريدة حتى إنه لا يوجد على وجه الأرض مدينة أكثر منها تفردًا أو عظمة.» وعلى النقيض من ذلك، كانت صفحات كتاب التاريخ التي سطرها مكيافيللي، إذ كانت تروي قصة انشقاق معتمة وقاسية، وتصف العنف والفساد المتفشي، وتنعي انعدام الكفاءات السياسية والحريات المسلوبة، وقدمت بأسلوب ساخر المناوشات العسكرية السخيفة التي كان يقودها قادة المرتزقة المجردين من المبادئ الأخلاقية. وثمة أيضًا وصف مروع لحادثة أكلي لحوم البشر التي وقعت في فلورنسا عام ١٣٤٣م، هذا بالإضافة إلى سرد أحداث مؤامرة بازي المرعبة التي جرت أحداثها عام ١٤٧٨م — الاغتيال السياسي الذي لقي فيه جيليانو دي مديتشي، والد كليمنت السابع وأخو لورنزو العظيم، حتفه.

وانتاب مكيافيللي القلق الشديد في غضون تأليف العمل بسبب تناوله الدقيق لأمور آل مديتشي، فكيف جرأ مكيافيللي على التحدث عن تاريخ العائلة التي أطاح أعضاؤها بدستور فلورنسا الجمهوري، وسحقوا بأقدامهم حريات المدينة، كما يرى مكيافيللي؟ وينوه مكيافيللي في إهدائه لكليمنت السابع في مقدمة الكتاب إلى أنه قد يبدو أنه ضن بمدحه على المديتشيين، بيد أنه يدعي بأنه التزم بتعليمات البابا نفسه في كتابة تاريخ أسلافه بطريقة تخلو من التملق والمداهنة المفرطة. ولكن يجب القول إن مكيافيللي لم يضن تمامًا بمدحه، إذ إنه جعل

كوزيمو دي مديتشي بطلًا تنطبق عليه الصفات التي يجب أن يتحلى بها الأمير المذكورة في كتاب «الأمير»، عندما ذكر كيف أن حصافة كوزيمو وثراءه و«طريقته في العيش» جعلت شعب فلورنسا «يهابه ويحبه في الوقت ذاته». غير أنه يوجِّه العديد من النقد للعائلة، ولا سيما النقد اللاذع لمؤامرة بازي، فنجد أن مكيافيللي بلغ حد الدفاع عن القتلة، إذ يدعي أن محاولة قتل لورنزو جاءت إثر محاولة المديتشيين الحصول على السلطة المطلقة في المدينة، ويسرد مكيافيللي، دون اكتراث حقيقة أن سيده مات في الحادث، قائلًا: «كانت الحكومة قاصرة تمامًا على المديتشيين الذين أحكموا قبضتهم على زمام مثل هذه السلطة العظيمة، حتى إن الساخطين أُجبروا على تحمل مثل هذا النوع من الحكم بصبر، أما إذا حاولوا أن يتخلصوا من هذا الوضع فإنهم يفعلون ذلك خفية بتدبير الدسائس والمؤامرات.» ويرى مكيافيللي أن هؤلاء المتآمرين لم يكونوا مختلفين عن أولئك الذين طعنوا جاليزو ماريا سافورزا منذ سنوات قلائل.

ولكن لم تضع كافة الحقائق الأخرى تمامًا في طيات هذه الدراسة القاتمة لتاريخ فلورنسا؛ إذ يبرز الكتاب الفكرة المألوفة التي يعلق عليها مكيافيللي في المقدمة حول كيف أن المدينة تمكنت من توحيد ذاتها، وأن شعبها تفوق على شعوب الجمهوريات الأخرى جميعًا سواء في الماضي أو في الحاضر. ويُرجع مكيافيللي تفاؤله هذا إلى قوة الجيوش والصناعة التي تمتلكها المدينة، ولا سيما المليشيا الوطنية التي تألفت من ألف ومائتي جندي في سلاح الفرسان واثني عشر ألف جندي في سلاح المشاة، الذين تمكنت الجمهورية من تجنيدهم من بين مواطنيها في أيام سالفة.

وبالطبع لم تكن مسألة المليشيا الوطنية هي مجرد تعبير عن حنين مكيافيللي للماضي، فقد انتهز فرصة تقديم المخطوطة كي يهمس

في أذني البابا بصدد إنشاء مليشيات في كافة أنحاء الدول البابوية كي تحمي مصالح الكرسي البابوي. أصغى كليمنت جيدًا لمكيافيللي بسبب القلق الذي كان يعتريه بصدد حماية نفسه من يد الإمبراطور الطولى وجوره، ثم أمره بالذهاب إلى فاينتسا في رومانيا كي يجري دراسة جدوى لمثل هذا المشروع. وترك مكيافيللي روما ومعه مذكرة بابوية تفيد بأنه على وشك أن ينخرط في «مسألة ذات شأن عظيم» تعوّل عليها «سلامة الدول البابوية وكذلك سلامة إيطاليا بأكملها بل والعالم المسيحي بأكمله»، وبالطبع كان هذا تضخيمًا مبالغًا فيه للمسألة، وتتحدث هذه الرسالة البابوية عن قدرات مكيافيللي في الإقناع أكثر مما تتحدث عن ضرورة وجود أي تخطيط لإنشاء المليشيا أو فاعليته، غير أن أحد أجزاء الرسالة اتسم بالدقة وهو ذلك الجزء الذي يتحدث عن أن إيطاليا والعالم المسيحي بأكمله مشرفان على خطر محدق.

تصطف الجنود والعروض العسكرية في الهواء البارد، وتُقرع الطبول وتضرب الأرجل مع اللحن العسكري، وتصطف الرماح في شكل مربعات في الساحة، وترفرف الأعلام وتدق الأجراس. هكذا كان مكيافيللي يحلم بلا شك وهو في طريقه عائدًا نحو الشمال في يونيو/حزيران، بشأن عودته إلى العمل الذي كان يقوم به في القرى الوعرة في كاستينو قبل أكثر من اثني عشر عامًا، على أن حقيقة أن مكيافيللي قد أكمل ستة وخمسين ربيعًا منذ أسابيع قلائل قبل ارتحاله إلى روما، لم تثن عزمه أو تثبط طاقاته. وأغلب الظن أن مكيافيللي سافر مباشرة إلى فاينتسا، حيث لحق بالقوات هناك وبمعيته فرانشيسكو جوتشياrديني الذي كان قد عُين حديثًا حاكمًا لرومانيا. لكن واحسرتاه، لقد أحبط جوتشياrديني خطة المليشيا تمامًا؛ إذ نوه إلى أن هناك العديد من العقبات من بينها أنه ينبغي تأسيس المليشيا البابوية على أساس الحب

للكنيسة، وهو ما ينعدم تمامًا لدى فلاحي رومانيا المشاكسين، وفي نهاية الأمر رفض البابا الخطة، وعاد مكيافيللي أدراجه إلى رومانيا قبل نهاية شهر يوليو/تموز.

ولم تذهب الرحلة إلى فاينتسا سدى، إذ تعرف مكيافيللي هناك إلى عاهرة تُدعى ماليسكوتا Maliscotta، التي يُقال إنها فُتنت «بحسن سلوكه وبأحاديثه». علاوة على، أنه شرع هو وجوتشارديني في التخطيط لعرض «الماندراجولا» في فاينتسا، وقد برر له هذا المشروع أن يستمر على اتصال بباربرا فيورنتينا حالما عاد إلى فلورنسا. كتب مكيافيللي في نهاية شهر سبتمبر/أيلول قائلًا: «دأبنا في غضون الأمسيات القلائل الأخيرة على تناول العشاء معًا أنا وباربرا ومناقشة الأمور المتعلقة بالمسرحية.» وقد ألف مكيافيللي عددًا من الأغنيات لتغنيها باربرا في الأوقات الفاصلة بين فصول المسرحية، وكان من بين هذه الأغنيات أغنية بعنوان «ما أجمل الخداع!» — وهو ثناء مرح على ذلك النوع من الخداع الذي مدحه منذ أكثر من اثني عشر عامًا مضت في كتاب «الأمير».

وكان العمل على وشك أن يُقدم في مطلع عام ١٥٢٦م، غير أنه أُلغي في اللحظة الأخيرة؛ فقد دُعي جورتشيارديني في عجلة إلى روما لمناقشة بعض التطورات السياسية الخطيرة مع البابا، وبعدها مباشرة بفترة وجيزة في مارس/آذار عام ١٥٢٦م، دُعي مكيافيللي أيضًا إلى روما. لقد كانت فلورنسا مهددة بالغزو، وكما كان الحال في الأيام الخوالي استنجدوا بمكيافيللي لإيجاد الحل.

الفصل العشرون

مرة أخرى بدا أنه لا مفر من نشوب الحرب، وكالمعتاد بدأت الحرب بمعاهدة سلام، فقد أبرم ملك فرنسا والإمبراطور تشارلز الخامس «معاهدة مدريد» في الرابع عشر من يناير/تشرين الثاني عام ١٥٢٦م، التي بموجبها يتنازل فرانسوا عن كافة مزاعمه في الأراضي الإيطالية بما في ذلك ميلانو ونابولي وجنوة. عندئذ أُطلق سراح فرانسوا من أسره الذي ظل فيه منذ معركة بافيا، غير أن ابنيه الاثنين أُخذا رهينتين لضمان التزامه ببنود المعاهدة، وسرعان ما أصبح جليًّا للجميع أن فرانسوا ليست لديه خطط من أي نوع ليمارسها.

وباتت سيادة الإمبراطور على إيطاليا والدمار التام الذي لحق بالثروات الفرنسية هما الشغل الشاغل للبابا، وإذا كان يوليوس الثاني قد شكل العصبة المقدسة عام ١٥١١م بُغية طرد الفرنسيين من إيطاليا، فإن الهيمنة الإمبراطورية هي التي قادت كليمنت السابع ليُشكل عصبة مقدسة جديدة. وقد وُقع ميثاقها في مدينة كونياك Cognac الفرنسية في الثاني والعشرين من مايو/أيار عام ١٥٢٦م، مكونة بذلك تحالفًا قويًّا ضد الإمبراطور، وقد كان موقعوها هم فرنسا والدول البابوية وفلورنسا والبندقية، وقد أخلت مشاركة فرانسوا ببنود معاهدة مدريد، غير أن كليمنت سعد بأن يحله من هذه الخطيئة.

وكانت خطورة الموقف وتداعياته على فلورنسا هي التي دعت إلى الإنعاش السريع لحظوظ مكيافيللي السياسية، وقد أكسبه كتاب «فن الحرب» صيتًا ذائعًا باعتباره مهندسًا عسكريًّا (إذ يتناول القسم الأخير منه مناقشة مسهبة حول الحصون) حتى إن كليمنت دعاه في الربيع إلى روما كي يناقش معه أحوال فلورنسا الدفاعية. أعد مكيافيللي على الفور تقريرًا عنوانه: «سكرتارية ومسئولو المؤن التابعون لقادة الأسوار حديثة الإنشاء»، وقد عمل برناردو، أكبر أبناء مكيافيللي البالغ من العمر اثنتين وعشرين عامًا مساعدًا له، وقد استمتع الأب والابن بمهمة تفقد حصون فلورنسا المختلفة، وقد أخبر مكيافيللي صديقه جوتشيارديني في مايو/أيار قائلًا: «إن ذهني ممتلئ عن آخره بالأسوار حتى إنه لا يوجد مكان يمكن أن تتسرب إليه أي فكرة أخرى.» غير أن ثمة أشياء أخرى سيتعين عليه أن يفكر فيها؛ فبعد مرور شهر تلقى مكيافيللي الأوامر بترك أسواره والاتجاه شمالًا إلى لومبارديا حيث كانت الحرب قد نشبت بالفعل، وكُلف بمهمة إعادة تنظيم فرقة من جنود المشاة لمحاربة العدو. والمفارقة الغريبة هي أن الذي كان يقود هذه الفرقة هو فيتلو فيتلي Vitello Vitelli، ابن شقيق كل من باولو وفيتلوزو فيتلي، ووجد مكيافيللي الرجال في «وضع واهن» لدرجة أنه شك أنهم يمكن أن ينصاعوا لأوامره.

وما إن وصل مكيافيللي إلى لومبارديا في ماريجنانو التي تقع على بعد عشرة أميال جنوب شرق ميلانو، حتى شعر حتمًا وكأنه في أوج تألقه المهني، إذ تقابل مع قائد سلاح المشاة الخاص بالعصبة المقدسة، جيوفاني دي مديتشي Giovanni de' Medici الذي يلقب بجيوفاني ديلا باندي نري Giovanni delle Bande Nere البالغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا وابن كاترينا سفورزا، المرأة التي بدأ معها مكيافيللي حياته السياسية في حقبة مبكرة من الزمن، وكان جيوفاني هو ابن

حفيد لورنزو، شقيق كوزيمو دي مديتشي، وبطبيعة الحال، كان ذا قرابة بعيدة للبابا، لكن كان لديه نفس روح كاترينا سفورزا؛ إذ كان من نفس فصيلة المحاربين البواسل والمتوحشين، وكان جيوفاني حينئذ أكثر الجنود المبجلين في أوربا، فقد عمل على مدار العقد الماضي قائدًا لزمرة من صفوة المرتزقة تُدعى «العصبة السوداء» Bande Nere، وقد لقبوا بهذا اللقب لأنهم كانوا يرتدون دروعًا سوداء، إضافة إلى أنهم قاموا بإضافة أشرطة سوداء على رايتهم حزنًا على وفاة البابا ليو العاشر، وقد تحلى جيوفاني بمهارات عسكرية وجسارة أسطورية، وكذلك تمتع باقي أفراد عصبته بنفس القدر من المهارة لقائدهم. ولم يكن في وسع الكاتب بيترو أرتينو Pietro Aretino، المشهور بافترائه وتشويهه لصورة الأشخاص، إلا أن يمدح جيوفاني قائلًا: «هو قائد منذ أن كان في رحم أمه، إذ تحلى بالمقدرة على جعل رجاله يحبونه ويهابونه في ذات الوقت ... وربما حسده الكثيرون، لكن ما من أحد استطاع أن يضاهيه.»

وهنا، وُجد رجل يمكنه أن يجذب انتباه مكيافيلي حقًّا؛ إنه قائد تنطبق عليه بحق الكثير من الخصال المرجوة في القائد المذكورة في صفحات كتاب «الأمير»، وهو الرجل الذي بدأ البعض يشيد به مطلقين عليه اسم جيوفاني دي إيطاليا، وقد استرعى انتباه مكيافيلي للغاية هذا الجندي الرائع الذي كان شعاره «صاعقة البرق» وهو ما يليق به بحق، وقد كتب مكيافيلي عنه إلى جوتشيارديني قائلًا: «يُجمع الكافة على أن جيوفاني ديلا باندي نيري يتسم بالشجاعة وروح المغامرة، ويتمتع بأفكار رائعة، ويتخذ قرارات جريئة.» أما جيوفاني من جانبه فقد كان أقل إعجابًا بمكيافيلي، ويبدو أنه قرأ كتاب «فن الحرب»، ولشكه في الحكمة التي تنطوي عليها آراء مكيافيلي المتنوعة، تحدى جيوفاني مكيافيلي فيما إذا كان يمكنه أن يدرب ثلاثة آلاف عضو

من عصبة «باندي نري» طبقًا للطريقة الموصوفة في الكتاب، وقبل مكيافيللي التحدي دون روية، وهكذا شاهدت أرض العرض العسكري في ماريجنونا ساعتين من الفوضى والهمجية، وفي آخر الأمر تقدم جيوفاني ليريح مكيافيللي من بؤسه ولم شعث قواته دون عناء وبثقة هائلة في النفس. بعدئذ ذكر جيوفاني أن ثمة فرقًا بينه وبين نيقولو مكيافيللي وهو: «أن نيقولو أتقن كتابة الأشياء، أما هو فقد أتقن تنفيذها.» وإن كان مكيافيللي غير قادر على أن يبرز قدرات أكثر القوات العسكرية مهارة وتنظيمًا في أوربا، فيمكن للمرء إذن أن يعلم السبب في فشل فلاحي كازنتينو فشلًا ذريعًا في براتو.

وبدرجة ما أصلح مكيافيللي صورته في الأسابيع التالية حينما أعد العدة لاستسلام كريمونا لقوات العصبة المقدسة، عندئذ رجع مكيافيللي في أوائل شهر نوفمبر/تشرين الثاني إلى فلورنسا، لكن ليس قبل أن يتوقف في مودينا ليستشير العراف، وتنبأ هذا العراف بحدوث فاجعة لكل من البابا والعصبة المقدسة، وأورد مكيافيللي إلى جوتشياريديني أن هذا العراف زعم قائلًا: «لم تنته الأوقات العصيبة بعد؛ فنحن والبابا معًا سوف نعاني معاناة قاسية في خضم هذه الأوقات العصيبة.»

ولم يكن الأمر في حاجة إلى نبوءة من العراف كي ينوه إلى أن ثمة بلية تلوح في الآفاق، فقد بدأت قوات الإمبراطورية في شن هجماتها الشاملة على إيطاليا في نوفمبر/تشرين الثاني، بعد أن تضخم عددهم نتيجة انضمام مجندين ألمان إليهم كان من بينهم العديد من اللوثريين، وكان يقودهم جورج فون فروندسبيرج Georg von Frundsberg، أمير مدينة مينديليم، وهو قائد محنك وكان يرتدي حول عنقه حبلًا من الحرير كان قد أقسم أن يخنق به البابا، وقد أطلق جنود فروندسبيرج على أنفسهم «رجال الأرض» Landsknechts. وقد كانوا يستخدمون الرماح، ومدربين على تكتيكات سلاح المشاة السويسري، وكانوا يرتدون

حلًّا مزركشة (كانت قبعاتهم مزودة بريشة وسراويلهم متعددة الألوان، وصديرياتهم زاهية الألوان وأكمامهم منتفخة ومشقوقة بالطول) مما كان يعطي انطباعًا عن كفاءتهم المرعبة.

وقد سدد رجال الأرض ضربة مميتة في بداية حملتهم، ففي الخامس والعشرين من نوفمبر/تشرين الثاني، اشتبكوا مع العصبة السوداء في مدينة بورجوفورتي التي تقع على مقربة من مدينة مانتوا، وفي الواقع لم يكن لدى رجال الأرض سلاح مدفعية سوى أربع مدافع من طراز الفالكوني Falconet — وهي مدافع صغيرة دوارة يمكنها أن تطلق قذيفة تزن رطلًا واحدًا — كان قد أمدهم بها ألفونسو دا إيست، غير أن العصبة التي لم تكن مسلحة تسليحًا جيدًا والتي تميزت بخفة الحركة والسرعة أنزلت بهم الهزيمة، غير أن إحدى القذائف أصابت جيوفاني وهشمت رجله التي بترت لإنقاذ حياته، ولكن بعد خمسة أيام لقي المحارب المديتشي العظيم نحبه، وكانت وفاته خسارة للعصبة المقدسة لا تدانيها خسارة.

ولعل جنود الجيش الإمبراطوري كانوا بارعين في التخطيط الحربي وشديدي الضرواة، لكن الآلاف منهم الذين عبروا نهر بو Po في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني، قد تشابهوا تشابهًا مرعبًا مع جيش رامون دي كاردونا الذي هدد فلورنسا ونهب براتو في صيف عام ١٥١٢م، فلم يُزودوا بإمدادات كافية ولم يُسلحوا جيدًا ولم يتقاض الكثيرون أجورهم لأشهر عدة، وقد عبروا جبال الألب عبر ممرات وعرة وخطرة فوق بحيرة جاردا، حيث قاسوا (كما يذكر فروندسبيرج) «الفقر والجوع والجليد.» ونتيجة لذلك، كانوا في حالة من الفوضى والهيجان والوحشية، وأصروا على تخريب المدن الإيطالية ليقتصوا من الفساد البابوي، إذ كان اللوثريون يحاربون في صفوفهم. وكان رد البابا على هذا هو أن مثل هذه القوات يسهل هزيمتها بالمال عن السيف، وفي نهاية يناير/كانون

الثاني ١٥٢٧م، وقع البابا معاهدة مع الإمبراطور، متعهدًا بدفع مبلغ مائتي ألف دوكة للجنود المتضورين جوعًا إذا عدلوا عن زحفهم، عائدين أدراجهم عبر جبال الألب، ويبدو أن الموقف كان سيتوقف عند هذا الحد لو لم يتسبب الانتصار الضئيل الذي حققه الجيش البابوي في نفس اليوم في أن يعلن على الفور تنصله من المعاهدة وأعلن معادته لتشارلز، وللمرة الثانية في فترة تتجاوز السنة الواحدة بمدة قصيرة، حنث البابا بوعده مع الإمبراطور. أما جيش الإمبراطور، فبعد أن انضمت إليه كتيبة من المشاة الإسبان تحت قيادة دوق بوربون منذ أيام قلائل، وبات عدده ضخمًا للغاية، إذ وصل إلى اثنين وعشرين ألف جندي؛ فقد بدأ الزحفَ جنوبًا نحو بولونيا، وتلقت العصبة السوداء التي لا تزال بكامل قواها رغم فقدان زعيمها، الأوامر بالتحرك نحو الجنوب للدفاع عن روما.

ومع استعادة عدو جمهورية فلورنسا لتوازنه في حين كان حلفاؤها غير جديرين بالثقة ومترددين، زُجت الجمهورية لمواجهة أشد أزماتها خطرًا على مدار الخمسين عامًا الماضية، وكان مكيافيلي قد أُرْسِل في الأسبوع الأول من فبراير/شباط إلى بارما كي يُخطر فرانشيسكو جوتشيارديني أن وضع فلورنسا سيئ للغاية، وأن المدينة عرضة للاعتداء بسبب عدم توافر المال والجنود، وكان عليه أن يستطلع من جوتشيارديني كم المساعدة العسكرية التي قد تحصل عليها فلورنسا من البابا ومن حلفاء آخرين مثل البنادقة. رأى مكيافيلي أن الأمور ليست بالغة السوء، وما إن وصل إلى بارما في السابع من فبراير/شباط حتى بدأ في كتابة تقارير إلى فلورنسا تجزم أن الإمدادات غير الكافية لجيش فروندسبيرج تبشر بالخير للعصبة المقدسة. كتب مكيافيلي عن قوات الجيش الإمبراطوري قائلًا: «أعتقد أنهم أقل من أن يُخشى جانبهم مادمنا لم نساعدهم نحن باضطرابنا، وأي شخص لديه أدنى خبرة

في الحرب، سيرى أننا سننتصر عليهم حتمًا، ما لم تتسبب النصائح الشريرة أو انعدام المال في هزيمتنا.» وهكذا يتضح أن الدروس المستفادة مما حدث عام ١٥١٢م، لم توثر تأثيرًا عميقًا.

وشق مكيافيللي طريقه عبر الجليد من بارما إلى بولونيا حيث كان يراقب بحذر أنشطة الجيش الإمبراطوري المخيم على بعد مسافة قصيرة، وظل مكيافيللي متفائلًا بشأن فرص فلورنسا في النجاة أو الإفلات من الهجوم عليها، فقد أخبر مكيافيللي مجلس السيادة في مطلع شهر مارس/آذار أن «ما من رجل عاقل» يمكن أن يفترض أن الجنود سيدخلون توسكانيا، بسبب وعورة الطرق وندرة المؤن، وقد عبر مكيافيللي بثقة عن توقعه قائلًا: «لسوف يموتون جوعًا خلال يومين.» وقد كبحت أيضًا العواصف الممطرة والثلجية العنيفة جماح قوات الجيش الإمبراطوري، وهي العوائق التي يدعي مكيافيللي أنها «مرسلة من قبل اللّه».

ولكن سرعان ما ردَّ الإنسان عون اللّه. فقد ألهمت سمعة كليمنت السيئة فيما يتعلق بتردده وحيرته ورياثه، الشاعر فرانشيسكو بيرني Francesco Berni في السخرية من قداسة البابا منذ سنتين حين وصف طريقته في الحكم قائلًا:

مع ذلك وثم ولكن وإذا وربما
كلماته كثيرة لكنها جوفاء

ويمكن للمرء أن يستنتج أن كليمنت عدل عن رأيه مرة أخرى، ففي منتصف مارس/آذار، وبينما أجبرت إحدى العواصف جنود العدو على البقاء في أرض مستنقعة على بعد عشرة أميال من بولونيا، عقد البابا هدنة أخرى، لكنه ضن في عرضه هذه المرة، إذ عرض دفع ستين ألف دوكة فقط، مما أثار السخط والتمرد داخل المعسكر الإمبراطوري.

وقد عانى فروندسبيرج كثيرًا وهو يحاول دون طائل أن يضبط جنوده المهتاجين، وهنا بدا مدى تضاؤل فرص إشباع بطونهم والتنفيث عن كرههم الوحشي للبابا. من ناحية أخرى، توسل مكيافيللي إلى مجلس السيادة أن يدفعوا المال على الفور ليتحاشوا «الشر والخطر الحاليين»، لكن في غضون أيام، أضحى جليًّا للعيان كافةً باستثناء البابا — الذي قام بمنتهى الحماقة بطرد العصبة السوداء من روما — أن الهدنة أصبحت أثرًا بعد عين، وقد حُمل فروندسبيرج ذو الصحة المعتلة على الدوام إلى ضيعته في ألمانيا ليموت هناك، بينما أحدث جيشه الرث الملبس والموشك على التضور جوعًا ضجة وجلبة عند التحرك تحت قيادة دوق بوربون. في واقع الأمر، أخلت القوات المعسكر بطريقة جنونية وهمت بالتحرك تجاه فلورنسا في الحادي والثلاثين من مارس/آذار، وأخطر مكيافيللي مجلس السيادة قائلًا: «هم يعتبرون فلورنسا فريستهم.»

وكان مكيافيللي قد أمضى الكثير من الوقت في لومبارديا في الصيف الماضي في قلق بشأن باربرا فيورنتينا، فكتب لجاكوبو فالكونتي يسأل عن أخبارها وحث أصدقاءه ذوي اليد الطولى مثل فرانشيسكو جوتشيارديني على الاعتناء بأمورها إذ إنها كما ذكر: «منحتني الكثير من الاهتمام الذي يفوق ما منحه لي الإمبراطور.» ومع ذلك فقد اتجهت أفكار مكيافيللي في ربيع عام ١٥٢٧م نحو عائلته — نحو زوجته وابنتيه وأولاده الخمس الذين كان أصغرهم رضيعًا في رعاية إحدى المرضعات، يُدعى توتو — إذ قد يكون انتابه إحساس بدنو النهاية.

وبطبيعة الحال، انتابت مكيافيللي المخاوف عما عسى أن يحل بعائلته إذا ما غزا الجنود توسكانيا، وكانت المزرعة أيضًا — التي تقع في سانت أندريا إن بركوازينا على الطريق الرئيسي بين فلورنسا وروما — في عرضة لخطر داهم، ومن ثم انتقلت العائلة إلى فلورنسا وشرعت في الإعداد لنقل ممتلكاتها، بما فيها ثلاثة وعشرون برميلًا من

الخمر وزيت الزيتون، إلى مكان أكثر أمانًا في مدينة سان كاسكيانو الحصينة. وكان من المفترض أيضًا أن تؤخذ الأفرشة من المزرعة حتى لا ينعم أيٌّ من الغزاة بليلة هانئة، وجزم مكيافيللي مرة أخرى لماريتا أنه إذا هاجم جنود الإمبراطور فلورنسا، فلسوف يعود على الفور ليكون مع عائلته وكتب قائلًا: «ليعتني المسيح بكم جميعًا.»

ويبدو أن مكيافيللي تعلق بابنه المراهق جايدو عن كل أبنائه، ففي الثاني من أبريل/نيسان كتب إلى الفتى خطابًا مطولًا يحثه فيه على أن يُحسن في دراسته فقال: «ابذل كل ما في وسعك كي تتعلم الأدب والموسيقى،» ثم وعده بأن يجعل منه: «رجلًا ذا مكانة رفيعة إذا كان على استعداد لأن يفعل ما يجب عليه فعله.» ثم قدّم له أيضًا نصيحة فعالة عن تربية الحيوانات؛ إذ إن أحد حيوانات مكيافيللي، بغل صغير في المزرعة قد أُصيب بالجنون، فنصحه مكيافيللي أن يأخذ الحيوان إلى الريف وأن ينزع لجامه وحبله ومن ثم يتسنى للحيوان المسكين «أن يستعيد طريقته في العيش مرة أخرى وأن يرجع عن جنونه، فالقرية كبيرة والحيوان صغير.» ورد جايدو على الفور في خطاب إلى والده يخبره فيه أنه سيطلق البغل في المروج ما إن ينمو العشب، ثم أخبر والده أيضًا بفخر أنه كان يتعلم تصريف الأفعال في اللغة اللاتينية وحفظ الكتاب الأول من كتاب أوفيد Ovid «مسخ الكائنات» الذي رجا أن يقرأه على والده حالما يعود. وكثيرًا ما ساور الزوج والأب المتغيب على حين غرة القلق من ألا يرى عائلته مرة أخرى، وذكر مكيافيللي في خطاب لجايدو من إيمولا قال فيه: «لم يغمرني قط شوق وحنين قوي للعودة إلى فلورنسا مثل ذلك الذي يغمرني الآن.» ولم يكن لدى مكيافيللي الكثير من الوقت لينتظر، إذ إنه عاد في آخر الأمر في الثاني والعشرين من أبريل/نيسان بعد غياب دام أكثر من شهرين.

وزال الخطر الآتي من قوات بوربون في غضون أيام من عودة مكيافيللي، ونجت فلورنسا بمعجزة، إذ تجاوز جيش الإمبراطور المدينة إذ تراءى له أنه يصعب اختراق حصون المدينة بدون مدفعية، وثمة غنيمة أعظم وأيسر تنتظر بوربون وجنوده الاثنين والعشرين ألفًا المفترسين، فقد أخذوا في التقدم السريع نحو الجنوب قاطعين عشرين ميلًا في اليوم الواحد إلى أن وصلوا أسوار روما في الرابع من مايو/أيار، وطلب بوربون مبلغ ثلاثمائة ألف دوكة من البابا نظير التراجع، لكن طلبه قوبل بالرفض، وبدأ الهجوم على روما في فجر الإثنين الموافق السادس من مايو/أيار، وقُتل بوربون خارج أسوار المدينة من رصاصة بندقية (أطلقها صائغ يُدعى فيناتو سيليني Benvenuto Cellini طبقًا لما جاء في القصص) غير أن قواته تدفقت إلى المدينة، دون أن تواجههم أية عوائق في الواقع، وولى البابا الأدبار ومعه عدة آلاف أخرى من الرومان إلى قلعة سانت أنجليو، أما هؤلاء الذين ظلوا في المدينة فقد نهبهم الجنود وطلبوا منهم فدية واغتصبوهم، وشق الجنود طريقهم إلى القصور والأديرة سعيًا وراء الغنيمة والنساء. ولعل الكلمات التي تفوه بها لوثر كانت ترن في آذان بعض من «رجال الأرض»، فقد ندد بما أطلق عليه: «مجتمع سدوم الرومانية» وحث أتباعه قائلًا: «هاجموها بكل ما تطوله أيديكم من أسلحة ولنغسل أيدينا بدمائها.»[1] ومع ذلك، فقد تصرف الجنود الكاثوليك من بين الغزاة بنفس القدر من الوحشية مثل الألمان، واقتحم الإسبان مقبرة يوليوس الثاني ونهبوها، ونهبت القوات الايطالية — الذين استأجرهم بومبيو كولونا، عدو البابا — وقتلت حسبما شاءت، ونجم عن ذلك موت عشرة آلاف شخص في الأيام التالية، وفُقد الكثير من الكنوز، المقدس منها وغير المقدس، إلى الأبد، بما فيها صليب قسطنطين الذهبي والتاج المرصع بالجواهر الخاص بنيكولاس الخامس.

وأصاب مكيافيللي الهلع والذعر حتمًا على الخراب الذي حل بروما، فقد وصلت أخبار السلب والنهب المروع إلى فلورنسا في الحادي عشر من مايو/أيار، وحتى كلمات مكيافيللي في وصفه لإيطاليا الشقية التي كتبها في «الأمير» — «التي هي بلا قائد، وبلا قانون، وخربة، ومنهوبة، وممزقة، ومُجتاحة» — تعجز عن وصف ما حدث آنذاك. والآن، وبعد أن بات يُنظر إلى مكيافيللي على أنه خادم وفي للمديتشية، بُعث على الفور إلى مدينة تشفيتافيكيا Civitavecchia التي تبعد خمسة وثلاثين ميلًا شمال غرب روما، حيث كان من المفترض أن يساعد أندريا دوريا Andrea Doria — أميرال الأسطول البابوي — في الإعداد لرحيل البابا، وربما استطاع كليمنت أن ينجو، لكن حكمه في فلورنسا قد آل إلى زوال. وفي غضون أسبوع من طرده، وتحديدًا في السادس عشر من مايو/أيار، سقطت حكومة المديتشيين — وهو ما كان يترقبه سيلفيو باسيريني Silvio Passerini، كردينال كورتونا، منذ ارتقاء كليمنت كرسي البابوية. وعلى الفور أُنشئت حكومة جمهورية تقوم على نظام الحكومة الشعبية، واستعيد المجلس العظيم للشعب ومجلس العشر للحرية والسلام. وبعد أن عاد مكيافيللي إلى فلورنسا بأيام قلائل، سُمعت تنهدات مكيافيللي المليئة بالأسف والحسرة «مرات عدة» لدى علمه بحصول المدينة على حريتها، ولم يكن أسفه على استرداد المدينة لحريتها المفقودة وعودة ذلك النوع من الحكومة الشعبية التي طالما نادى بها وصدق عليها في أعماله مثل «المطارحات»، لكنه تأسف بالأحرى على فرص نجاحه هو، التي لا أمل فيها في ظل حكومة جديدة، فبعد أن تلهف عدة سنوات لأن يعمل في خدمة المديتشيين، يجد نفسه على حين غرة يتحسر على هذه التبعية صعبة المنال، وها هي فورتونا تسدد له ضربة قاسية أخرى.

وفي هذه المرة أيضًا ثبت أن مخاوف مكيافيللي بصدد توقعات نجاحه لها أساس من الصحة، فقد رجا أن يعود إلى منصبه في المستشارية، لكن

على الرغم من تدخل صديقيه القدامى زانوبي بونديلمونتي ولويدجي ألمانيي اللذين عادا من المنفى، فإن شخصًا آخر تقلد المنصب، ولم يجد مكيافيللي مكانًا له في قاعات السلطة كما كان الحال عام ١٥١٢م. وقد زعزعت خيبة الأمل الأخيرة هذه، التي جاءت في إثر صدمة الهجوم الوحشي على روما، رباطة جأشه المعتادة. وفي منتصف يونيو/حزيران، أُصيب بمرض في معدته وصداع في رأسه، وعالج علته باستخدام أقراص علاجية — خليط من الألوه فيرا (من أنواع الصبار) والزعفران والمر — التي كانت تساعده في أزماته الصحية السابقة، ولعل هذا الدواء أضر به أكثر مما أفاده، إذ تدهورت حالته سريعًا، وهرع الأصدقاء مثل زانوبي ولويدجي وكذلك فيليبو ليكونوا بجانبه.

وعلى الرغم من مرض «مكيا» الشديد، فإنه تمكن إلى حد ما من إضحاك أصحابه عندما أخبرهم قصة أخيرة، فقد أخبرهم عن رؤيته حلمًا إذ كان هناك عرض لأناس هزلى من الرعاع الحقراء، وعندما سأل مكيافيللي من عسى أن يكون هؤلاء، أجابوه إنهم قديسون في طريقهم إلى الجنة، ثم جاء في أعقابهم فريق من رجال يناقض مظهرهم مظهر أولئك الذين كانوا في المشهد الأول على نحو أخاذ؛ فقد كانوا يتسربلون بحلل بهية كما لو كانوا في بلاط ملكي وكانوا يناقشون بوقار شئون الدولة، وقد لمح مكيافيللي وسط صفوفهم فلاسفة وكتاب العصور القديمة مثل أفلاطون وبلوتارك وتاسيتوس، وعندما سأل مكيافيللي إلى أين هم ذاهبون، أُجيب إنهم في طريقهم إلى الجحيم. وهم بالطبع من كان يفضل مكيافيللي معيتهم، كما أخبر أصحابه ساخرًا، وكما يعلن كاليماكو بقوة في «الماندراجولا»: «كم من رجل بارز ذهب إلى الجحيم! لماذا تشعرون بالخزي من الذهاب إلى هناك أيضًا؟»

ومع ذلك فقد أخذ مكيافيللي حقًّا — طريح فراش الموت المتظاهر بالشجاعة — الاحتياطات المعتادة للاعتناء بروحه؛ فقد تلقى كاهن

يُدعى الأخ ماتيو اعترافاته وأجرى الطقوس الأخيرة، وكما ورد عن ابنه بيرو الذي كان يبلغ آنذاك الثالثة عشرة من عمره، مكث الأخ ماتيو معه حتى النهاية، وقد جاءت هذه النهاية سريعًا، ففي مستهل فصل الصيف في الحادي والعشرين من يونيو/حزيران قضى مكيافيللي نحبه ودخل — كما هو مرجو — بلاط القدماء الموقر.

الخاتمة

يعد كتاب «فن الحرب» هو العمل الوحيد الذي نُشر لمكيافيللي أثناء حياته. ومع أن كتاب «الأمير» جرى تداوله في صورة مخطوطة، فإن طباعته لم تتم إلا بعد وفاته بما ينيف على أربع سنوات. وفي صيف عام ١٥٣١م، منح البابا كليمنت السابع تصريحًا لأنطونيو بلادو Antonio Blado — أعظم من كانوا يشتغلون بطباعة الكتب في روما في غضون القرن السادس عشر — بنشر العمل إلى جانب كتاب «المطارحات» وكتاب «تاريخ فلورنسا». وظهرت نسخة بلادو في أوائل يناير/كانون الثاني عام ١٥٣٢م، وفي تلك الأثناء منح كليمنت الموافقة لجينوتي Ginuti، وهي شركة طباعة فلورنسية، لنشر الطبعة الخاصة بها، عندئذ خرجت إلى النور الطبعة الفلورنسية في مايو/أيار عام ١٥٣٢م. وهكذا أتيحت هذه الأعمال لقطاع عريض من الجماهير بعد أن كان الحصول عليها من قبل مقصورًا على فئة قليلة منتقاة.

وقد أكسب كتاب «الأمير» مكيافيللي سمعة مشينة في حياته. قال أحد المعلقين في الوقت الذي مات فيه مكيافيللي تقريبًا: «لقد كرهه الكافة بسبب كتاب الأمير.» واستطرد قائلًا: «لقد نظر إليه الأناس الصالحون على أنه خاطئ، والأشرار على أنه أكثر منهم شرًّا أو أكثر منهم مقدرة على فعل الشر، من ثم كرهه الجميع.»[1] وهو ما يعد مما

لا شك فيه مغالاة، إذ ذاع صيت مكيافيللي ذيوعًا واسعًا باعتباره كاتب مسرحيات شهير وأحد موظفي الدولة المثيرين للجدل، أكثر مما عُرف عنه بوصفه مؤلف بحث عن فن إدارة الدولة. غير أن هذه الكراهية خمدت في العقود التالية. ثم بعد مرور خمسة وعشرين عامًا على نشر الكتاب، أدرج البابا بول الرابع كتاب «الأمير» ضمن قائمة الكتب المحرمة كنسيًّا، وبنهاية القرن أضحى مكيافيللي في بعض الأماكن تجسيدًا شبه أسطوري للشر، ويترادف اسمه مع كلمات مثل «الرياء» و«الإلحاد». واستخدم مؤلفو العصر الإليزابيثي أمثال كريستوفر مارلو، ووليم شكسبير اسمه لتجسيد شخصية رجل في غاية الحقارة لتقديمها على المسرح. وتبدأ مسرحية «يهودي مالطا» لمارلو، التي قُدمت على المسرح لأول مرة عام ١٥٩١م، بافتتاحية ترويها شخصية تُدعى «ماكيفيل»، والتي يفسر من خلالها أنه يقدم مأساة رجل يهودي يُدعى «باراباس» أصبح ثريًّا من خلال اتباع تعاليم مكيافيللي. ويعقب ذلك عرض لأعمال الجشع والطموح والخيانة والاغتيال الجماعي التي يقوم بها باراباس المضطرب العقل، وينتهي به الحال في غلاية مليئة بالزيت المغلي.

ولما كان كتاب «الأمير» لم يترجم إلى اللغة الإنجليزية إلا في عام ١٦٤٠م، فيبدو أن مارلو وشكسبير استقوا الكثير من صورهم الشيطانية عن مكيافيللي من كتاب «ردًا على مكيافيللي» Contre-Machiavel لأحد البروتستانتيين الفرنسيين يُدعى إينوسون جنتييه Innocent Gentillet الذي ترجمه سيمون باتريك Simon Patericke. وقد نوه جنتييه إلى أنه لما كانت ملكة فرنسا، كاترين دي مديتشي، هي ابنة الرجل الذي أُهدي إليه كتاب «الأمير»، لذا فهو يندد بمعتقدات مكيافيللي بسبب المذبحة التي جرت أحداثها في يوم عيد القديس بارتلوميو في أغسطس/آب عام ١٥٧٢م، عندما ذبح حشد من الكاثوليك الآلاف من البروتستانت الفرنسيين. ولم تكن «مذبحة عيد القديس بارتولميو» هي أولى الأعمال

الوحشية الشنيعة أو آخرها التي ألقي فيها باللوم على مكيافيللي، ففي أوائل عام ١٥٣٩م، شجب كردينال إنجليزي يُدعى ريجينالد بولي Reginald Pole مكيافيللي بوصفه «عدو الجنس البشري»، محاولًا أن يبرهن على أن قيام الملك هنري الثامن بتدمير الأديرة جاء محصلة لدراسته كتاب مكيافيللي في الخفاء. وزُعِم فيما بعد أيضًا أن إحدى الترجمات التركية لكتاب «الأمير» هي التي جعلت السلاطين العثمانيين يتجهون إلى شنق إخوانهم أكثر من أي وقت مضى.

وسواء أكانت كاترين دي مديتشي وهنري الثامن والسلاطين العثمانيون قد استمدوا إلهامهم من «الأمير» أم لا، فإن مكيافيللي عانى أكثر من أي كاتب آخر من مسألة الجرم بالتبعية. ولعل لورنزو دي بيرو دي مديتشي رفض الكتاب بازدراء عام ١٥١٦م، غير أنه لم يهمل دروس هذا الكتاب منذ ذلك الحين إلا عدد قليل من الديكتاتوريين والطغاة. فقد اقتنى أوليفر كرومويل Oliver Cromwell مخطوطة من الكتاب، واصطحب نابليون بونابرت في معركة ووترلو نسخة من الكتاب تدل آثارها على تصفحها مرارًا وتكرارًا، واعترف أدولف هيتلر باحتفاظه بنسخة كان يضعها إلى جانب فراشه. ولم يكن من المستغرب بشدة أن ينكر هنري كيسنجر Henry Kissinger باضطراب — في حوار أجرته معه صحيفة ذا نيو ريببلك The New Republic عام ١٩٧٢م — تأثير معتقدات مكيافيللي عليه. غير أن ثمة آخرين كانوا أقل تكتمًا إزاء هذا الأمر، فقد جاهر كل من كارلو جامبينو Carlo Gambino وجون جوتي John Gotti زعيما المافيا بأنهما تلاميذ مكيافيللي، كما كان مستشار الحزب الجمهوري الراحل لي أتوتر Lee Atwater — الذي اشتهر بحملاته القذرة المليئة بالخدع في ثمانينيات القرن العشرين — يتباهى بأنه قرأ كتاب «الأمير» ثلاثًا وعشرين مرة. وعندما رغب مطرب الراب الأمريكي الراحل الفنان توباك شاكور Tupac Shakur في الحصول

على كنية جديدة مرعبة، أطلق على نفسه اسم «مكافيلي» Makaveli، تكريمًا للرجل الذي درس توباك أعماله أثناء الأحد عشر شهرًا التي كان ينفذ خلالها حكمًا بالسجن عام ١٩٩٥م.

وبالطبع بات اسم مكيافيللي في مخيلة العامة مرادفًا للخيانة والكذب والافتراء. ويعرف قاموس أوكسفورد للغة الإنجليزية «المكيافيللي» على أنه «الشخص المتآمر وحابك الدسائس المجرد من الأخلاقيات.» وحتى علماء النفس باتوا يستخدمون المصطلح لوصف الشخصية التي تتصف بالغرور وعدم الأمانة والاستخفاف بالدنيا والتلاعب.[٢] غير أنه، لا يتفق الجميع على أن مثل هذه الصفات الدنيئة توسم أفكار مكيافيللي بحق. فمنذ زمن طويل وبالتحديد في أربعينيات القرن السابع عشر، ألف كاتب فرنسي يُدعى لويس ماكون Louis Machon كتابًا بعنوان «دفاع عن مكيافيللي» Apologie pour Machiavelle يصرح فيه أن مؤلف كتاب «الأمير» هو شخص مسيحي فاضل بحق، أُسيء فهمه. وصدر عام ١٩٥٤م كتاب للكاتب والصحفي جيوسيب بريزوليني Giuseppe Prezzolini بعنوان ساخر «مكيافيللي المعادي للمسيح» Machiavelli anti-cristo يناقش أن الضررين الديني والسياسي الممزوجين بالجهالة الشديدة قد تواطأا معًا ليجعلا منه أكثر مفكر يُساء فهمه بطريقة شائنة وفاضحة عبر التاريخ، وبعد مرور خمسين عامًا أيضًا لا يزال مكيافيللي «الرجل الذي أُسيء فهمه» كما ورد بعنوان فرعي في كتاب لمايكل وايت Michael White.

وفي واقع الأمر، لطالما تمتع مكيافيللي بسمعة بارزة هي أبعد ما يكون عن الصورة السطحية لشخصية الوغد الذي يُقدم على المسرح والذي يعيبه عدم الأمانة والتلاعب بالآخرين. ففي عام ١٥٨٥م، أي في الفترة التي سبقت مباشرة ذروة تألق مارلو وشكسبير، امتدح عالم القانون ألبريتشو جينتلي Alberico Gentili الإيطالي الجنسية، الذي

أصبح فيما بعد الأستاذ الجامعي الذي يشغل أحد الكراسي الملكية في القانون المدني في جامعة أوكسفورد؛ امتدح مكيافيللي بوصفه الرجل الذي تسمُه الحصافة والحكمة والذي دافع عن الديموقراطية ومقت الطغيان. أما بالنسبة لدنيس ديدروت Denis Diderot وجان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (فقد اعتقد كلاهما أن كتاب الأمير أُعد بغرض الهجاء)[٣]، فقد كان مكيافيللي مناصرًا للحرية والنظام الجمهوري، بينما أطلق عليه بنديتو كروتشي Benedetto Croce وليو شتراوس Leo Strauss، «مؤسس علم السياسة الجديد». ومُدح مكيافيللي في غضون فترة توحيد إيطاليا بوصفه شخصًا وطنيًّا ومناصرًا لفكرة التوحيد، وهي وجهة النظر التي يتبناها حديثًا (بالإضافة إلى بعض التعقيدات الأخرى) المؤرخون وعلماء السياسة مثل جاريت ماتينجلي Garrett Mattingly، وإريك فوجلين Eric Vögelin، وموريزيو فيرولي Maurizio Viroli. وقد أطرى علماء سياسة آخرون على مكيافيللي باعتباره أحد رواد الفكر الغربي الحديث الذي لم يخلف وراءه العنف والخيانة، وإنما نظريات الحكم الجمهوري الكلاسيكي، والحرية السياسية، والفضيلة الوطنية التي أثرت على الكثيرين ومن بينهم أولئك الذين أعدوا الدستور الأمريكي.[٤]

وبلا ريب يعد مكيافيللي مفكرًا بالغ التعقيد، كتاباته تخيب وجهة نظر العامة فيه باعتباره رسولًا لمذهب بسيط، ينادي بالغزو من خلال اتباع الخدع الشريرة. لكن تعقيداته أفضت إلى عدد ضخم من التفاسير. وسُرد في مقال لإزيا برلين في مجلة New York Review of Books عام ١٩٧١م، عشرون تفسيرًا لكتاب «الأمير» مختلفة تمام الاختلاف، بداية من وصف بيرتراند راسل له على أنه «دليل لقطاع الطرق وأعضاء العصابات» ووصولًا إلى إشادة المؤلفين الشيوعين بقدرة العمل على فهم حقائق السلطة مما حدا به إلى أن يكون رائدًا لماركس

ولينين. ويتسائل برلين: «كيف تسبب الكتّاب الآخرون في أن يجعلوا قراء مكيافيلي يختلفون بشأن مقاصده هذا الاختلاف؟ وقد أُضيف المزيد من التفسيرات منذ عام ١٩٧١م، كان من ضمنها تفسير إحدى السيدات اللافت للنظر، إذ ترى العمل على أنه «دراما عائلية» تنخر بطريقة متلهفة في المساعي الذكورية المتمثلة في القانون والسياسة في مقابل القوة الأنثوية المعتمة والمتقلبة للإلهة فورتونا.[٥]

ومن ثم، لم يُلعن مكيافيلي أو يُساء فهمه ظلمًا من الجميع — على الأقل من قبل أكثر القراء حنكة وفطنة — بوصفه الواعظ الذي يقدم رسالة شريرة مباشرة. بل على النقيض تمامًا نجد أن العديد من الشخصيات التي تتبع وجهات نظر سياسية متنوعة تبنت أفكاره، بل كانوا متحمسين لرفع ألويته على قضاياهم، فمفكرو عصر التنوير أمثال ديدروت Diderot وروسو Rousseau وجدوا في مكيافيلي متحدثًا رسميًّا باسم الحرية السياسية، وكذلك وطنيو القرن التاسع عشر في إيطاليا اعتبروه أحد الموالين مشبوبي العاطفة إزاء توحيد إيطاليا، والشيوعيون أشادوا به باعتباره حامي حمى الماركسية اللينينية. وقد وجدت امرأة جامعية معاصرة في القرن العشرين في كتاباته قلقًا بشأن التهديد الأنثوي لسلطة الرجل — وترجح هذه التفسيرات وغيرها أن فكر مكيافيلي طيع بدرجة مذهلة لأي عدد من المناهج والأيديولجيات المتعارضة. وهذا التنوع الشديد والتعقيد الذي يشوب هذه الافتراضات يشهد بالتنوع والتعقيد الذي تزخر به كتاباته.

تزخر كتابات مكيافيلي بالتناقضات حتى إن أكثر علماء السياسة دهاءً لا يزالون يبذلون قصارى جهدهم لإحداث التناغم فيما بينها. أحقًّا كان مكيافيلي واضع نظريات الاستبداد ذي القبضة الحديدية؟ أم كان شخصًا وطنيًّا مؤيدًا للحكم الجمهوري يمجد الحرية والحكومة الشعبية؟ وبلا ريب تتناقض الكثير من العبارات في كتاب «الأمير» مع

تلك الموجودة في كتاب «المطارحات»، علاوة على أن هذه الأعمال نفسها تعج بتناقضاتها الداخلية.

ولعل مفتاح فهم بعض من أوجه هذا الغموض يكمن في طبيعة الرجل نفسه؛ فالمسئوليات الكثيرة التي كانت تقع على عاتق مكيافيلي — لكونه دبلوماسيًّا وكاتب مسرحيات وشاعرًا ومؤرخًا ومنظِّرًا سياسيًّا ومزارعًا ومهندسًا عسكريًّا وقائدًا لميليشيا عسكرية — جعلت منه بحق نموذجًا رائعًا لعصر النهضة، شأنه في ذلك شأن صديقه ليوناردو. وعلى غرار ليوناردو الذي استهجن «الجنون الوحشي» للحرب في نفس الوقت الذي كان يبتكر فيه أسلحة بارعة ومميتة، كان مكيافيلي غارقا في التناقضات والتضاربات، فإذ بمكيافيلي المفكر المعاصر البارع بدرجة مذهلة، الذي يمهد الطريق أمام علم السياسة، يؤمن بسهولة بالمنجمين والعرافين. وهو المحب للحرية، الذي يؤمن بأن حرية التصرف تبترها بعنف حتمية القانون. ونجده يؤلف أطروحات تسدي النصائح للقادة عن مهارات الحكم في الوقت الذي يتوقع فيه أن يتصرفوا دائمًا وحتمًا وفقًا لطبائعهم التي لا يمكن التحكم فيها. وكان المدافع عن النظام الجمهوري، الذي ودَّ أن يقدم خدماته للعائلة التي جردت الجمهورية الفلورنسية من حرياتها وقمعتها. وكان يروق له النفاق (حتى إنه ألف قصيدة في مدح الخداع) ومع ذلك لم يكن بمقدوره هو نفسه بفطرته أن يتملق أو يخدع.

ولعل أجلى صور تناقضات مكيافيلي تبرز في فهمه لكيفية وضع اليد على السلطة السياسية وصونها أكثر من أي شخص آخر في القرن السادس عشر، ورغم حرمانه هو نفسه من السلطة في عام ١٥١٢م، فإنه قضى العديد من السنوات الطوال في البرية السياسية الموحشة، بانيًا قصورًا خرقاء تطاول السحاب ومجريًا محاولات غير مثمرة لاستعادة منصبه. وهو الرجل الذي بث فكرة أن الإلهة فورتونا يمكن ضربها

حتى تذعن، وفي الوقت نفسه قدم صورة مفجعة عما أطلق عليه ذات مرة «خبث الإلهة الهائل وعفوها.»

وهكذا كانت المعركة ضد الإلهة فورتونا ثائرة لا تخمد في كل من حياته وكتاباته، فنجد سلندرو في مسرحية «سلزيا» ينوح قائلًا: «ويحي، ما أتعس حظي.» ويستطرد قائلًا: «لقد ولدت للشقاء والعناء فلن أحصل على ما أريده قط.» ويبدو أن هذه الكلمات الصغيرة نُقشت على ضريح مكيافيللي. فنجد أن مقبرته تبرز تدوينًا مختلفًا عن المألوف، فقد دُفن مكيافيللي إلى جانب والده في كنيسة سانتا كروتشي في فلورنسا في الثاني والعشرين من يونيو/حزيران عام ١٥٢٧م، وبعد مضي أكثر من قرنين وبالتحديد في عام ١٧٨٧م، بنى له إينوسنزو سبينازي مقبرة فخمة جديدة في الجناح الجنوبي من الكنيسة. وعلى بعد خطوات من مقابر مايكل أنجلو، وجاليليو، وليوناردو بروني، يظهر نصب تذكاري من الرخام يصور شخصية رمزية لدبلوماسي، ويعلو النصب النقش التالي: «ما من رثاء يمكنه أن يوفي هذا الرجل حق قدره.» ولم تعامل الإلهة فورتونا مكيافيللي بطريقة سيئة للغاية رغم كل ذلك، على الأقل في ذريته.

شكر وتقدير

أقدم شكري للأستاذ الجامعي ويليم أر. كوك، ود/مارك أسكويس، ولاري جولدستون، ونانسي جولدستون، ووكيل أعمالي لاري كريستوفر سينكلير ستيفنسون، الذين أسدوا لي جميعًا النصائح وقدموا تعليقات على مسودات هذا النص. وقد تفضل لورو مارتينز بالإجابة على العديد من تساؤلاتي، وكذلك أسدى جاري إن. كورتس إليّ النصائح بشأن الأجزاء غير الصحيحة منطقيًّا. وأقدم خالص امتناني أيضًا إلى جيمس أطلس، وجيسيكا فيجيلد، وجانيت مين لي، على جهودهم الكثيرة والمتنوعة التي بذلوها نيابة عني. وعلى رأس الجميع، يتعين عليّ أن أعرب عن خالص شكري لزوجتي ميلاني التي دحضت بلباقة رأي مكيافيللي بشأن نير الزواج.

الحواشي

الفصل الأول

١- فرانشيسكو جوتشيارديني في كتابه «تاريخ إيطاليا» The History of Italy، ترجمة سيدني ألكسندر (نيويورك: ماكميلانو، ١٩٦٩م) ص ١٢٧. حول «برقات الأخ جيرولامو» انظر كتاب لوكا لاندويتشي Luca Landucci «مذكرات فلورنسي من عام ١٤٥٠ حتى عام ١٥١٦م» A Florentine Diary from 1450 to 1516 ترجمة إيدوكو ديل باديا. أليس دي روزن جيرفيس Alice de Rosen Jervis (لندن: جي أم دنت أند سنز، ١٩٧٢م) ص ١٤٤–١٤٥.

٢- جيمس بي أتكنسون James B. Atkinson وديفيد سيسس David Sices في كتابهما «مكيافيلي وأصدقاؤه: مراسلاتهم الشخصية» Machiavelli and His Friends: Their Personal Correspondence (ديكالب، إلينوي: مطبعة جامعة شمالي إلينوي، ١٩٩٦م)، ص ٢٢٢. كافة الاقتباسات الأخرى من خطابات مكيافيلي الشخصية من هذه النسخة.

٣- كاثرين أتكينسون Catherine Atkinson في كتابها «ديون، ومهور، وحمير: مذكرات والد نيقولو مكيافيلي، مستر برناردو، في فلورنسا في

القرن الخامس عشر» Debts, Dowries, Donkeys: The Diary of Niccolò Machiavelli's Father, Messer Bernardo, in Quattrocento Florence (فرانكفورت: بيتر لانج، ٢٠٠٢م)، ص ١٥٤.

٤- بالنسبة لمخطوطة لوكريتاس، انظر كتاب سيرجيو بيرتيللي Sergio Bertelli بعنوان Noterelle Machiavelliane: Un Codice di Lucrezio e Terenzio, Rivista Storica Italiana 73 مجلة ريفستا ستوريكا إيطاليانا عدد ٧٣ (١٩٦١م)، ص ٥٤٤–٥٥٣.

٥- لا يوجد دليل ملموس يوضح صراحة مناهضة مكيافيللي لسافونارولا، رغم أن هذا كان معروفًا للكافة، كما كان يصرح أصدقاؤه. بشأن هذه الأمور اطلع على كتاب نيقولاي روبينستن Nicolai Rubinstein «بدايات حياة نيقولو مكيافيللي المهنية في المستشارية الفلورنسية» The Beginnings of Niccolò Machiavelli's Career in the Florentine Chancellery، مجلة إيطاليان ستاديز Italian Studies العدد ١١ (١٩٥٦م)، ص ٧٢–٩١، وأيضًا كتاب نيقولاي روبينستن «مكيافيللي وعالم السياسة الفلورنسية» Machiavelli and the World of Florentine Politics، ضمن سلسلة دراسات حول مكيافيللي. مايرون بي جيلمور Myron P. Gilmore (سان سوني: فلورنسا، ١٩٧٢م) ص ٦.

٦- نيقولاي روبينستين في «القصر القديم، الفترة من ١٢٩٨–١٥٣٢م: الحكومة، الفن العمارة واللغة المجازية في بلاط في الجمهورية الفلورنسية The Palazzo Vecchio, 1298-1532: Government, Architecture and Imagery in the Civic Palace of the Florentine Republic (أوكسفورد: مطابع كلارندون، ١٩٩٥م)، ص ٥٠. وقد مضى زمان مديد على تخريب هذه اللوحة الجصية التي لعجلة الحظ.

الفصل الثالث

١- دحضت كاثرين أتكنسون حديثًا الدلائل المؤيدة لصحة هذه القصة المثيرة، التي حاولت أن تثبت أن الحدث جرى بالفعل لكن مؤخرًا في عام ١٥٨٤م، وذكرت برناردو مكيافيللي آخر، أي ابن نيقولو، إذ اختلط الأمر على كتاب السيرة بين ابن نيقولو ووالده: انظر «ديون، ومُهر، وحمير» ص ١٣٥–١٣٦.

٢- كتاب بعثات ومفوضون Legazioni e commissarie، المجلد الثالث سيرجيو بيرتللي Sergio Bertelli (ميلانو: فيلترينيلل، ١٩٦٤م)، المجلد الأول، ص ٧٠. كافة الاقتباسات الأخرى من مراسلات مكيافيللي الدبلوماسية ستكون من هذه الطبعة.

٣- مقتبس من كتاب فيلكس جيلبرت Felix Gilbert «مكيافيللي وجوتشياrديني: السياسة والتاريخ في فلورنسا القرن السادس عشر» Machiavelli and Guicciardini: Politics and History in Sixteenth-Century Florence (برينستون: مطابع جامعة برينستون، ١٩٦٥م)، ص ٣٣. وينبغي ملاحظة أن هذا النظام السياسي خدم في نهاية الأمر فلورنسا لما يزيد عن قرنين من الزمان، مما يدل على أنه وفر نوعًا من أنواع الحكومات المستقرة إلى حد ما. وكان أعضاء من مجالس أخرى، تمتد مدة تقلدهم المناصب إلى فترات أطول، يساعدون مجلس السيادة، فبسبب الانتخابات المتتالية تداخلوا معهم في فترات توليهم المناصب. قدم ليوناردو بروني في كتابه «في مدح مدينة فلورنسا» الذي ألفه نحو عام ١٤٠٣م، مديحًا رفيع المقام «لاجتهاد» هذا النوع من الحكومات و«كفاءته».

الفصل الرابع

١- الجحيم، الأنشودة السابعة والعشرون Inferno, xxvii، الأبيات من ٣٧–٣٨. استخدم هنا وفي أماكن أخرى طبعة الكوميديا الإلهية التي ترجمها سي إتش سيسون C.H. Sisson (أوكسفورد: مطابع جامعة أوكسفورد، ١٩٩٣م).

الفصل السادس

١- كتاب «المأدبة» Il Convivio (The Banquet)، ترجمة ريتشارد لانسينج Richard Lansing (نيويورك: جارلاند للنشر، ١٩٩٠م)، الكتاب الرابع، الفصل الحادي عشر.

٢- الجحيم، ترجمة سي إتش سيسون C.H. Sisson، الأنشودة السابعة والعشرون، البيت السادس والسبعون.

الفصل التاسع

١- يجري مكيافيللي هذا الحوار في «المطارحات»، الكتاب الأول، الفصل السابع والعشرين.

٢- بيكو ديلا ميراندولا «خطبة حول عزة الإنسان» Oration on the Dignity of Man، ترجمة إيه روبرت كابونيجري (مقاطعة واشنطن: ريجنيري للنشر، ١٩٥٦م)، ص ٨.

الفصل العاشر

١- يجري مكيافيللي هذه الملاحظات في «المطارحات»، الكتاب الأول، الفصل الحادي والخمسين.

الفصل الحادي عشر

١- مقتبسة من كتاب لودفيج باستور Ludwig Pastor «تاريخ البابوات» History of the Popes، المجلد الأربعين. (لندن: كيجان بول، ١٨٩١–١٩٥٣م)، المجلد السادس، ص ٣٠٨.

٢- انظر كتاب مايكل روكي Michael Rocke «الصحبة المحرمة: الشذوذ الجنسي والثقافة الذكورية في فلورنسا إبان عصر النهضة» Forbidden Friendships: Homosexuality and Male Culture in Renaissance Florence (أوكسفورد: مطابع جامعة أوكسفورد، ١٩٩٦م).

الفصل الثاني عشر

١- لاندويتشي، «مذكرات فلورنسي» A Florentine Diary، ص ٢٤٣.

الفصل الرابع عشر

١- فيما يخص موضوع كيف أن أسلوب مكيافيللي اللاذع والحاد تسبب في خلق أعداء له في فلورنسا وربما ساهم أيضًا في تجريده من السلطة، يُرجى الاطلاع على كتاب جون إم. ناجمي John M. Najemy «الجدال الدائر حول الخدمات التي قدمها مكيافيللي للجمهورية» The Controversy Surrounding Machiavelli's Service to the Republic في طبعة «مكيافيللي والنظام الجمهوري» Machiavelli and Republicanism. جيزلا بوك Gisela Bock، وكوينتن سكنر Quentin Skinner، وموريتزيو فيرولي Maurizio Viroli (كامبريدج: مطابع جامعة كامبريدج، ١٩٩٠م)، ص ١٠١–١١٧.

٢- ثمة بعض الالتباس بشأن ما إذا كان نيقولو مكيافيللي قد احتُجز في سجن ستينش أم سجن بارجلو، كما يفترض معظم كتّاب السير. غير أن ثمة تقريرًا معاصرًا يذكر بوضوح أن مكيافيللي احتُجز في «سجن ستينش». يُرجى الاطلاع على ملاحظات بارتولوميو كريتاني Bartolomeo Cerretani المقتبسة من كتاب أورستي توماسياني Oreste Tommasini بعنوان: La vita e gli scritti di Niccolò Machiavelli nella Loro relazione col machiavellismo، في مجلدين. (روما: لويشر، ١٨٨٣–١٩١١م)، المجلد الثاني، ص ٤٦٨. ولم يكن البارجلو (الذي عُرف في عام ١٥١٣م بقصر العمدة Palazzo del Podestà) يُستخدم كسجن حتى بعد عام ١٥٧٤م، عندما ألغى المديتشيون منصب العمدة وأُعطي المبنى لرئيس الشرطة. وحتمًا كان ذاك هو نفس الموقع الذي جرى فيه تعذيب بعض المساجين مثل سافونارولا، غير أن سافونارولا لم يُحتجز في قصر العمدة وإنما في «الألبرغيتينو» alberghettino أو «الفندق الصغير» the little hotel في برج قصر مجلس السيادة.

٣- مقتبسة من كتاب أتش سي بوترز H.C. Butters وجيه إن ستيفنس J.N. Stephens «جانب جديد من حياة مكيافيللي» New Light on Machiavelli، المجلة التاريخية الإنجليزية English Historical Review، العدد السابع والتسعين (١٩٨٢م)، ص ٥٩.

٤- ترجم سيسل جرايسون Cecil Grayson القصيدة إلى اللغة الإنجليزية في كتاب روبيرتو ريدولفي Roberto Ridolfi «سيرة حياة مكيافيللي» The Life of Niccolò Machiavelli (شيكاغو: مطابع جامعة شيكاغو، 1963م)، ص ١٣٧، وترجمها أيضًا ألان جيلبرت Allan Gilber في كتاب «مكيافيللي: أهم أعماله وغيرها» Machiavelli: The Chief Works and Others (دورهام، كارولينا

الشمالية: مطابع جامعة ديوك ١٩٦٥م)، المجلد الثاني، ص ١٠١٣. وقد استعنت في اقتباساتي بترجمة جرايسون.

٥- مقتبسة من كتاب باسكال فيلاري Pasquale Villari «حياة جيرولامو سافونارولا وعصره» The Life and Times of Girolamo Savonarola، ترجمة ليندا فيلاري (لندن، ١٨٨٨م)، ص ٣٠٨. بالنسبة لتعذيب سافونارولا، انظر ص ٢٩٩-٣٠٢.

٦- يمكنك أن تجد الترجمة الكاملة في كتاب جيلبرت «مكيافيللي: أهم أعماله وغيرها»، المجلد الثاني، ص ٨٨٠.

الفصل الخامس عشر

١- يمكنك أن تجد الترجمة الكاملة لهذا الخطاب الشهير في كتاب أتكينسون Atkinson وسيسس Sices «مكيافيللي وأصدقاؤه» Machiavelli and His Friends، ص ٢٦٢-٢٦٥.

٢- كتاب «الأمير» ترجمة جورج بول George Bull (لندن: بينجوين ١٩٩٩م)، ص ٢١. كافة الاقتباسات الأخرى من كتاب «الأمير» مأخوذة من هذه النسخة.

٣- مجموعة قصص «الديكاميرون»، ترجمة جي أتش ماكويليم (لندن: بينجوين، ١٩٧٢م) ص ٨٣.

الفصل السادس عشر

١- كتاب «مكيافيللي: أهم أعماله وغيرها»، ترجمة جيلبرت، المجلد الثاني، ص ١٩٩. كافة الاقتباسات الأخرى من كتاب «المطارحات» مأخوذة من هذه الطبعة.

الفصل السابع عشر

١- ملحمة «أورلاندو الساخط»، ترجمة جايدو ولدمان (أوكسفورد: مطابع جامعة أوكسفورد، ١٩٨٣م)، الأنشودة الثالثة والثلاثون، البيت الثاني، والأنشودة السابعة والثلاثون، البيت الثامن.
٢- «مسرحيات مكيافيللي الكوميدية»، وترجمة ديفيد سيسس وجيمس بي أتكينسون (هانوفير، نيو همشير: مطابع جامعة نيو إنجلند، ١٩٨٥م)، ص ١٥٩. كافة الاقتباسات الأخرى من مسرحيات مكيافيللي الكوميدية مأخوذة عن هذه النسخة.
٣- «سيرة حياة كاسترو كاستراكاني»، ترجمة أندرو براون (لندن: مطابع هسبيروس، ٢٠٠٣م)، ص ٣.

الفصل الثامن عشر

١- «Ricordi» in Francesco Guicciardini, Opere, ed. Vittorio Caprariis (Milan and Naples: Riccardo Riccardi Editore، ١٩٥٣)، ص ١٢٠.
٢- «حياة نيقولو مكيافيللي» للكاتب ريدولفي، ص ٢٩١.

الفصل التاسع عشر

١- كتاب «حياة جيوفان فرانشيسكو روستيكو» Life of Giovan Francesco Rustico، ضمن سلسلة «سير حياة الرسامين والنحاتين والمهندسين المعماريين» The Lives of the Painters, Sculptors and Architects للكاتب جورجيو فاساري Giorgio Vasari، المكون من أربعة مجلدات. ويليم جوانت William Gaunt (لندن: دنت، ١٩٦٣م)، المجلد الثالث، ص ٣٣.

الفصل العشرون

١- جوان جورج ولش Johann Georg Walch «المخطوطة الكاملة لدكتور مارتن لوثر» Dr. Martin Luther's Saemmtliche Schriften، المكون من أربعة وعشرين مجلدًا. (سانت لويز: دار نشر كونكورديا)، المجلد الثامن عشر، ص ٢٤٥.

الخاتمة

١- جيوفان باتيستا بوزيني Giovan Battista Busini، المُستشهد به في كتاب ريدولفي «حياة نيقولو مكيافيللي»، ص ٢٤٨. وقد كان ريدولفي حريصًا على أن يوضح أن بوزيني «مفسر يتصف بالخبث والعدوانية» (المرجع السابق).

٢- كتاب ريتشارد كرايستي Richard Christie «دراسات حول المكيافيللية» Studies in Machiavellianism (سان لويس: المطبعة الأكاديمية، ١٩٧٠م).

٣- أيضًا نظر جاريت ماتينجلي Garrett Mattingly إلى كتاب «الأمير» باعتباره نوعًا من الهجاء في كتابه «أمير مكيافيللي، هل هو علم سياسة أم هجاء سياسة؟» Machiavelli's Prince: Political Science or Political Satire?.مجلة أميركان سكولر The American Scholar، عدد ٢٧ (١٩٥٨م)، ص ٤٨٢-٤٩١. للحصول على مناقشة جيدة حول إعادة تأهيل مكيافيللي إبان عصر التنوير يُرجى الاطلاع على كتاب «مكيافيللي» للكاتب فايرولي (أوكسفورد: مطابع جامعة أوكسفورد)، ص ١١٥.

٤- كتاب ماتينجلي «أمير مكيافيللي» Machiavelli's Prince، وكتاب فوجلين Vögelin «تاريخ الفكر السياسي: عصر النهضة والاصلاح

History of Political Ideas: Renaissance and Reformation ... ديفيد مورس David Morse وويليام طومسون William Thompson (كولومبيا، مايسوري: مطابع جامعة ميسوري، ١٩٩٨م)، فيرولي «مكيافيللي»، جيه جي إيه بوكوك J. G. A. Pocock في كتابه «العصر المكيافيللي: الفكر السياسي الفلورنسي والتقليد الجمهوري الأطلنطي» The Machiavellian Moment: Florentine Political Thought and the Atlantic Republican Tradition (برينستون: مطابع جامعة برينستون، ١٩٧٥م)، وكونتن سكنر Quentin Skinner في كتابه «الأسس التي يقوم عليها الفكر السياسي المعاصر» The Foundations of Modern Political Thought، المجلد الأول بعنوان: «عصر النهضة» The Renaissance (كامبريدج: مطابع جامعة كامبريدج، ١٩٧٨م).

٥- حنا فينتشل بيتكن Hanna Fenichel Pitkin في كتابه «الإلهة فورتونا امرأة: تأثير النوع والسياسة في فكر نيقولو مكيافيللي» Fortune Is a Woman: Gender and Politics in the Thought of Niccolò Machiavelli (بيركيلي: مطابع جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٤م).

مراجع مختارة

The Comedies of Machiavelli, ed. And trans. James B. Atkinson and David Sices (Hanover, N.H.: University Press of New England, 1985).

Machiavelli and His Friends: Their Personal Correspondence, ed. and trans. James B. Atkinson and David Sices (DeKalb, Ill.: Northern Illinois University Press, 1996).

Machiavelli: The Chief Works and Others, 3 vols., trans. Allan Gilert, (Durham, N.C.: Duke University Press, 1965).

Machiavelli, Niccolò, *Legazioni e commissarie,* 3 vols., ed. Sergio Bertelli (Milan: Feltrinelli, 1964).

Machiavelli, Niccolò, *The Prince,* trans. George Bull (London: Penguin, 1999).

Ridolfi, Roberto, *The Life of Niccolò Machiavelli,* trans. Cecil Grayson (Chicago: University of Chicago Press, 1963).

Villari, Pasquale, *Niccolò Machiavelli e i suoi tempi illustrati con nuovi documenti,* 3 vols. (Florence: Le Monnier, 1877–82).

نبذة عن المؤلف

روس كينج هو مؤلف كتاب Michelangelo and the pope's ceiling الذي حاز لقب أفضل الكتب مبيعًا حسب القائمة التي تصدرها صحيفة نيويورك تايمز، وكتاب Brunelleschi's Dome الذي اختارته الجمعية الأمريكية لأفضل الكتب مبيعًا كأفضل كتاب غير روائي لعام ٢٠٠١م، كما ألف العديد من الروايات. ولد كينج في كندا وترعرع فيها، ثم انتقل إلى إنجلترا عقب حصوله على شهادة الدكتوراة في الأدب الإنجليزي، وهو يعيش الآن بالقرب من مدينة أوكسفورد.

رقم إيداع ٢٤٥٤٤/٢٠٠٨
ISBN 978 977 6263 21 5